

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية



الحياة العلمية في دمشق في العصر الأيوبي

(٥٦٩ - ٦٥٩هـ/١١٧٣-١٢٦٠م)

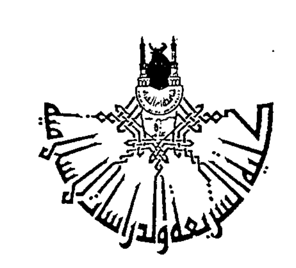
رسالة لنيل درجة الماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية

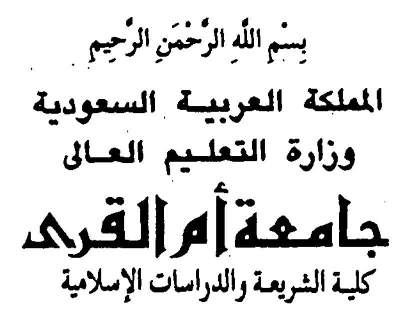
إعداد الطالب
ناصر محمد علي الحازمي

إشراف
أ. د / مريزن سعيد مريزن عسيري

الفصل الأول ١٤٢١هـ

الجزء الأول







نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم رباعي	ناصر محمد علي الحازمي	كلية	الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم	الدراسات العليا التاريخية والحضارية	التخصص	حضارة ونظم اسلامية
الأطروحة مقدمة لنيل درجة	الماجستير		

عنوان الأطروحة : ......الحياة العلمية في دمشق في العصر الأيوبي.

....

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد . .

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٨/٨/١٤٢١هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه .

والله الموفق ،،،

أعضاء اللجنة :

المشرف :	المناقش :	المناقش :
الاسم : د. عمر بن سعيد عيدروس	الاسم : د. سعيد عبد الله البشري	الاسم : د. عبد الله بن سعيد الغامدي
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

أ. د. صيف الله يحيى الزهراني

يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

الرقم .... التاريخ / / ١٤هـ المشفوعات : ....

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص بحث

بعنوان : الحياة العلمية في دمشق في العصر الأيوبي

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .. وأصلي وأسلم على خير خلقه وخاتم رسله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين وبعد :

في هذا البحث سلطت الضوء على دراسة الحركة العلمية في مدينة دمشق ، في العصر الأيوبي ، فمدينة دمشق إحدى حواضر الدولة الإسلامية التي شهدت نهضة علمية رفيعة المستوى ، كما أن العصر الذي تركز الإطار الزمني حوله من أكثر العصور الإسلامية شهرة وخطورة – عصر الحروب الصليبية – والتي ضربت فيه الدولة الأيوبية مثالاً رائعاً للدولة المجاهدة ، حتى تمكن المسلمون على يد سلاطينها من استنقاذ المسجد الأقصى وأكثر المدن الإسلامية التي كانت تحت سيطرة الفرنج .

وأخترت مدينة دمشق ميداناً لهذه الدراسة لأنها عاصمة البلاد الشامية ، ومهوى أفئدة العلماء من أنحاء العالم الإسلامي ، كما أنها تمثل أقوى الممالك الأيوبية في بلاد الشام حيث انقسم البيت الأيوبي بعد وفاة السلطان صلاح الدين كما أن سلاطينها كثيراً ما يسيطرون على أكثر مدن الشام وأقاليمه .

وقد جاء البحث في مقدمة وخمسة فصول ، اشتملت المقدمة على أهمية الموضوع ودراسة لأهم المصادر التي بنى البحث مادته العلمية عليها .

الفصل الأول : أثر الأوضاع العامة على الحركة العلمية في العصر الأيوبي وفيه أربعة مباحث ، شمل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وتناولت دراسة تلك الأوضاع وما لها من أثر على الحركة العلمية خلال حكم الأيوبيين لدمشق . **والفصل الثاني** : دور العلماء في حفظ السنة والجهاد ضد الصليبيين وفيه مبحثان ، الأول : لبيان دور العلماء الدمشقيين في حفظ السنة ، وما ترتب على ذلك من آثار في توحيد الأمة فكرياً . والمبحث الثاني : لبيان دور العلماء في الوحدة الإسلامية والجهاد ضد الصليبيين . **والفصل الثالث** : خصص للحديث عن مظاهر الاهتمام بالنشاط العلمي بدمشق وجاء في أربعة مباحث : تناولت اهتمام السلاطين بالحركة العلمية واهتمام الوزراء والأعيان بالحركة العلمية والوراقة والوراقين ودورهم في الحركة العلمية . وخزائن الكتب بدمشق ودورها في تنشيط الحركة . **أما الفصل الرابع** : فأفرد للحديث عن أماكن التعليم ونظمه وجاء في ثمانية مباحث ، شملت المساجد والكتاتيب ودور القرآن الكريم ودور الحديث الشريف والمدارس والأربطة والزوايا والإجازات العلمية والرحلة في طلب العلم . **أما الفصل الخامس** : فهو دراسة شاملة للإنتاج العلمي والأدبي في دمشق . ثم ختمت البحث باستعراض لأهم النتائج المستخلصة منه والملاحق والصور ثم قائمة بالمصادر والمراجع . وقد خرج البحث بجملة من **النتائج** منها :

أن الدولة الأيوبية في عصر السلطان صلاح الدين قد مرت بحالة من الاستقرار السياسي داخل مدينة دمشق كان له الأثر الإيجابي على الحركة العلمية إذ يعد الاستقرار السياسي مطلباً مهماً في تطور الحركة العلمية وتقدمها . وبعد وفاة السلطان صلاح الدين لم تستقر الأوضاع السياسية في ظل الصراع بين أبناء البيت الأيوبي مما كان له الأثر السلبي على الحركة العلمية ، فمن ذلك رحيل كثير من العلماء الكبار عن دمشق أمثال العز بن عبد السلام وابن الحاجب وغيرهم ، إضافة إلى تعرض أماكن التعليم للهدم والإهمال من واقفيها .

وقد أظهر البحث دور المدرسة الدمشقية في كونها أهم العوامل التي انتشر من خلالها مذهب أهل السنة في بلاد الشام ومصر ، وكانت عاملاً مهماً في مقاومة الفكر الشعبي الباطني . كما أن البحث قد أبرز دور العلماء في الوحدة الإسلامية وحركة الجهاد ضد الصليبيين ، وما قاموا به من جهود في سبيل ذلك ، إلا أنه لابد من القول إن جهود العلماء في ذلك الصراع لم تكن جهوداً جماعية بل كانت جهوداً فردية قام بها بعض العلماء . ولعل اتصال العلماء بالسلاطين خلال العصر اليوبي قد أتاح لهم المشاركة في الجهاد والمناصحة للسلاطين وفض النزاعات الدارة بينهم .

ولاشك أن العصر الأيوبي يعد العصر الذهبي لمدينة دمشق حيث مرت بأزهى عصورها وشهدت خلاله نهضة علمية كبيرة ، وتأسست فيه أكثر أماكن التعليم وخصوصاً مدارس الحديث والمدارس الفقهية التي زاد عددها وكثرت أوقافها وقصدها طلاب العلم من أرجاء العالم الإسلامي .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو حسبي ونعم الوكيل .

اسم الطالب	المشرف	عميد الكلية
ناصر محمد علي الحازمي	أ.د/ مريزين سعيد مريزن عسيري	أ.د/ محمد بن علي العقلا

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

{ واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم } .

البقرة : آية (٢٨٢)

المقدمــــة

- أهمية البحث

- دراسة لأهم المصادر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وأصلي وأسلم على خير خلقه وخاتم رسله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين وبعد :

فإن من الأسس التي نادى بها هذا الدين وحث عليها طلب العلم ، الذي ميز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات ، وذلك لأن الحضارة الإسلامية إذا حق لها أن تفخر بشيء فإنما تفخر بما أسدته للإنسانية من علوم ومعارف، وبما أنتجته العقلية الإسلامية من فكر، وما خلفت من تراث في كافة ميادين الحياة ، ولأجل ذلك ما كادت الحضارة الإسلامية تأخذ دورها بين حضارات العالم حتى أصبح للعلم تلك المكانة المرموقة بين كافة أوساط المجتمع الإسلامي ، فكان عصرا الخلفاء الراشدين والدولة الأموية عصري تأصيل وتقعيد لأسس فكر هذه الأمة في الدراسات الشرعية واللغوية والإنسانية ، وبدخول العصر العباسي وهو العصر الذي التقى فيه الفكر الإسلامي بفكر الحضارات المختلفة ، وكانت حركة الترجمة والنقل ، ثم تبعته مرحلة الإبداع والتأليف ، فلم يدخل القرن الرابع الهجري إلا وقد أصبح للمسلمين فكرهم الخاص وعلومهم الجديدة ومنهجهم القويم في التعامل مع هذه العلوم .

ولقد كانت الدولة الأيوبية من الدول التي تأثرت واستنارت بفكر علماء العصر العباسي الثاني ، الذي شهد فيما بعد العصر البويهي نقلة في شئون الحياة الدينية والفكرية تأثرت به بلاد الشام ومصر فيما بعد .

وقد أدرك سلاطين الدولة الأيوبية دور العلم والعلماء في نهضة الأمم، فأخذ العلماء مكانتهم المرموقة في دولتهم ، ونشطت في أيامهم الحركة العلمية في الشام ومصر في سبيل الإعداد لإتمام حركة الجهاد الإسلامي .

وقد سبق العصر الأيوبي عصر الدولة الأتابكية الزنكية ، التي أولت العلم عناية كبيرة ، ولقي العلماء في بلاط سلاطينها من الرعاية والتشريف الشيء الكثير ، وكان لهم دورهم البارز في الأحداث المعاصرة خاصة وأن الأمة الإسلامية قد تكالب عليها الأعداء ، سواء من داخلها من الفرق المنحرفة دينيا أو اجتماعيا أو سياسيا ، أو من خارجها كالصليبيين وغيرهم ، فحرص العلماء على الوقوف بجانب الأمراء والسلاطين من أجل توحيد الأمة والجبهة الإسلامية ضد الأعداء المتربصين بها ، ويعد العصر الأيوبي امتدادا لهذا العصر في حمل راية الجهاد والعلم لأنهما أمران متلازمان .

ولقد كان من أهم الأمور التي دفعتني للكتابة عن الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، والدور الذي أدته في المجتمع الإسلامي ، ما لهذا الموضوع من أهمية في مجال الدراسات الحضارية ، وما تبرزه من صورة مشرقة لحضارة الإسلام ، وقد وقع اختياري على دراسة الحياة العلمية في عصر الدولة الأيوبية' ذلك لأنها كانت مثالا رائعا للدولة الإسلامية المجاهدة لصد الهجمات الصليبية على العالم الإسلامي ، محاولا إبراز دور العلماء وطلابه في هذه الأحداث الهامة ، وما قاموا به من بيان واجب الجهاد ، وإلهاب روح الحماس في الأمة على مستوى الأمراء والسلاطين والعامة ، لحماية الدولة الإسلامية والوقوف مع الأمراء والسلاطين في جهادهم ، إضافة إلى أن العصر الأيوبي يعد من أنشط العصور اهتماما بالحركة العلمية ، وذلك لأن الأوضاع العامة تشير إلى حساسية الفترة ، وأهمية دور العلماء لاستكمال حركة الجهاد ، ولهذا لقي العلماء في هذا العصر من الرعاية والاهتمام لدى سلاطين الدولة وعامة الناس الشيء الكثير ، فكان لذلك أثر كبير في نشاط الحركة العلمية ، واجتماع جمهرة كبيرة من العلماء في كافة العلوم لا سيما في دمشق ، ناهيك عن مراكز التعليم المختلفة التي كثر إنشاؤها

بشكل ملحوظ ، مثـل دور القـرآن والحديـث والمـدارس ، ومـدارس الطـب والبيمارستانات التي كانت تغص بالعلماء وطلاب العلم .

وقد اخترت مدينة دمشق ميدانا لهذه الدراسة لأنها عاصمة البلاد الشـامية ، ومهوى أفئدة العلماء من أنحاء العالم الإسلامي ، كما أنها تمثل أقـوى الإمـارات الأيوبية في بلاد الشام حين انقسم البيت الأيوبي بعد وفاة السلطان صلاح الديـن ، كما أن سلاطينها كثيرا ما يسيطرون على أكثر مدن الشام وأقاليمه .

وقد شمل الإطار الزمني لهذه الدراسة بداية حكم الدولة الأيوبيـة لمدينـة دمشق وذلك بدخول السلطان صلاح الدين الأيوبي لها بعد وفاة السلطان نور الدين محمود في سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) إلى أن دخلها التتار سنة (٦٥٩هـ/١٢٧٠م) وقتل هولاكو أسيره الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن غازي .

أما الإطار المكاني فقد تركز على مدينة دمشق وضواحيـها ، مثـل حـي الصالحية وغيره ، أما أعمالها مثل بيت المقدس وبعلبك وصرخد فإن كل مدينـة من هذه المدن كانت تمثل أحيانا إمارة أيوبية مستقلة ، وقامت بها حركـة علميـة نشطة جديرة بالبحث والدراسة .

ورغم أهمية مدينة دمشق في هذا العصر وما قامت به من حركـة علميـة واسعة إلا أنني لم أجد بعد الاستقصاء والبحث دراسة خاصة بهذا المنحـى عـن الحياة العلمية في دمشق في العصر الأيوبي ، وإنما قدمت دراسات عامة عن بـلاد الشام ، أو دراسات ضمنية في كتب وأبحاث خصصت لدراسة الحيـاة السياسـية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد الشام .

وقد انتظم البحث في مقدمة وخمسة فصـول ، شـملت المقدمـة أهميـة الموضوع ودراسة لأهم المصادر التي بنى البحث مادته العلمية عليها .

أما الفصل الأول : فقد تناول دراسة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعيـة والدينية وما لها من أثر على الحياة العلمية خلال حكم الأيوبيين لدمشق .

أما الفصل الثاني : فقد خصص لبيان دور العلماء في دمشق فـي حفـظ السـنة والجهاد ضد الصليبيين وقمت ببيان دور العلماء الدمشقيين في حفظ السنة ، كمـا

تناول البحث موقف العلماء من الرافضة ، والفلسفة ، والصوفية ، وتناول الفصل كذلك دور العلماء في الوحدة الإسلامية والجهاد ضد الصليبيين .

وخصص الفصل الثالث : للحديث عن مظاهر الاهتمام بالنشاط العلمي بدمشق وما قام به السلاطين والوزراء والأعيان من جهود في تنشيط الحركة العلمية والاهتمام بها ، مع الحديث عن دور الوراقة والوراقين وخزائن الكتب في تنشيط الحركة العلمية .

أما الفصل الرابع : فأفرده للحديث عن أماكن التعليم ونظمه ، وشمل ذلك المساجد والكتاتيب ودور القرآن ودور الحديث والمدارس والربط والزوايا والخوانق ، ثم الحديث عن الإجازات العلمية ' والرحلة في طلب العلم' كنظم تعليم سائدة بين العلماء في دمشق .

أما الفصل الخامس : فهو دراسة شاملة للإنتاج العلمي والأدبي في دمشق ، استعرضت فيه جهود العلماء في دمشق في التأليف في الدراسات الشرعية من علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه وأصوله .

وتناولت الدراسة علوم اللغة العربية والأدب والإنتاج الأدبي في دمشق في فترة البحث .

كما تناول الفصل دراسة العلوم الاجتماعية من تاريخ وتراجم ، وجغرافيا ، وفلسفة ، إضافة إلى العلوم التطبيقية كالطب والصيدلة ، والكيمياء ، وعلم الحيل والفلك ، ثم ختم البحث باستعراض لأهم النتائج المستخلصة منه والملاحق والصور ثم قائمة بالمصادر والمراجع .

وأخيرا أسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن تكون هذه الدراسة قد أسهمت في الكشف عن جانب مشرق من جوانب حضارتنا الإسلامية الخالدة ،فما كان فيه من صواب وإحسان فبتوفيق الله ' وما كان فيه من نقص أو خطأ فإنني أسأل الله أن يلهمنا الصواب، والله الهادي إلى سواء السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل.

الباحث

ناصر محمد علي الحازمي

دارسة لأهم مصادر البحث[1]

إن الكتابة عن الحركة العلمية في الدولة الإسلامية يتطلب جهدا كبيرا ، إذ لابد من الرجوع إلى عدد كبير من المصادر الأصلية التي تناولت هذا الجانب ، سواء في كتب التاريخ العام ، أو كتب التاريخ الأخرى التي تناولت فترة زمنية محددة ، أو تاريخ دولة بعينها أو في كتب التراجم والطبقات والموسوعات التي تناولت العديد من الفنون .

ولا شك أن الفترة التي تناولها البحث وهي عصر الحروب الصليبية تعد بالدرجة الأولى حركة صراع سياسي ، انصب اهتمام معظم المؤرخين المعاصرين إلى تسجيل وقائعها وأحداثها وتتبع أخبارها فكان ذلك على حساب الجوانب الأخرى الاقتصادية والاجتماعية والعلمية .

ولهذا فإن استخلاص المعلومات الواردة في هذه المصادر كان في غاية الصعوبة إذ لم ترد إلا إشارات عابرة متناثرة في ثنايا تلك المصادر وهي تحتاج إلى جهد وصبر وأناة في تتبعها ، وعلى الرغم من ذلك فقد بذلت أقصى الجهد في تتبع تلك المصادر واستخلاص المادة العلمية منها .

وقد اعتمد البحث على العديد من تلك المصادر المعاصرة لفترة البحث ، إضافة إلى كتب التراجم والطبقات أو تلك الكتب التي تناولت بعض الجوانب من الحياة العلمية في مدينة دمشق ، فمن أهم تلك المصادر التي اعتمد عليها البحث : كتاب (رحلة ابن جبير) : للرحالة محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (٦١٤هـ/١٢١٧م) أحد الرحالة المشاهير ،فهو ممن دخل دمشق في العصر الأيوبي وسجل معلومات مهمة عن الحياة العامة بدمشق ،ويعد كتابه أحد المصادر المهمة للبحث وأفاد منه معلومات في وصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، ونقل صورة مفصلة عن الحياة العلمية في الجامع الأموي ، وما كان يدور فيه من حلقات علمية رآها هو بنفسه ، ولعلّ من أجمل ما نجده في كتاب ابن

---

[1] تم ترتيب المصادر حسب سنة الوفاة

جبير هو وصفه للساعات التي كانت خارج باب الجامع الأموي ، فقد كان أفضل من أعطانا صورة جيدة عنها .

ومن الكتب التي اعتمد عليها البحث : كتاب (الكامل في التاريخ) : لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) المعروف بابن الأثير رأس مؤرخي الاسلام بلا منازع ، من أهل الموصل طلب العلم ورحل في سماعه وزار بلاد الشام وأخذ عن علمائها [١] يقول الذهبي : « كان إماما ، نسابه مؤرخا أخباريا ، أديبا ، نبيلا محتشما . وكان بيته مأوى الطلبة » [٢] أما كتابه الكامل فهو كتاب تاريخ عام بدأه من أول الخلق وانتهى بسنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠) ،« وهو من أفضل كتب التاريخ رتبه على الحوادث والسنين » [٣] .

اعتمد البحث على الجزء التاسع من هذا الكتاب ، [٤] وأفاد منه معلومات مهمة في الحديث عن الأوضاع السياسية والصراع بين أبناء البيت الأيوبي التي كان ابن الأثير معاصرا لجزء كبير منها .

ومن المصادر التي اعتمد عليها البحث : كتاب(النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لبهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن شداد (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) وهو من المصادر المهمة التي تناولت سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي ، خاصة وأن ابن شداد كان من المقربين إليه وأحد قضاته ، ولهذا كان يسجل الأحداث كشاهد عيان لها ، وقد أفاد البحث منه في الحديث عن سيرة السلطان صلاح الدين وجهوده في تأسيس الدولة الأيوبية والجهاد ضد الصليبيين .

أما كتاب : (مرآة الزمان في تاريخ الأعيان) لسبط بن الجوزي شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قوزاغلي بن عبد الله بن يوسف (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) فهو من المصادر الأولى التي اعتمد عليها البحث ، وذلك لأن سبط بن الجوزي

---

(١) المنذري : التكملة ج٣ ص ٣٤٧،٣٤٨

(٢) تاريخ الإسلام حوادث (٦٢١هـ/٦٣٠هـ) ص ٣٧٠

(٣) الباز العريني : مؤرخو الحروب الصليبية ص٢٠٦ ، غوانمه : إمارة الكرك ص٢٣

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٣٤٨

عاش معظم حياته بدمشق ، وكانت تربطه بسلاطين الدولة الأيوبية علاقة متينة وعلى الخصوص الملك المعظم عيسى وابنه الملك الناصر داود والملك الأشرف موسى، [١] فكان يرى الأحداث عن كثب ويسجلها بصورة مباشرة ، فهو من العلماء والمؤرخين الذين عاشوا فترة الصراع مع الصليبيين وشاركوا فيها وسجلوا أحداثها [٢] .

وقد اعتمد البحث على الجزء الثامن من هذا لكتاب والذي تبدأ أحداثه من سنة (٤٩٥هـ/١١٠١م) إلى سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦) وهي السنة التي توفى فيها المؤلف ، ولد سبط بن الجوزي في بغداد سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م) فنشأ في كنف جده أبي الفرج بن الجوزي وتعلم على يديه ، فلما توفى جده سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م) ترك بغداد إلى دمشق وفيها واصل طلب العلم [٣] ، وبهذا يكون قد عاصر أكثر فترة من حكم الأيوبيين لدمشق ، والكتاب غزير المعلومات ولا غنى لمن يؤرخ للدولة الأيوبية عنه ، وقد ذيل عليه الشيخ قطب الدين موسى بن محمد اليونيني (٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) بكتاب سماه (ذيل مرآة الزمان) وتناول فيه الفترة من سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) وحتى سنة (٦٨٦هـ/١٢٨٧م) وسلك فيه مؤلفه طريقة كتاب (مرآة الزمان) في ذكر الحوادث والوفيات حسب ترتيب السنين . وقد أفاد منه البحث بمعلومات قيمه.

ومن المصادر التي اعتمد عليها البحث : كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحيه) [٤] والذيل عليه المسمى (تراجم القرنين السادس والسابع) ، [٥] لعبد الرحمن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي

---

[١] ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٥٣،٦٥٤

[٢] نفسه ج٨ ص٦٥٣،٦٥٤

[٣] القرشي : الجواهر المضيئة ج٣ ص٦٣٣،٦٣٤

[٤] اعتمد البحث على ثلاث طبعات للكتاب وهي الطبعة التي نشرتها مطبعة دار الجيل ببيروت بدون تحقيق ، والثانية:القسمان الأول والثاني من الجزء الأول من الكتاب ، حققهما د / محمد حلمي محمد أحمد والثالثة خرجت مؤخرا بتحقيق إبراهيم الزيبق في خمسة أجزاء عن مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ، وقد أشرت إلى ذلك في الحواشي .

[٥] نشرته مطبعة دار الجيل ببيروت بعناية عزة العطار الحسيني .

(٦٦٥هـ/١٢٦٦م) الملقب بأبي شامة ، وهو أحد أشهر العلماء الدمشقيين الذين عاشوا معظم حياتهم بدمشق وشارك في الحركة العلمية بجهود واضحة في التأليف والتدريس . وقد حوى كتابه (الروضتين) معلومات ذات قيمة كبيرة عن الحياة العلمية خلال حكم الدولتين النورية والصلاحية ، وقد أفاد منه البحث في ذكر جهود السلاطين والوزراء والأعيان الذين أسهموا في تنشيط الحركة العلمية وبناء المدارس ودور العلم بدمشق وفي كافة بلاد الشام .

أما الذيل فهو عمدة في كثير من جوانب البحث ، وهو واسع المعرفة غزير الفوائد مليء بالمعلومات القيمة ، وقد تميز هذا الكتاب بأن معظم تراجمه وحوادثه تدور حول مدينة دمشق ، والمجتمع الدمشقي ، وهو حافل بالمعلومات عن الحياة العلمية والاقتصادية والاجتماعية علاوة على الأحداث السياسية التي تتناول الدولة الأيوبية ، والكتاب أعطى معلومات قيمة عن المرحلة التي يتناولها البحث بشكل كامل فهو يبدأ من سنة (٥٩٠هـ/١٢٩٣م) وحتى وفاة مصنفه سنة(٦٦٩هـ/١٢٧٠م) .

ومن المصادر التي اعتمد عليها البحث : كتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لجمال الدين أبي عبد الله بن محمد بن سالم بن نصر بن واصل (٦٩٧هـ/١٢٩٧م) وهو أهم مصدر تناول تاريخ الدولة الأيوبية وفصل في كثير من قضاياها وأحوالها ، واستقصى معظم أحداثها في بلاد الشام ومصر[١]، ولد ابن واصل في أوائل القرن السابع بحماه وبها أخذ العلم ثم رحل إلى دمشق فحلب ثم الكرك وبيت المقدس والقاهرة وبغداد وزار مكة والمدينة ، [٢] وكان معاصرا لفترة مهمة من الحكم الأيوبي وشاهد عيان لبعض أحداثها . [٣]

ومن المصادر التي اعتمد عليها البحث : كتاب « البداية والنهاية » لعماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ، وهو من كتب التاريخ العام ، يعتمد طريقة الحوليات' ولا شك أنه يعتمد في التاريخ لفترة

---

[١] ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٤،٥،٦ مقدمة المحقق

[٢] الصفدي : الوافي بالوفيات ج٣ ص٨٥ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص٢٣٧

[٣] ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص٢٢٨،٢٤٦

الحروب الصليبية على كتب من سبقه من المؤرخين أمثال ابن القلانيسي ، والعماد الأصفهاني ، وابن الأثير ، وأبو شامة وغيرهم ، وقد أفاد البحث من هذا الكتاب فوائد كثيرة فيما يتعلق بالمدارس والمساجد الدمشقية' خاصة وأنه يطرح رأيه في الأمور التي يعرضها [1].

وضمت كتب التراجم معلومات قيمة استند البحث عليها في كثير من معلوماته ، أعني بذلك تلك الكتب التي ترجمت لأصحاب المذاهب الفقهية وأصحاب الحديث والكتب التي ترجمت للأدباء والنحاة والأطباء ، منها كتاب ﴿ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ﴾ للقاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان (٦٨١هـ/١٢٨٢م) ولد بإربل وبرع في الفقه والأدب والشعر، ورحل إلى دمشق في أول حياته ، ثم استوطن الديار المصرية ، ثم عاد إلى دمشق في آخر حياته، ولي قضاءها وتولى التدريس في العديد من مدارسها [2] .

وكتابه من أشهر كتب التراجم وأحسنها' فهو يترجم فيه لمشاهير وأعلام المسلمين من الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم من العلماء والأدباء، وقد أفدت منه في جوانب متعددة من البحث خاصة في الفصل الرابع والخامس .

ومن كتب التراجم التي اعتمد عليها البحث كتاب ﴿ العبر في خبر من غبر﴾ وكتاب ﴿ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ﴾ ، وكتاب ﴿ تذكرة الحفاظ ﴾ وهي للحافظ المؤرخ أبي عبد الله بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٧م).

أما كتابي ﴿ العبر ﴾ و ﴿ تاريخ الإسلام ﴾ فهما يهتمان في أغلب تراجمهما على وفيات المشارقة ، بل وأهل الشام ، خاصة الذين ترجم لهم في القرون الثلاثة السادس والسابع والثامن [3] .

---

[1] العلبي : خطط دمشق ص١٤

[2] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٤ ص(١٤٩،١٥٠) ، تاج الدين السبكي : طبقات الفقهاء الشافعية ،ج٨ ص٣٣ ' ٣٤ الصفدي : الوافي بالوفيات ج٧ ص٣٠٨،٣١١

[3] عسيري : الحياة العلمية في العراق ص٤٥

أما كتاب (تذكرة الحفاظ) فإن أغلب حفاظ القرن السابع ممن ترجم لهم الذهبي هم من المشارقة ، وقد تجمع أكثرهم في بلاد الشام؛ لهذا كانت هذه الكتب مصادر مهمة اعتمد عليها البحث في كثير من فصوله لا سيما الفصل الخامس .

وكان من مصادر البحث المهمة كتاب (طبقات الشافعية الكبرى) لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (٧٧١هـ/١٣٦٩م) . وكتاب (ذيل على طبقات الحنابلة) لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد البغدادي الدمشقي الحنبلي (٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) وكتاب (الجواهر المضيئة) في طبقات الاحناف لمحي الدين أبي محمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن أبي الوفاء القرشي (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) فهي تعد من أهم المصادر التي أثرت البحث بكثير من المعلومات عن علماء المذاهب ومشاركتهم في الحركة العلمية والإنتاج العلمي.

وهناك كتب في التراجم أفاد منها البحث في تعزيز كثير من المعلومات الواردة فيه ، مثل كتاب (الوافي بالوفيات) صلاح الدين خليل ابن ايبك الصفدي (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وكتاب (فوات الوفيات) لمحمد بن شاكر الكتبي(٧٦٤/١٣٦٢م).

ومن المصادر التي اعتمد عليها البحث : كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) كان مولده بدمشق ، و من بيت علم ، مهر في الأدب والطب بدأ حياته العلمية بدمشق ثم أخذ يتنقل بين بلاد الشام ومصر وصحب مشاهير الأطباء المعاصرين له حتى تميز في مهنة الطب ، واتصل بسلاطين بني أيوب ، ويعد كتابه عيون الأنباء من أهم الكتب الشاملة التي صنفت في تراجم الأطباء والحكماء، وقد حوى عددا كبيرا يزيد على أربعمائة ترجمة ، حيث بدأ كتابه بترجمة الأطباء الإغريق ثم الرومان ثم الهنود ثم أطباء العراق والشام ومصر وبلاد المغرب، وتكمن أهمية هذا الكتاب بما تضمنه من معلومات عظيمة الفائدة حيث عاش ابن أبي أصيبعة فترة من حياته بدمشق وصحب علماءها في الطب والصيدلة ، فنقل لنا ما كان يدور داخل مدارس الطب من حركة علمية طبية أفاد البحث منها في نقل صورة صحيحة عن الحياة الطبية في فترة البحث .

أما كتاب (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) لعز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم المعروف بابن شداد (٦٨٤هـ /١٢٨٥) فيعد من أحسن المصادر التي أمدتنا بمعلومات مهمة عن الحركة العلمية في عدد كبير من المساجد والمدارس ، وهو ينقل من كتب من سبقه من المؤرخين وهذا ما تميز به كتابه [١] ، وقد اعتمد من جاء بعده عليه كالنعيمي والأربلي وابن عبد الهادي ، فالنعيمي ينقل عنه في مواطن كثيرة من كتابه (الدارس في تاريخ المدارس) إلا أن النعيمي لا يرى الاعتماد على ما انفرد به ابن شداد حيث يقول : « وقد وقع له كلام ، وفي كلامه أوهام فاحشة فلا يعتمد ما ينفرد به » [٢].

ومن المصادر الأصيلة التي اعتمد عليها البحث : كتاب (الدارس في تاريخ المدارس) لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (٩٢٧هـ/١٥٢٠م) ، يعد كتاب الدارس من أفضل ما كتب في خطط دمشق ، فهو يؤرخ لأماكن التعليم بدمشق خاصة ، فقد ذكر فيه دور القرآن والحديث ، وتناول المدارس ورتبها حسب كل مذهب فبدأها بمدارس الشافعية ثم الأحناف ثم المالكية ثم مدارس الحنابلة ، ثم مدارس الطب ثم الخوانق والربط والزوايا ثم الترب ، وهو يذكر معلومات مفصلة عن بنائها وأوقافها وعلمائها وما بها من حركة علمية خلال خمسة قرون ، وقد أفاد البحث منه فائدة كبيرة فيما يخص أماكن التعليم ، وقد اختصر هذا الكتاب عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي الشافعي (٩٨١هـ/١٥٧٣م) وسماه مختصر (تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس) [٣] .

ومن المصادر التي اعتمد عليها البحث كتاب :(القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية) لمحمد بن طولون الصالحي (٩٥٣هـ/١٥٣٦م) أفرد هذا الكتاب لتأريخ حي من أحياء دمشق يسمى الصالحية التي ظهر نشاطها العلمي بشكل بارز خلال عصر الدولة الأيوبية ، وعظم شأنها فكانت تقام فيه المساجد والمدارس

---

[١] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة المقدمة ص٣٦

[٢] الدارس : ج٢ ص٣٧٠

[٣] نشر بتحقيق صلاح الدين المنجد ، طبع في مطبعة الترقي بدمشق سنة (١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)

ودور القرآن والحديث وامتد العمران فيها حتى غدت من أكبر أحياء دمشق ،[١] وقد أفرد لها ابن طولون هذا الكتاب وذكر سبب تسميتها وأول من سكنها ثم ذكر مساجدها ودور القرآن والحديث والمدارس الخاصة بكل مذهب ، والزوايا والربط والترب والبيمارستانات ومن نزل بها من الفقهاء والمحدثين وغيرهم . وأفاد البحث منه في جوانب متعددة لا سيما فيما يتعلق بأماكن التعليم وما بها من نشاط علمي خلال فترة البحث .

واعتمد البحث على عدد من المراجع الأصلية منها كتاب (منادمة الأطلال ومسامرة الخيال) للعلامة عبد القادر بدران (١٣٤٦هـ/١٩٢٧م) ، وهو من أهم الكتب المعاصرة التي تتحدث عن تاريخ المدارس ودور العلم بدمشق ، والكتاب سار فيه مصنفه على منهج النعيمي في كتاب (الدارس) إلا أن له زيادة عليه بما حققه من تلك المدارس وتحديد أماكنها في عصره ، وقد كان للعلامة محمد أحمد دهمان دراسات ومقالات في تاريخ الحركة العلمية بدمشق جمعت في كتاب يسمى (في رحاب دمشق) لها أهميتها ، وقد أفاد البحث منها بمعلومات قيمة لا يمكن الحصول عليها بسهولة خاصة مشاهداته لبعض المواقع الأثرية الباقية من أماكن التعليم مثل دار الحديث الأشرفية والمدرسة العادلية وتلك النقوش التي في المقصورة التاجية بالجامع الأموي وغيرها .

كما اعتمد البحث على كتب المؤرخ والمحقق الدمشقي المعاصر صلاح الدين المنجد مثل كتاب (خطط دمشق) وكتاب (دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمين) وكتاب (معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة) ، وغيرها مما له علاقة بفترة البحث .

وجاء كتاب (خطط دمشق) للأستاذ أكرم حسن العلبي كآخر كتاب صنف عن خطط دمشق ، وتناول مساجدها ومدارسها وربطها وأسواقها وحماماتها' محاولا بذل أقصى الجهد في نقد كتابات من سبقه من المؤلفين ، وتصحيح كثير من الأخطاء التي جاءت في كتبهم حسب ما ظهر له من المعلومات والمشاهدات عن تلك المواقع وهو بذلك يضيف لنا معلومات جديدة وهامة في هذا الجانب .

---

[١] ابن طولون : القلائد الجوهرية المقدمة ص٢٩

الفصل الأول

أثر التطورات والأوضاع العامة في الحياة العلمية في الدولة الأيوبية

المبحث الأول : الأوضاع السياســية

المبحث الثاني : الأوضاع الاقتصادية

المبحث الثالث : الأوضاع الاجتماعية

المبحث الرابع : الأوضاع الديــنـية

المبحث الأول : الأوضاع السياسية :

خضعت دمشق لحكم السلاجقة بدخول الملك اتسز الخوارزمي سنة (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م) واستطاع السيطرة عليها وعلى المدن الشامية [١] ويكون بذلك قد قضى على نفوذ الدولة العبيدية في سائر مدن الشام ، وأزال شعار المذهب الإسماعيلي ، « ونشر العدل وأظهر السنة» [٢] وخطب للخليفة العباسي المقتدي بأمر الله [٣] .

وفي سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) ملك تاج الملوك تتش ابن ألب أرسلان دمشق بعد قتل ملكها اتسز الخوارزمي[٤]، وأحسن سيرته في أهل دمشق [٥] وأصبح السلاجقة يحكمون بلاد الشام إما مباشرة أو بواسطة أتابكتهم[٦]، من تلك الأتابكيات[٧] أتابكية دمشق والتي أسسها ظهير الدين بن طغتكين وقد استمرت من

---

[١] ابن القلانسي : حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي ، تاريخ دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م – ١٤٠٣هـ ، دار حسان ـ دمشق ، تحقيق سهيل زكار ص١٧٥ ، ابن الأثير : محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، الكامل في التاريخ ، الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م، دار الكتاب العربي ج٨ ص١٢٣

[٢] ابن كثير : إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ، البداية والنهاية ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية بيروت ، تحقيق د. أحمد أبو ملحم ورفاقه ج١٢ ص١٢٠ ، اليافعي : عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ، مرآة الجنان ، الطبعة الأولى ١٣٣٧هـ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ج٣ ص٩٦

[٣] ابن الأثير : الكامل ج٨ ص١٢٣ ، أبو المحاسن : يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج٥ ص١٠٣

[٤] ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص١٢٧ ، أبن الوردي : عمر بن المظفر ، تتمة المختصر ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ج١ ص٣٦٧

[٥] ابن القلانيسي : تاريخ دمشق ص١٨٢ ، ابن الأثير : الكامل ج٨ ص١٢٦ ، اليافعي : مرآة الجنان ج٣ص١٠٠

[٦] الحموي : محمد ياسين ، دمشق في العصر الأيوبي ، المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٤٦م ص١٢ ، الباشا : حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، دار النهضة العربية ١٩٧٨م ص(١٢٢،١٢٤)

[٧] أتابك : أصل الكلمة (أطابك) ومعناها الوليد الأمير وقيل معناها أمير أب ، والمراد أبو الأمراء ، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل ، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي وغايته رفعه المحل وعلو المقام ، القلقشندي : أحمد بن علي ، صبح الأعشى ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ /١٩٨٧ ، دار الكتب العلمية بيروت ، تحقيق / محمد حسين شمس الدين ج٤ ص١٨ .

سنة (٤٩٨هـ/١١٠٤م) وحتى دخول السلطان نور الدين محمود بن زنكي دمشق سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م) [١].

وحمل عماد الدين زنكي مسئولية الجهاد ضد الصليبيين ، وعبء توحيد البلاد الشامية ، لذا كان حريصا على أخذ دمشق لأهميتها العسكرية في الصراع مع الصليبيين ، ففي سنة (٥٢٩هـ/١١٣٤م) سار عماد الدين زنكي إلى دمشق ليأخذها من شمس الملوك إسماعيل بن بوري ، وذلك لسوء سيرته مع الرعية[٢]، وحاصرها ولم يتمكن من دخولها وانتهى الأمر بالصلح [٣] ، ثم قام عماد الدين بمحاولة أخرى سنة (٥٣٤هـ/١١٣٩م) ولم يتمكن من أخذها ، ودخلت الفرنج دمشق وعاد عماد الدين إلى الموصل [٤].

واستطاع عماد الدين السيطرة على حلب سنة (٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) التي كان الصليبيون يطمعون في الاستيلاء عليها ، [٥]ويعد سقوطها في يد عماد الدين خطوة مهمة في سبيل توحيد القوى في بلاد الشام [٦] إلا أن أعظم عمل قام به في سبيل ذلك هو استيلاؤه على إمارة الرها [٧]

---

[١] عاشور : سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية ، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م ، مكتبة الأنجلو المصرية ج١ ص١١٣

[٢] ابن القلانيسي : تاريخ دمشق ص٣٨٧ ، ابن الأثير : الكامل ج٨ ص٣٤٦

[٣] ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب ، تحقيق : جمال الدين الشيال وغيره ج١ ص٥٧،٥٨

[٤] ابن الأثير : الكامل ج٨ ص٣٦٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٨٧،٨٨،٨٩

[٥] ابن الأثير : محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، دار الكتاب الحديث بالقاهرة ، تحقيق : عبد القادر طليمات ، القاهرة ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م ص٣٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٣٧،٣٨ ، أبو الفداء : اسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب ، المختصر في أخبار البشر ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، تحقيق : محمود ديوب ج٢ ص٦٢

[٦] الغامدي : مسفر بن سالم بن عريج ، الجهاد ضد الصلبين ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، دار المطبوعات الحديثة ص١٨٩

[٧] مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام ، سميت باسم الذي استحدثها وهي الرهاء بن البلندي بن مالك بن دعر ، الحموي : ياقوت بن عبد الله ، معجم البلدان ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ج٣ ص١٠٦ ، ابو الفداء : اسماعيل بن محمد بن عمر ، تقويم البلدان ، دار صادر ، بيروت ص٣٧٤

الصليبية [١] ، ذات الحصون المنيعة والموقع المهم [٢] .

وتولى نور الدين محمود الحكم بعد استشهاد والده ، وتقاسم هو وأخوه ممالك الدولة ، فأخذ هو حلب وأعمالها ، وتولى أخوه سيف الدين غازي بلاد الموصل [٣] وتمكن نور الدين محمود من الحفاظ على أملاك والده وما حققه من فتوحات على حساب الفرنج ، وفي مقدمتها إمارة الرها ، التي حاول من بها من المسيحيين بعد وفاة عماد الدين الخروج عليه ، فسيطر عليها وأخرج من بها من النصارى جزاء خيانتهم [٤] .

وكان نور الدين يرى أن قتال الفرنج والاستيلاء على حصونهم وقلاعهم لا يمكن تحقيقه إلا بأخذ دمشق لأنها تقع بينه وبينهم [٥] فعقد العزم على استرداد بيت المقدس [٦] ، ولعل أهم الأمور التي دفعته إلى أخذ دمشق ، أن الفرنج قد دخلوها وفرضوا على أهلها الجباية [٧] ، كما أن سياسة الظلم والمصادرة التي كان ينتهجها صاحب دمشق مجير الدين أنر دفعت أهل دمشق إلى مكاتبة نور الدين والاستغاثة به [٨] ، واتبع نور الدين مع أمير دمشق أسلوب الحيلة ، فكان يراسله بالهدايا والأعطيات حتى استماله إليه ، بل كان يقول له أحيانا : « أن فلانا من الأمراء قد كاتبني في تسليم البلد إلي » فيبعد مجير الدين ذلك الأمير ، وكاتب الأحداث [٩] بدمشق ووعدهم بالعطايا والهبات ، ثم سار لحصار دمشق ، فلما علم

---

[١] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٨ ، ابن القلانيسي : تاريخ دمشق ص٤٣٦،٤٣٧

[٢] عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٥٩٠،٥٩١ ، مسفر الغامدي : الجهاد ضد الصليبيين ص١٨٩، شبارو : عصام محمد ، السلاطين في المشرق العربي معالم دورهم السياسي والحضاري ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ص١٢١

[٣]) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص١٣

[٤] نفسه ج٩ ص١٤

[٥] ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص١٢٥،١٢٦،١٢٧.

[٦] سبط بن الجوزي :يوسف بن قزوغلي التركي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، الطبعة الأولى ، الطبعة الهندية ١٣٧٠هـ ج٨ ص٢٢٠،٢٢١ ، أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمي ، ج١ ص٢٣٧ .

[٧] نفسه ج٨ ص٢٢٠،٢٢١

[٨] نفسه ج٨ ص٢٢٠،٢٢١

[٩] سوف يأتي الحديث عنهم في الوضاع الإجتماعية

مجير الدين راسل الفرنج يطلب النجدة منهم ، لكن نور الدين تمكن من أخذ دمشق قبل وصول الفرنج لنجدته (١) .

وبعد دخول نور الدين محمود إلى دمشق نقل عاصمته إليها ومرت دمشق بفترة سياسية مستقرة ، ونشر فيها العدل وأزال المكوس ، وشرع في بناء المساجد والمدارس والربط (٢) .

وكان نور الدين يتطلع إلى أخذ مصر بهدف ضمها إلى الجبهة الإسلامية وتطويق الفرنج (٣) ، فكانت اولى المحاولات سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م) والتي خرج فيها أسد الدين شيركوه بأمر السلطان نور الدين وذلك تلبية لطلب شاور (٤) الوزير العبيدي الذي استنجد به ضد ضرغام (٥) ، واستطاع أسد الدين في هذه الحملة أن يقتل ضرغام ويعيد شاور إلى منصبه ثم يعود إلى الشام (٦)، وفي سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م) خرج أسد الدين شيركوه إلى مصر في محاولة ثانية بأمر من السلطان نور الدين ليمتلكها ، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وفي هذه المرة طلب شاور النجدة من الفرنج ، وكان الفرنج يدركون أنه إن ذهبت مصر لنور الدين مع ملكه الشام سوف تكون له السيطرة بعدها على بيت المقدس فهبوا لنجدة شاور ، ووقع القتال بين الطرفين ، وهزم الفرنج واستولى أسد الدين على الاسكندرية ، ثم استقر الأمر بالصلح بين الطرفين (٧) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص١٢٥،١٢٦،١٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٤٥،٤٦

(٢) أبو شامة : الروضتين ج١ ص١١،١٥،١٦ تحقيق: محمد حلمي ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٢٧٠،٢٧١،٢٧٣

(٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٣٤،٣٥ ، ابن شداد : المحاسن اليوسفية ص٢٨،٢٩

(٤) ابو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر بن شأس ، كان من أشهر الوزراء في الدولة العبيدية ولي إمارة الصعيد فسيطر عليه كانت سببا مباشرا في سقوط الدولة العبيدية توفى مقتولا سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٨م) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص٤٣٩،٤٤٠،٤٤١ .

(٥) أبو الأشبال ضرغام بن سوار اللخمي ، هو الذي خرج على شاور وأخرجه من القاهرة وولي الوزارة مكانه ، ثم أخرجته عساكر نور الدين من القاهرة وتوفى مقتولا على يد أسد الدين شيركوه سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص٤٤٠،٤٤٢

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص١٣٧،١٣٨،١٤٠،١٤٢.

(٧) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٩٤،٩٥،٩٨،٩٩،١٠٠،١٠١،١٠٢،١٠٣ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص٣٦٣،٣٦٤،٣٦٥ تحقيق محمد حلمي ، ا بن واصل : مفرج الكروب ج١ ص١٤٨،١٥٣ .

وفي سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) خرجت الحملة الثالثة على مصر بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، واستطاع شيركوه أن يدخل مصر ويستولي عليها ويقتل الوزير شاور ، ومن ثم يتولى الوزارة للعاضد [١].

ولم يلبث أسد الدين شيركوه أن توفي، وخلفه على وزارة مصر ابن أخيه صلاح الدين يوسف فاستقرت له الأمور وأحسن في ولايته ، يقول ابن شداد : « واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام ، وبذل المال وملك الرجال ... وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد » [٢].

وكان نور الدين حريصاً على إعلان الخطبة للخليفة العباسي ففي سنة (٥٦٧هـ/١١٧١م) كتب إلى صلاح الدين خطابا يأمره فيه بإقامة الخطبة للخليفة وإلغائها عن العاضد بعد أن تأكد له ضعف الدولة العبيدية ، وتم ذلك وأعلنه صلاح الدين وخطب في جميع الديار المصرية للخليفة المستضيئ بأمر الله [٣] واستقل صلاح الدين بحكم مصر نيابة عن السلطان نور الدين ، وتمكن من القضاء على المؤامرات الداخلية التي دبرها جماعة من رجال القصر العبيدي بعد أن كشف له أمرهم فأمر بصلبهم[٤]كما قضى على ثورة السودان وتخلص منها[٥].

وبعد وفاة السلطان نور الدين محمود سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) بايع الناس ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وهو شاب صغير لم يبلغ الحلم ، وأطاعه الناس بالشام ومصر وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه [٦].

---

[١] أبو شامة : الروضتين ج١ ص٣٨٩،٣٩٠،٣٩١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص١٥٥،١٧٤

[٢] المحاسن اليوسفية ص٨١

[٣] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص١١٢ ، ابن شداد : المحاسن اليوسفية ص٨٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٢٠٠،٢٠١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص١٥٦،١٥٨

[٤] ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٢٤٣،٢٤٧

[٥] نفسه ج١ ص١٧٤،١٧٦

[٦] نفسه ج٢ ص(١،٢،٣)

وكان على صلاح الدين أن يتحمل المسئولية التي تركها على عاتقه السلطان نور الدين في حمل راية الجهاد ضد الصليبيين ، فما كان منه إلا السير وفق الخط الذي رسمه نور الدين من قبله في توحيد الجبهة الإسلامية .

ولما رأى صلاح الدين الأيوبي تنافس الأمراء في السيطرة على الملك الصالح إسماعيل ، وما دبت من الخلافات بينهم [١]، وانتهاز الفرنج الفرصة في مهاجمة بعض المدن الشامية مثل بانياس [٢] وغيره من الحصون الشامية [٣]، وطمع سيف الدين غازي في ملك الشام [٤] وكل ذلك كان يهدد الوحدة الإسلامية التي بناها نور الدين محمود ، كل ذلك كان دافعا له في التوجه إلى بلاد الشام وضمها ، واستغل صلاح الدين يوسف الهدنة التي كتبها الأمراء في دمشق مع الفرنج وأنكر عليهم ذلك وجعلها حجة له في التوجه إلى بلاد الشام وأخذ دمشق[٥].

وكان صلاح الدين قد أرسل كتابا إلى الأمير شمس الدين بن المقدم الذي كان يتولى تربية الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وفيه « إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم ، وللبيت الأتابكي ـ أعلاه الله ـ إلا ما يحفظ أصله وفرعه ، أو دفع ضره ، وجلب نفعه ...» [٦] ثم سار إلى دمشق ودخلها ، وتسلم قلعتها ونودي في دمشق بإبطال المكوس [٧] ، وأحسن إلى الناس وطيب قلوبهم [٨] ، ويصف ابن أبي طي ذلك فيقول : « ونشر علم العدل

---

[١] أمنيه بيطار : تاريخ العصر الأيوبي ص١١٤

[٢] بانياس : بلدة قرب دمشق ، تحت الجبل الذي في غربها ، يرى عليه الثلج ، وبه الليمون والأترج ، البغدادي : مراصد الإطلاع ج١ ص١٥٨

[٣] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص(١٢٦،١٢٧،١٢٨)

[٤] نفسه ج٩ ص١٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص(٣٣،٣٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص(٢٢،٢٣،٢٤،٢٥،٢٦)

[٥] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٨

[٦] نفسه ج٢ ص٢٠

[٧] المكس : ما يأخذه العشار ، وقيل كل ما أخذ بكره أو قسم على قوم من الجباية وغيرها إتاوة ، ابن منظور لسان العرب ، ماده مكس ص٢٢١

[٨] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٢٠

والإحسان وأغضى آثار الظلم والعدوان ، وأبطل ما كان الولاة استجدوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمؤن والضرائب والمحرمات » [١].

ثم كتب إلى الخليفة العباسي المستضيئ بأمر الله رسالة يبين فيها ما من الله به من فتح مصر ، وأخذ بلاد اليمن والحجاز واستيلائه علـى جـزء مـن بـلاد المغرب والخطبة له بها ، وأن سبب قدومه إلى الشام « إنما هو لإصلاح الأمور ، وحفظ الثغور ، وخدمة ابن السلطان نور الدين وكفالته وتخليصه من قوم يـأكلون الدنيا باسمه ويبالغون في ظلمه ، ثم طلب من الخليفة المستضيئ بنور الله تقليـدا جامعا بمصر والمغرب واليمن ، والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية وكلما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكره » [٢].

وبعد استقرار صلاح الدين بدمشق سعي إلى ضم بقية المدن الشامية وبـلقي الحصون والقلاع بهدف استكمال توحيد الجبهة الإسلامية والسعي إلـى استرداد بيت المقدس [٣] يقول ابن شداد : « ولقد سمعت منه يقول : لما يسر الله لي الديـار المصرية علمت انه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي » [٤] .

وبعد صراع دام عدة سنوات مع أمراء حلب والموصل انتهى الأمر بضـم حلب سنة (٥٧٩هـ/١١٨٣م) [٥] وعقد الصلح مع أمراء الموصل من الزنكييـن سنة (٥٨١هـ/١١٨٥م) على أن يكونوا تابعين لصلاح الدين ويخطب لـه علـى منابرها وتسك العملة باسمه [٦] وأن يكونوا عونا له في الجهاد ضـد الصليبيين واسترداد بيت المقدس والمدن الإسلامية الأخرى [٧] ، وقصد صلاح الديـن بعـد

---

[١] أبو شامة : الروضتين ج١ ص٦٠٥ تحقيق محمد حلمي

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص(٢٥،٢٦،٢٧،٢٨،٢٩)

[٣] سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٧١٦ ، فايد حماد : الجهاد الإسلامي ص٥٧

[٤] المحاسن اليوسفية ص٨١

[٥] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص(١٦٢،١٦٣) ، ابو شامة : الروضتين ج٢ ص(٤٢،٤٣) ، ابن أيبك : الـدر المطلوب في أخبار بني أيوب' تحقيق عبد الفتاح عاشور ص(٧٥،٧٦)

[٦] ابو شامة : الروضتين ج٢ ص١٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص(١٧٢،١٧٣) ، ابـن شـداد : المحاسن اليوسفية ص١١٩

[٧] عبد الله الغامدي : صلاح الدين والصليبيون ص٨٩ ، عصام شبارو : السلاطين في المشرق الإسـلامي ص١٤٨

ذلك قتال الفرنج ووقعت بين الجانبين معارك فاصلة لعل أهمها وقعة حطين سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) [١] وتعد هذه المعركة نقطة تحول في الصراع مع الصليبيين ، فتحت الباب للجيش الإسلامي ليسيطر على بيت المقدس [٢] ويفتح المدن الساحلية مثل جبلة [٣] واللاذقية [٤] وبيروت [٥] وصيدا [٦] وعكا [٧] وعسقلان [٨] وغيرها من المدن التي تقع على ساحل الشام [٩] . وكان من أعظم الإنجازات التي سجلها التاريخ لصلاح الدين هو استرداد بيت المقدس وفتحه سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) [١٠] بعد أن ظل في يد الصليبيين إحدى وتسعين سنة [١١] .

وبوفاة السلطان صلاح الدين استقر الملك من بعده لأولاده ، فأخذ الملك الأفضل على دمشق وأعمالها [١٢] ، كبيت المقدس ، وبعلبك[١٣]، وصرخد[١٤] ،

---

[١] ابن شداد : المحاسن اليوسفية ص(١٢٦،١٢٧،١٢٨،١٢٩)

[٢] سعيد عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ص٥٨

[٣] جبلة : قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية ، ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص١٠٥

[٤] اللاذقية : مدينة في ساحل بحر الشام تعد في أعمال حمص وهي غربي جبلة بينهما ست فراسخ ، ياقوت : معجم البلدان ج٥ ص٥ .

[٥] بيروت : مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال دمشق بينها وبين صيدا ثلاثة فراسخ ، نفسه ج١ ص٥٢٥

[٦] صيدا : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال دمشق شرقي صدر بينهما ستة فراسخ ، نفسه ج٣ ص٤٣٧

[٧] عكا : اسم موضع على ساحل بحر الشام ، نفسه ج٤ ص١٤١.

[٨] عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين يقال لها عروس الشام ، ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص١٢٢ .

[٩] ابن شداد : المحاسن اليوسفية ص(١٣٢،١٣٣،١٤٠،١٤١،١٤٢،١٤٤،١٤٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص(١٨٨،١٨٩) ، البنداري : سنا البرق الشامي ص٢٩٣ .

[١٠] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص(١٨٨،١٨٩) ، البنداري : سنا البرق الشامي ص٢٩٣ .

[١١] [١٤] المرجع السابق ج٢ ص٢٤١

[١٢] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢٢٦ ، العماد الكاتب : الفتح العنسي ص٦٣٢ .

[١٣] بعلبك : مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٤٥٣ .

[١٤] صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهي قلعة حصينة مشهورة وولاية حسنة واسعة ، نفسه ج٣ ص٤٠١ .

وبصرى[١]، وبانياس أفضل الممالك الأيوبية بالشام « وهو المعهود لـــه بالسـلطة وعنده بدمشق جماعة كثيرة من أمراء الدولة » [٢] وفي الديار المصريـــة الملـك العزيز عثمان ، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي ، وباليمن الملك العزيـز سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب [٣] .

أما الملك الأفضل علي فإنه ملك دمشق من سنة (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) إلـى سنة (٥٩٢هـ/١١٩٥م) وقد اتخذ ضياء الدين نصر الله بن محمـــد بـن الأثـير الأديب الكاتب وزيراً له ، [٤] فأشار عليه بإبعاد الأمراء الأكابر الذين كانوا مـن أعيان الدولة عند أبيه مثل : فخر الدين جهاركس ، الأمير عـز الديـن أسامة' وفارس الدين ميمون القصيري ، والقاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني وغيرهم، فخرج هؤلاء إلى مصر فأكرمهم أخوه العزيز عثمان، وأحسن إليهم وجعلهم فـي دولته [٥] ولم تكن تلك المشورة إلا بداية لذهاب ملكه [٦] .

ونشب الخلاف بين الأخوين الأفضل علـي ، والعزيـز عثمـان ، وكـان الأمراء الذين أخرجهم الأفضل قد نقلوا إلى الملك العزيز ما آلت إليه ولاية أخيـه في بلاد الشام ، وتحكم الوزير ضياء الدين فيه' وحرضوه على انـتزاع دمشـق وأعمالها فعزم على ذلك [٧] . فسار بجيشه لأخذ دمشق سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م) وحاصرها [٨] ، وأسرع الأفضل بطلب النجدة من عمه العادل أبي بكر بن أيوب ، فخرج إليه بالجيوش ، وأخذ معه الملك الظاهر غازي صاحب حلـب ، ونـاصر

---

[١] بصرى هي مدينة مشهورة بالشام من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران ، ياقوت الحموي معجم البلدان ح١ ص٤٤١

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٥،٤)

[٣] نفسه: ج٣ ص(٥٤،٥٣)

[٤] ابـن واصـل : مفـرج الكـروب ج٣ ص(٢٨،٢٧،١١) ، لمقريـزي السـلوك ج١ص(١١٩،١١٨،١١٧،١١٦،١١٥) .

[٥] نفسه ج٣ ص(٢٨،٢٧) .

[٦] نفسه ج٣ ص١٠ ، الذهبي : تاريخ الإسلام ج(٥٨١/٥٩٠) ص(٩٩،٩٨) ، ابن أبيك : الدر المطلوب ج٧ ص١٢٤

[٧] نفسه ج٣ ص(١٥،١٤)

[٨] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢٣١

الدين محمد بن تقي الدين صاحب حماه ، وتوجه هؤلاء إلى دمشق ، واتفق الجميع على حفظها ، واستقر الأمر بالصلح بين الجانبين على أن يضم للملك العزيز عثمان بيت المقدس وأعمالها ، والأفضل فضل على دمشق وأعمالها ، ثم عاد كل ملك إلى بلده [١] .

وبقي الصراع مستمرا بين الأخوين حتى تمكن الملك العزيز عثمان من السيطرة على دمشق [٢] ودخلها بصحبة عمه العادل أبي بكر بن أيوب ، فلما دخل دمشق أحسن إلى الناس وطيب قلوبهم، وأظهر العدل وأبطل المكوس ، من ثم استخلف عمه العادل عليها وعاد إلى القاهرة [٣]، أما الملك الأفضل علي فإنه خرج ملتجئا إلى قلعة صرخد [٤] .

وقد أقام الملك العزيز عثمان مملكة قوية بمصر وأجزاء كبيرة من بلاد الشام، ولكن سرعان ما وافته المنية سنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) وخلفه ابنه الملك المنصور محمد، الذي كان طفلا لا يتجاوز عمره تسع سنين ، فاجتمع الأمراء الصلاحية والأسدية ، ورأوا أنه لصغر سنه لا يمكن أن يقوم بمسئولية الدولة [٥] فكاتبوا الملك الأفضل علي، فقدم عليهم من صرخد وأخذ الملك وأصلح الأمور [٦]، وفي هذه السنة (٥٩٥هـ/١١٩٨م) حاول الأفضل المسير إلى دمشق لأخذها من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢٣١، ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٣٦،٣٥،٣١)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٦٤،٦٣،٦٢) ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢٣٦ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص٧٦ ، أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل ، ذيل الروضتين ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٤م ، تحقيق : عزت العطار الحسيني ج٨ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٤٤٣

(٤) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٦٤،٦٣،٦٢) ، أبو الفداء : المختصر ج٢ ص١٨٠

(٥) ابن أبي الدم : إبراهيم بن عبد الله الحموي ، التاريخ المظفري ، صورة من مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، تحت رقم ١١٣١ (ورقة ٥٣٥)، ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٨٩،٨٨) ، ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص٧

(٦) ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، ورقة (٥٣٦،٥٣٥) ، ابن الأثير : الكامل ص٩ ص٢٤٣

عمه العادل، ولكنه لم يتمكن من ذلك [١] ، مما دفع عمه العادل إلى المسير إلى مصر ودخولها والسيطرة على مقاليد الأمور فيها بعد الهزيمة التي مني بها الأفضل فخرج من القاهرة متوجها إلى سميساط [٢] .

وقد سعى الملك العادل أبي بكر بن أيوب إلى بسط نفوذه على مصر والشام وذلك في محاولة لإعادة توحيد الجبهة الإسلامية التي فقدت وجدتها بعد وفاة السلطان صلاح الدين ونشوب الخلافات بين أبناءه على الحكم [٣] .

وقام الملك الأفضل علي بمحاولة كان يهدف منها الوقوف في وجه عمه العادل، وانتزاع مصر منه، فاتفق مع أخيه الملك الظاهر صاحب حلب على منازلة دمشق وأخذها ، فلما علم العادل بما عزم عليه الأخوان سار بجيشه إلى الشام لمنعهم من دخول دمشق ، ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الأخوين حول من يأخذ دمشق إذا تمت السيطرة عليها [٤] .

وفي الوقت الذي ظل فيه الصراع قائما بين أبناء البيت الأيوبي [٥] استغل الصليبيون ذلك وتجمعوا في عكا سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) فيما تسمى بالحملة الصليبية الخامسة وذلك في محاولة لاستعادة القدس [٦] ، فقام الملك العادل بتجهيز الجيوش لصد هذا الزحف الصليبي ، وتوجه بنفسه لمراقبة الأحداث عن قرب [٧] ولما غيرت هذه الحملة خط سيرها لتتجه إلى مصر وتستولي على ثغر دمياط [٨]

---

[١] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص(٢٤٤،٢٤٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٩٥،٩٧) ، المقريزي : السلوك : ج١ ص(١٤٨،١٤٩) .

[٢] الأصفهاني : البستان الجامع ورقة (١٤٦ ب ــ ١٤٧ أ) ، مفرج الكروب ج٣ ص(١٠٩،١١٠) ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص(٢٤٩،٢٥٠) ، أبو الفداء : المختصر ج٣ ص٩٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص٢٥

[٣] ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٦٢،٦٤) ، المقريزي : السلوك ج١ ص(١٥٨،١٥٩) .

[٤] ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(١٢٣،١٢٤،١٢٥،١٢٦)

[٥] نفسه ج٣ ص(١٢٣،١٢٨،١٣٠،١٣٣)

[٦] نفسه ج٣ ص٢٠٤ ، المقريزي : السلوك ج١ ص١٨٦

[٧] ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٢٥٥،٢٥٦) ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص(٣١٤،٣١٥) ، ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص٧٣

[٨] دمياط مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل وهي ثغر من ثغور الإسلام ، ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٤٧٢

الحصين بعد حصار طويل أبلى فيه أهل المدينة بلاءً عظيماً [١] وحينما علم السلطان بخبر قرب سقوط دمياط غضب غضبا شديدا ومرض وهو معسكر بجيشه على مرج الصفر ، فحمل إلى دمشق وتوفى إثر ذلك سنة (٦١٥هـ/١٢١٨م) [٢] .

وكان الملك العادل قد قسم البلاد في حياته بين أولاده فجعل مصر للملك الكامل محمد ، ودمشق والقدس وطبرية [٣] والأردن والكرك [٤] وغيرها من الحصون المجاورة لها لابنه المعظم عيسى، وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين[٥] وخلاط [٦]، وأعمالها لابنه الأشرف موسى وهكذا بقية البلاد [٧].

واتفق الإخوة على قتال الفرنج كما يقول ابن الأثير « اتفاقا حسنا ولم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجري بين أولاد الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الواحد .. ولعمري إنهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذود عن الإسلام..»[٨] .

وكان المعظم عيسى قد ناب عن أبيه في حكم دمشق ، وبعد وفاته خلفه على دمشق وأعمالها ، « واستولى على جميع ما كان له من الأموال والجواهر والعتاد والخيول » [٩]

---

[١] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٣١٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص(٣٢،٣٣) ، الذهبي : العبر ج٣ ص ١٦٨

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٢٧٠،٢٧٦) ، أبو الفداء : المختصر ج٢ ص٢١٣

[٣] طبرية قرية من قرى الشام في الإقليم الثالث منه ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وبينها وبين بيت المقدس كذلك ، ، ياقوت : معجم البلدان ج٤ ص١٧

[٤] الكرك : كلمة أعجمية ، وهي اسم لقلعة حصينة جدا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيله وبحر القلزم والبيت المقدس ، نفسه ج٤ ص٣١٢

[٥] ميافارقين : أشهر مدينة بديار بكر ، ياقوت : معجم البلدان ج٥ ص٢٣٥ ، القزويني : آثار البلاد ص٥٦٥

[٦] خلاط : مدينة كبيرة مشهورة ، وهي قصبة أرمينيا الوسطي ولها سور حصين ، هي ذات خيرات ومياه كثيرة ، ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص٣٨٠ ، القزويني : آثار البلاد ص٥٢٤

[٧] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص(٣٢٦،٣٢٧)

[٨] نفسه ج٩ ص(٣٢٦،٣٢٧)

[٩] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٥٩٦،٥٩٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٢٧٥،٢٧٦) ، المقريزي : السلوك ج١ ص(١٥١،١٥٢،١٥٣)

وبقي في حكم دمشق حتى سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) [١] وبعد سقوط ثغر دمياط ، قام المعظم عيسى بتخريب أسوار بيت المقدس وذلك خشية أند يأخذه الفرنج [٢] كما خرب بعض الحصون المجاورة له مثل بانياس وتبنين للسبب نفسه [٣] ومع ذلك فإن المعظم قد قام بدور بارز في حركة الجهاد ضد الصليبيين [٤] خاصة في استرداد ثغر دمياط ، ففي سنة(٦١٨هـ/ ١٢٢١م) طلب الملك الكامل محمد صاحب مصر النجدات من الممالك الأيوبية لمساعدته في إخراج الصليبيين من دمياط [٥] ، وكان المعظم عيسى من أحرص الناس على خلاص دمياط من أيدي الفرنج [٦] ، فلبى المعظم النداء وكان معه جيوش الشام وسار بها إلى مصر لقتال الفرنج واسترداد دمياط[٧]

والجدير بالذكر أن تلك الوحدة التي تحققت بين ملوك البيت الأيوبي واستطاعوا من خلالها استعادة دمياط [٨] لم تدم طويلا ، فسرعان ما دب الخلاف بينهم [٩] ، فتحالف المعظم عيسى مع الدولة الخوارزمية ، وشكل الملك الكامل محمد وأخيه الأشرف موسى حلفا ضد أخيهم المعظم [١٠] .

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٥٢ ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص٢٣٦ ،

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ص٤٢ ، سبط بن الجوزي : ج٨ ص٦٠١ ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص(١١٥،١١٦) ، المقريزي : السلوك ج١ ص(٢٠٤ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص١٣٤

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٠١ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص٢١٦ ، ابن أيبك : كنز الدرر ج٧ ص٢٠٢ ، الحريري : الأعلام والتبيين ص(٥٢،٥٣)

[٤] اليافعي : حسن بن إبراهيم بن محمد ، جامع التواريخ المصرية في ذكر الملوك والخلفاء والسلاطين الإسلامية ، منه صورة بمركز البحث وإحياء التراث بجامعة أم القرى تحت رقم ١١٤٢ ، ورقة (٢٨/ب) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٤٧ ، الصفدي : تحفة ذوي الألباب ج٢ ص(١١٠،١١١) .

[٥] المقريزي : السلوك ج١ ص(٢٠٢،٢٠٣،٢٠٦).

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٢٨

[٧] ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص(٩٤،٩٥) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٦١٩،٦٢٠)، ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص(٩٢،٩٣) ، الحريري : الأعلام والتبيين ص٥٣ .

[٨] أبو شامة : ذيل الروضتين ص(١٢٨،١٢٩) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٦١٨،٦١٩،٦٢٠) ، ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص(٩٢،٩٣) ، المقريزي : السلوك ج١ ص(٢٠٨،٢٠٩) .

[٩] عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص٩٥٤ .

[١٠] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٦٢١،٦٢٢) ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٣٠

وحينما علم الكامل بتحالف أخيه المعظم مع السلطان جلال الدين الخوارزمي ، خشي على أملاكه في مصر والشام [١] فدفعه ذلك إلى الإرسال إلى ملك الفرنج ، يدعوه للقدوم إليه ، ووعده أن يعطيه بيت المقدس وبعض مدن الساحل في سبيل الوقوف معه ضد أخيه [٢] .

أما الملك المعظم فإنه لما علم بما فعله الكامل ، أرسل هو الآخر إلى السلطان جلال الدين الخوارزمي ووعده أن يخطب له بدمشق ، وأن يسك العملة باسمه ، وأقدم على قطع الخطبة عن أخيه الكامل [٣] .

ثم جاءت رسل الإمبراطور فردريك الثاني إلى الملك المعظم عيسى بدمشق يطلبون منه تسلم بيت المقدس ، فقابل المعظم ذلك الطلب بالغضب الشديد ورد على رسول الإمبراطور بقوله « قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ما له عندي إلا السيف » [٤] . وفي خلال ذلك توفى المعظم عيسى سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) وخلفه ابنه الملك الناصر داود [٥] وتجدد الصراع بينه وبين عمه الكامل ، وسلم الكامل بيت المقدس إلى الإمبراطور فردريك وعقد معه الصلح ، وتوجه إلى دمشق وحاصرها وضيق عليها ، واتفق الكامل مع أخيه الأشرف علي أخذ أملاك ابن أخيهما الملك الناصر داود وتقاسمها [٦] .

وبعد طول الحصار الذي ضربه الكامل محمد وأخيه الأشرف موسى على[٧] دمشق تنازل الملك الناصر داود عن حكمها ، وعوض بدلا عنها بإمارة

---

[١] ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص (١٧٦،١٨٠) ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص(٢٣٥،٢٣٦) ، المقريزي : السلوك ج١ ص(٢٢٣،٢٢٤)

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص٢٠٦ ، أبو الفداء : المختصر ج٢ ص(٢٣٥،٢٣٦) ، المقريزي : السلوك ج١ ص(٢٢٣،٢٢٤) .

[٣] المقريزي : السلوك ج١ ص٢٢٢

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٥١ ، ابن ايبك : كنز الدرر ج٧ ص٢٨٤ .

[٥] ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص١٥٣

[٦] ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص٢٥٢ ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص(١٥٤،١٥٥) ، ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص١٦١ ، المقريزي : السلوك ج١ ص٢٢٧ .

[٧] ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص(٢٥٦،٢٥٧)

الكرك وكان خروجه منها سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) [١] ، وقد تمكن الملك الناصر داود هو على إمارة الكرك أن يستنقذ بيت المقدس من أيدي الصليبيين(٦٣٧هـ/١٢٣٩م) ، فحمد له المسلمون هذا العمل العظيم، وأرسلت البشائر إلى البلاد الإسلامية بهذا النصر ، ومدحه الشعراء فمن ذلك ما قاله الشاعر جمال الدين بن مطروح :

المسجد الأقصى له عادة سادت فصار مثلا سائرا

إذا غدا بالكفر مستوطنا أن يبعث الله له ناصرا

فناصر طهره أولا وناصر طهره آخرا [٢]

وبعد خروج الملك الناصر إلى الكرك تنازل الكامل محمد لأخيه الأشرف موسى عن دمشق واستمر الأشرف في حكم دمشق حتى توفى سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) [٣] .

أما دمشق فقد بقيت تخضع لسلطة الأقوى مدة عامين في ظل الحرب الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي ، حتى تمكن الملك الصالح إسماعيل بن العادل من السيطرة عليها وتولى حكمها ما بين سنة (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) إلى سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) [٤] وبقي طيلة تلك الفترة في صراع مع ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، استعان خلالها بالصليبيين واسلم إليهم قلعتي صفد [٥] وشقيف [٦] ، مقابل وقوفهم معه في صراعه مع ابن أخيه [٧] لكن

---

[١] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٥٧ ، المقريزي : السلوك ج١ ص٢٣٥

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص(٢٤٦،٢٤٧) ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص١٤٤ ، المقريزي : السلوك ج٢ ص(٢٩١،٢٩٢) ، الصفدي : تحفة ذو الألباب ج٢ ص١٢١ .

[٣] ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص(٢٥٧،٢٥٨) ، المقريزي : السلوك ج١ ص٢٥٦ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص(٧٩،٩٣)

[٤] ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص(٢٢٨،٢٣٠) ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص(١٦٩،١٧٠) ، المقريزي : السلوك ج١ ص٢٨٧

[٥] صفد : مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص الشام وهي من جبال لبنان ، ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٤١٢ .

[٦] شقيف : قلعة حصينة جدا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل ، نفسه ج٣ ص٣٥٦ .

الملك الصالح نجم الدين أيوب تمكن من إخراجه من دمشق سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) واستولى عليها وأسند ولايتها إلى بعض قواده [١] . وفي سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى مصر ، في الوقت الذي زحفت فيه الجيوش الصليبية بقيادة لويس التاسع في حملة صليبية جديدة على بلاد الشام ومصر [٢] وفي هذه الأثناء توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب فـأخفت زوجته شجرة الدر [٣] خبر موته ، حتى قدم ابنه الملك توران شاه من دمشق وتولى مقاليد الحكم ، [٤] وهزمت الحملة الصليبية السابعة شر هزيمة وأخذ لويس التاسع فيها أسيرا إلى القاهرة [٥] ، إلا أن الملك توران شاه لم يحسن سياسته في مماليك أبيه فانتهى الأمر بقتله ، وبذلك انتهى الحكم الأيوبي في الديار المصرية وآل الحكم فيها إلى المماليك [٦] .

ولما وصل الخبر إلى دمشق بمقتل الملك توران شاه وتولي شجرة الدر مقاليد الأمور [٧] ، كتب نواب دمشق من الأمراء القميرية ، إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن غازي صاحب حلب يدعونه للقدوم إلى دمشق وملكها وأنهم امتنعوا من الحلف لشجرة الدر [٨] وقد استمر حكمه ما بين سنة

---

[٧] اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة (٨٥/ أ) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص٣٠٢ ، المقريزي : السلوك ج١ ص(٣٠٣،٣٠٤،٣٠٥)

[١] ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص(٣٤٩،٣٥٠)

[٢] أبو الفداء : المختصر ج٢ ص(٢٨٤،٢٨٥) ، عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص(١٠١٤،١٠١٥)

[٣] شجرة الدر:هي أم خليل جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كانت ذات رأي ودهاء وعقل،أدارت أمور الدولة المملوكية أشهرا حتى مكنت لزوجها الملك المعز ابيك التركماني السلطة توفيت مقتولة سنة (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) ، الصفدي : صلاح الدين إيبك ، الوافي بالوفيات ، الطبعة الثانية ، دار النشر فرانز ستايز ، شتوتغارت ١٤١٢هـ ، عناية : أيمن فؤاد سيد ج١٦ ص١٢٠ ، ابن أيبك : كنز الدرر ج٨ص(١٢،١٣،٣٠،٣٣) .

[٤] أبو الفداء : المختصر ج٢ ص(٢٨٥،٢٨٦) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ص(٧٧٣،٧٧٤) .

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٨٤ ، البدر العيني : عقود الجمان ج١ ص(١٧،٢٣،٢٩،٣٠)

[٦] أبو الفداء : المختصر ج٢ ص(٢٨٥،٢٨٦) ، البدر العيني : عقد الجمان ج١ ص(٢٣،٢٤،٢٥،٢٦،٢٧،٣٤،٣٥،٣٦).

[٧] البدر العيني : عقود الجمان ج١ ص(٢٩،٣٠)

[٨] نفسه : ج١ ص(٣١،٣٣) ، المقريزي : السلوك ج٢ ص(٣٦٦،٣٦٧).

(٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) إلى سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٩م) سعى فيها إلى مد نفوذه على باقي بلاد الشام في خطوة منه إلى توحيدها فاستطاع ضم بعلبك ، وبيت المقدس ، وبصرى، وصرخد [١] .

وفي سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٩م) زحفت التتار على بلاد الشام فأخذوا الحصون والقلاع وكثر القتل والنهب في الناس [٢] .

أما دمشق فإن التتار دخلوها وملكوها بالأمان ، ولم يتعرض أهلها للقتل والنهب [٣] ، وكان الملك الناصر يوسف قد أسر وأرسل إلي هولاكو ومعه كثير من أهل بيته فأكرمه وأحسن إليه [٤] وذلك في بادي الأمر ، فلما غلبت التتار في وقعة عين جالوت ظن هولاكو أن الملك الناصر يوسف كانت له يد في هزيمة جيشه ، فاستدعاه وقتله في بلاطه ومعه عدد من أهل بيته [٥] وذلك سنة (٦٥٩هـ/١٢٧٠م) وبعد تلك الهزيمة دخل المظفر قطز [٦] إلى دمشق وأحسن إلى الناس ففرحوا به وشرعوا في عمارة القلعة وتحصين المدينة [٧] .

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٨٦ ، أبو الفداء : المختصر ج٢ ص٣٠٧ ، ابن الحنبلي : أحمد بن إبراهيم ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مكتبة الثقافة الدينية ١٤١٥هـ تحقيق : مديحه شرقاوي ص٣٧٣ .

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٠٣ ، أبو الفداء : المختصر ج٢ ص٣٠٨

[٣] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٠٣ ، أبو الفداء : المختصر ج٢ ص٣١٢

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٠٦ ، المقريزي : السلوك ج٢ ص٤٣٤

[٥] أبو الفداء : المختصر ج٢ ص(٣١٥،٣١٦) ، البدر العيني : عقود الجمان ج١ ص(٢٨٣،٢٨٤) ، المقريزي : السلوك ج٢ ص٤٣٤ ، ابن الحنبلي : شفاء القلوب ص(٣٧٢،٣٧٣) .

[٦] المظفر قطز : سيف الدين قطز بن عبد الله التركي ، أحد مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ولي سلطنة الدولة المملوكية بعد العز أيبك التركماني ، وهزم التتار في المعركة المشهورة (عين جالوت) قتل بعد هذه المعركة لما عاد إلى مصر ، كان شجاعا ، بطلا كثير الخير ، محبا للإسلام وأهله ، البدر العيني : عقد الجمان، حوادث (٦٤٨/٦٦٤) ص(٢٥٤،٢٦٠) .

[٧] أبو الفداء : المختصر ج٢ ص٣١٨ ، البدر العيني : عقود الجمان، حوادث (٦٤٨/٦٦٤) ص(٢٤٥،٢٤٦،٢٤٨) .

المبحث الثاني : الأوضاع الاقتصادية :

لقد كان لفترة الاستقرار التي عاشتها بلاد الشام خلال العهد النوري والصلاحي أثر على الأوضاع الاقتصادية وازدهارها ، فقد شهدت دمشق نشاطا واضحا في مجالات الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ، اتضح من خلالها المستوى المعيشي الذي كانت تعيشه المدينة خلال ذلك العهد .

١ـ الزراعة : كان من أهم عوامل ازدهار الزراعة في بلاد الشام كثرة أنهارها وينابيعها علاوة على خصوبة أراضيها ، أما في دمشق فقد كانت مياه الأمطار المصدر الأساسي للزراعة [١] ، وتأتي الأنهار في الدرجة الثانية باعتبارها مصدرا من مصادر الري المهمة يقول القلقشندي : « ومسقى دمشق وبساتينها من نهر يسمى بردى أصل مخرجه عينين ، البعيده منهما دون قرية تسمى الزبداني ، ودونها عين بقرية تسمى الفيجة ... ثم ترفده منابع في مجرى النهر ، ثم ينقسم النهر على سبعة أنهر، أربعة غربية وهي نهر داريا ونهر المزة ، ونهر القنوات ، ونهر باناس ، وإثنان شرقية وهما نهر يزيد ونهر بردى ممتد بينهما » [٢]

ومن الأنهار كذلك نهر الأعرج والذي ينبع من سفوح جبل الشيخ[٣] ويقوم بمساعدة نهر بردى في ري الأراضي الزراعية في جنوب الغوطة[٤]، ويذكر البدري أن في نواحي دمشق أكثر من ثلاثمائة وستون عينا يستفيد منها أهل دمشق في الشرب وري المزروعات [٥] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ص٩٨، انظر ابن فضل الله العمري : المسالك والممالك ص(١١٥ـ ١١٦) أبن أبي طالب الدمشقي : نخبة الدهر ص (١٥٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦)سبانو : دمشق في كتابات أحمد وصفي زكريا ص(٩٣ـ٩٤) .

(٢) (٢)محمد حسين العطار : علم المياه الجارية في مدينة دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ص١١٥

(٣) زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ص١١٤

(٤) نزهة الأنام : ص٩٢، محمد حسين العطار : علم المياه الجارية ص ٧٣ .

(٥) عادل زيتون : ملامح من تاريخ الفلاحين ص(٤٧٨،٤٧٩)

وقد برع الدمشقيون في توزيع مياه الأنهار وإدخالها إلى القصور والدور والمساجد والمدارس والحمامات وبقية المرافق الأخرى ، في قنوات ومسارب عديدة ، إضافة إلى جرها إلى الأرض الزراعية والبساتين[١]

أما عن الأساليب والطرق الزراعية فقد استعمل الدماشقة الأساليب البدائية في حراثهم أراضيهم[٢].

وتنوعت المحاصيل الزراعية التي كانت تنتجها بلاد الشام بشكل عام ، ودمشق بشكل خاص ، فكانت الحبوب مثل القمح والشعير والعدس والسمسم [٣] من أهم المحاصيل التي كانت تزرع في بلاد الشام ، وكانت دمشق تساهم في زراعة هذه المحاصيل بشكل وافر [٤].

وقد أشار القلقشندي إلى ذلك فذكر الحبوب بأنواعها مما كانت تزرع في دمشق ضمن المحاصيل الزراعية التي كانت تنتجها بلاد الشام مثل الذرة ، والأرز ، والشعير، والحلبة والسمسم والقرطم [٥] .

أما أنواع الخضروات المزروعة بدمشق فمنها أنواع كثيرة مثل الباذنجان والجزر والهليون والملوخيا [٦] والكراث والطوفان والكرنب والبصل وغيرها [٧] وهناك أنواع شتى من الفواكه تتميز دمشق بزراعتها كالتين والعنب والرمان القراصيا ، والبرقوق ، والمشمش، والخوخ، والتفاح [٨]، وللتفاح صفات متعددة يضرب بها المثل في جودتها ، كما أنتجت دمشق الكمثرى ومنه أصناف كثيرة هو أفضل ما تنتجه بلاد الشام [٩] .

---

(١) العطار : علم المياه ص(١٨ــ١٩)

(٢) أبو دمعة : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ص ٩٠ .

(٣) عادل زيتون : ملامح من تاريخ الفلاحين ص(٤٧٨،٤٧٩) .

(٤) البدري : نزهة الأنام ص (١٨٠،١٨٢،١٨٣،١٨٤)

(٥) صبح الأعشى : ج٤ص(٨٦،٨٧) .

(٦) نفسه ج٤ص٨٧ .

(٧) البدري : نزهة الأنام ص(١٦٦،١٦٧،١٧٤،١٧٦،١٨٣) .

(٨) القلقشندي : صبح الأعشى ص٩٠، البدري : نزهة الأنام ص(١٢٠،١٢٨،١٣٢،١٣٣) .

(٩) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٠٦، النويري : نهاية الأدب ج١ص٣٢٨ .

وأهتم الأيوبيون بتربية أنواع من الحيوانات كـــالخيول والأبقــار والجمــال والأغنام ، وهي أكثر الحيوانات التي كانت تلقى الاهتمام والتربية من النـــاس [١] كما اهتموا بتربية أنواع أخرى من الطيور الأليفة مثل الأوز والدجاج والحمام[٢]

٢ـ الصناعة : مثلت دمشق إحدى المدن الكبيرة في الدولة الإسلامية المشـــهورة بصناعها المهرة ومصنوعاتها التي شهرتها في أقاليم الدولة الإسلامية [٣] .

فمن تلك الصناعات التي اشتهرت بها دمشق صناعة السيوف وقد ازدهـرت فيها منذ وقت مبكر ، حتى أخذت شهرة السيوف الدمشـــقية [٤] وبـــزرت مزايـــا السيف الدمشقي خلال فترة الحروب الصليبية [٥] حيث كان يصنع مـــن الفـــولاذ الدمشقي (الجوهر) وهو مشهور بقوته [٦] ولذا يقـــول الكنـــدي عـــن الســـيوف الدمشقية : « عرفت تلك السيوف بجودتها منذ القدم وامتازت نصالها بقطعها الجيد إذا كانت على سقايتها الأصلية ، والسيف الدمشقي أقطع جميع السيوف المولـــدة » [٧] كما اشتهرت أيضا بصناعة أنواع أخرى من الأسلحة مثل الرماح ، والـــدروع والتروس والأقواس والسهام الدمشقية المشهورة وغيرها من أدوات الحرب [٨] .

ومن الصناعات التي امتازت بها دمشق كذلك صناعة النســـيج والأقمشـــة متعددة النقوش ، مثل قماش الأطلس بكل أنواعه ، والقماش الـــهرمزي بأنواعـــه وقماش القطن ، والنيســـابوري بجميـــع أشـــكاله ، وصناعـــة الحريـــر بـــالفتل والدواليب[٩] .

---

[١] القلقشندي : ج٤ص٩١، أبو دمعة : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ص(١٢٠،١٢١) .

[٢] نفسه ج٤ص٩١.

[٣] ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ص١١٣.

[٤] آل تقي الدين : منتخبات التواريخ لدمشق ج٣ص١٣ .

[٥] الحمود : رنا سعد ، حرف وصناعات بلاد الشام في العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك كلية الآداب قسم التاريخ ١٤١٦هـ/١٩٩٦م ص٥٩ .

[٦] بهنسي : عفيف ، الشام لمحات آثارية وفنية ، دار الرشد للنشر ، العراق ١٩٨٠م ص٢١٨ .

[٧] نفسه ص ٢١٨.

[٨] رنا الحمود : حرف وصناعات بلاد الشام ص٥٩ .

[٩] البدري : نزهة الأنام ص ٢١٤ .

وذاعت شهرة دمشق في صناعة الصناديق الخشبية التي كانت تصنع من أجـــود أنواع الخشب ، وكانت ترصع بالصدف والأحجار الثمينة [١] وجعل لـــها ســوق خاص بها لبيعها تعرض فيع هذه المصنوعات الخشبية الرائعـــة يســمى« ســوق النجارين » [٢] .

واشتهرت دمشق كذلك بصناعة الورق ، فقد كان هنـــاك مصنــع خـــاص لصناعة الورق وصف بجودة صناعته [٣] وقد كان يصدر منه كميات كبيرة إلـــى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية [٤] ويذكر كرد على أنه قد تعلم صناعة الورق من الدمشقيين أسيران أيام الحروب الصليبية وعادا لينشرا تلـــك الصناعـــة فـــي بلادهم ثم في باقي بلاد أوربا [٥] .

وكانت دمشق كذلك تشتهر بصناعة الورد المستخرج من أزهـــار الغوطـــة سمي الورد المزي حيث كان يصدر منه وينتج بكميات تجاريـــة إلـــى الحجـــاز واليمن وإلى بلاد الهند والسند والصين [٦] .

٣ـ **التجارة** : لقد كان من عوامل ازدهار التجارة في دمشق تلك العلاقات التجاريـة التي كانت تربط دمشق والإمارات الصليبية المجاورة لها ، ذات الصفة التجارية ، إضافة إلى العمل الحربي [٧] فقد أشار إلى ذلك ابن جبير بقولـــه : « واختـــلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين مـــن دمشق إلى عكة كذلك، فتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منـــهم ولا يعـــترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي مـــن الأمنـــة علـــى غاية،وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم

---

[١] كرد علي : خطط دمشق ج٤ص٢٠٧ .

[٢] ابن المبرد : شرح حال الأسواق ص

[٣] البدري : نزهة الأنام ص (٢١٤، ٢١٥) .

[٤] زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ص .

[٥] خطط دمشق ج٤ ص(٢٢٢، ٢٢٣) .

[٦] كرد علي : غوطة دمشق ص٦٥ .

[٧] صفوت خير : مدينة دمشق دراسة في جغرافية المدن ص١٧٤ .

والاعتدال في جميع الأحوال وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافيــة»[١] وقد حرص الأيوبيون على تأمين طرق التجارة ، وإطلاق سياســة التســامح مــع التجار الفرنج وعقد المعاهدات التجارية معهم [٢] كما كـــان لإلغائـــهم المكــوس والضرائب دور في تنشيط الحركة التجارية بشكل مباشر ، واستفادت دمشق فــائدة كبرى من فترة الصراع ضد الفرنج إذ غدت حاصلات دمشق كالمشمش والبطيــخ والفواكه والخضروات ، إضافة إلى المنتجات الحريريـــة والقطنيــة والنحاســية وتجارة والأسلحة على اختلاف أنواعها [٣] من أهم صادرات دمشق [٤] .

وقد أسهم هذا الازدهار الاقتصادي في نهضة المدينة العمرانية ، فظـــهرت من خلالها أحياء سكنية جديدة [٥] وتنافس الأمراء الأيوبيون والأعيان وأصحــاب الأموال في إنشاء المرافق التعليمية والاجتماعية مثل المدارس والربط والزوايـــا والحمامات وغيرها [٦]

ـ دار الضرب بدمشق :

تذكر المصادر أن أول دينار ضرب بدمشق في العصر الأيوبي هو الدينـــار الذي ضربه السلطان صلاح الدين الأيوبي في السنة التي دخل فيها بيت المقـــدس سنة (٥٨٣/١١٨٧م) [٧] .

كما ضرب بدار الضرب بدمشق آنية الذهب والفضة ســنة (٦٢٦/ ١٢٢٨م) حينما حاصر الملك الكامل محمد والأشرف موسى ابن أخيهم الملك الناصر داود

---

(١) الرحلة : ص ٢٦٠ .

(٢) الباز العريني : الأيوبيون ص٢٠٦ .

(٣) صفوت خير : مدينة دمشق ص١٧٤ .

(٤) أبو دمعه : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ص١٨٧ .

(٥) صفوت خير : مدينة دمشق ص(١٧٧،١٧٩) .

(٦) الريحاوي : مدينة دمشق ص٦٧ .

(٧) سمير سما : النقود الإسلامية التي ضربت في دمشق ١٩٨٠م ص٥٨ .

فقام الناصر بضربها دنانير ودراهم ، وفرقها على النـــاس بغيـة الدفــاع عــن المدينة[١] إلى جانب ذلك قام التاجر الدمشقي محمد بن على بن أبي طـــالب بــن سويد التكريتي باستخدام دار الضرب بدمشق لسك نقود فضية بعـــد أن أذن لـــه السلطان صلاح الدين يوسف (الثاني) فسك بها عددا كبيرا جدا من النقود[٢] .

ورغم قلة نشاط دار الضرب بدمشق إلا أنها كانت تقوم بدورها فـــي سـك النقود تحت إشراف الدولة وحسب حاجتها .

وقد تأثرت المعاملات التجارية في العصر الأيوبي بسبب تعرض النقود إلـى حالات من الغش والزيف [٣] ، ففي سنة (٦١١هــ/ ١٢١٤م) تعامل أهل دمشــق بالقراطيس السود العادلية [٤] ، وهي « قضبان من المعدن يدل وصفــها بالســواد على أنها كانت من الفضة الناقصة المخلوطة بالنحاس » [٥] .

كما تأثرت كذلك بدخول الدراهم التي ضربها الفرنج والتي تعرف باليافيـــة وهي دراهم مزيفة كانت سنة (٦٥٩هــ/١٢٧٠م) فزادت بسبب ذلـــك الأســعار وذلك لامتناع الناس عن التعامل بها ، وبقي الأمر كذلك سنة كاملة حتـــى بطــل التعامل بها وبيعت الأربعة منها بدرهم ناصري [٦].

وتذكر المصادر أن ممن تولى إدارة دار الضرب والدواوين بدمشق في آخر الحكم الأيوبي تاج الدين الحموي [٧].

٤ـ الأسواق : لعبت الأسواق بدمشق دورا مهماً في ازدهار الحركة التجارية حيـث كانت دمشق تعد محطة تجارية مهمة في بلاد الشام ، وقد كانت الحركة التجاريـة في أسواقها نشطة جدا ، وتعددت أسواقها وتنوعت ، وكان لكل أصحـــاب مهنــة

---

[١] المقريزي : السلوك ج١ ص٢١٣ .

[٢] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص(٤٨٧، ٤٨٨) .

[٣] الزهراني : زيف النقود الإسلامية ص٣١ .

[٤] المقريزي : السلوك ج١ ص١٨٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٧٤ .

[٥] الزهراني : زيف النقود الإسلامية .

[٦] ابو شامه : الذيل ص٢١١ .

[٧] نفسه ص٢٣٧ .

وتجارة سوق خاص بهم حيث يقول ابن عبد الهادي عن اتساع أسواقها وكثرتها : « أما المدينة نفسها فقد اتسعت أسواقها فتجاوزت منطقة الشارع القديمة متجهة إلى الجامع الكبير ، وهي نقطة مركزية يجتمع فيها أكثر السكان أسبوعياً إن لم نقل يوميا فيسهلون المعاملات التجارية ، وكثرت الأسواق حتى بلغت مائة وتسعة وثلاثين سوقا » [١] .

وقد تركزت الحركة التجارية حول هذه الأسواق وبرز نشاطها في التبادلات التجارية بداخلها [٢] وتذكر المصادر عددا كبيرا من تلك الأسواق ، وجد منها أسواق متخصصة في جوانب من السلع والمنتجات مثل يوق الذراع الذي يباع فيه البز من الحرير والكتان والثياب النفيسة ، وسوق الذهب ، وسوق الدهشه لبيع آلات النساء والثياب ، وسوق الوراقين ، وسوق الكتبيين ، وسوق السلاح يباع فيه جميع أنواع السلاح ، وسوق الصاغة ، وسوق النجارين ، وسوق السووجيين ، وسوق النحاسين ، وسوق الخيل ، وغيرها [٣] .

وكان لازدهار الصناعة بدمشق وتميزها في بعض المصنوعات مثل صناعة السيوف والمنسوجات الحريرية والقطنية وغيرها دور في جعل دمشق سوقاً كبيراً ومركزاً تجارياً مهماً .

وعلى الرغم من ذلك إلا أن تلك الأسواق كانت تتعرض للتخريب والهدم والنقل من قبل نواب دمشق أو حكامها [٤] ، ولم يكن هذا الازدهار الاقتصادي على مستوى واحد طيلة العصر الأيوبي ، فقد دبت إليه عوامل الضعف بسبب الصراع السياسي بين أبناء البيت الأيوبي الذي أثر على الوضع التجاري

---

[١] نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق ، نشرة حبيب الزيات في الخزانة الشرقية بمجلة المشرق سنة ١٩٣٩م ج٣ ص١٩ .

[٢] نيكتيا السيف : الحياة الاقتصادية في دمشق عصر بن عساكر ص٣٠٤ .

[٣] نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق ، تحقيق صلاح محمد الخيمي ص(٧٣،٧٤،٧٥،٧٦،٧٧)، وانظر النعمي : الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص(٢٦،٧٧،٣٤٩) ، ج٢ص(٣١٤،٤٠٠،٢١٨،٢٣١،٢٣٥،٨٧، ٣٨٦،٤٠١،٤٠٠) ، ابن طولون : محمد بن طولون ، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، تحقيق / محمد أحمد دهمان ، ص (٣١٠،٣٣٤،٣٥٣) ابن كنان ، المروج السندسية ص ٣٢ .

[٤] ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ص (١٥١،١٨٩)

والاقتصادي بشكل عام [١] ، ولقد أحدث الصراع السياسي بين أبناء البيت الأيوبي ، تأثيراً كبيرا على الوضع الاقتصادي بدمشق ، وذلك لما كان يحدث أثناء الصراع من قطع للأنهار والقنوات وإحراق البساتين والأسواق والدكاكين[٢]، واشتداد الغلاء وارتفاع الأسعار [٣] .

كما مرت دمشق بسنوات من الشدة والقحط أثرت بشكل واضح على الجوانب الاقتصادية ، وقد امتد ذلك التأثير إلى الجوانب العلمية ولكن بشكل غير كبير وذلك لاعتماد أكثر المرافق التعليمية بدمشق على الأوقاف ، ويمكن أن نشير إلى نماذج من ذلك لما لها من أثر سلبي على الحياة الاقتصادية وانعكاس ذلك على الحياة العلمية والنشاط الفكري بعامة [٤] فمن ذلك :.

= الغلاء الشديد الذي وقع سنة (٥٧٤ هـ/١١٧٨م) وعم أكثر بلاد الشام والعراق والجزيرة وخرج الناس يطلبون المطر مرارا حتى دخلت سنة (٥٥٧هـ/١١٨١م) ففرج الله عنهم [٥] .

= في سنة (٥٩٠هـ/١١٩٣م) حينما قدم الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر ليأخذ دمشق من أخيه الأفضل ، فحاصرها وضيق عليها فقطع عنها الأنهار ونهب مزارعها [٦] .

= وفي سنة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) اشتد الغلاء بأهل الشام وذلك لقلة المطر وانتشار الجراد فهلك فيه عدد كبير من الناس [٧] .

= وفي سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) وهي السنة التي حاصر فيها الملك الكامل محمد دمشق هو وأخوه الأشرف موسى لانتزاعها من ابن أخيهم الملك الناصر داوود

---

(١) أبو دمعة : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ص١٩٣ .

(٢) المقريزي : السلوك ج١ ص(١٤٩،١٥٠) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ص١٨٩ .

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٧١٦،٧١٧،٧٥٣،٧٥٤)أبو شامة ذيل الروضتين ص١٧٨، الذهبي : العبر ج٣ص٣٤٤ .

(٤) عسيري : مريزن سعيد مريزن ، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ، الطبعة الأولى ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة المكرمة ١٤٠٧هـ ص ٩٨ .

(٥) ابن الأثير : الباهر ص ١٧٨ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ص(٨،٩) .

(٧) نفسه ج٧ ص١١٤

ابن المعظم عيسى يقول أبو شامة : « وقطعوا عن دمشق أنهارها مثل بانياس والقنوات ونهر يزيد ، وثورا ، ونهبت البساتين وأحرقت الجواسق ، وهدم كثير من الرباع والخانات حول المدينة ، وأحرقت الطواحين ونهبت الدور ، وزادت الأسعار ، حتى بيعت الأوقية من الأشنان بتسعة أفلس ، واشترى بعضهم أوقية بأربعة عشر فلسا ، وبلغت أوقية الخبز نصف درهم ، ورطل اللحم ستة دراهم ، كما نتج عن هذا الحصار إحراق مدرسة أسد الدين وخانقاه خاتون وما يليها من الخانات والدور وغيرها من ذلك » [١] .

= وفي سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) حدث غلاء شديد شمل بلاد الشام ومصر وبلاد الجزيرة بسبب قلة الأمطار . [٢]

= وفي سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) غلت الأسعار وقطعت المياه عن دمشق بسبب حصار الكامل محمد لها [٣] .

= وفي سنة (٦٣٦هـ/١٢٣٨م) ظهر غلاء شديد بدمشق لم يعهد مثله حتى بلغت غرارة الحنطة خمسة وعشرين دينارا مصرية ، وزاد رطل الخبز على درهم وغلت جميع أنواع الأطعمة بدمشق [٤] .

= وفي سنة (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) اشتد الغلاء بسبب حصار الخوارزمية لدمشق يقول أبو شامة عن ذلك : « ففي عشر من شوال بلغت غرارة القمح ستمائة درهم ناصرية نصفها بثلاثمائة درهم ، وبيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعة دراهم .. وبقيت الصعاليك مرميين في الطرقات ، كانوا يطلبون لقمة ، ثم صاروا يطلبون فلسا يشترون به نخالة يبلونها ويأكلونها كما تطعم الدجاج ، شاهدت ذلك بعيني ، ثم اشتد الغلاء زيادة على ذلك فبلغ في آخر شهر شوال المذكور ، كل غرارة حنطة بمائة دينار صورية ثم ناصرية ، ثم تفاقم الأمر .. فبيع الخبز الأسود كل أوقيتين بدرهم .. وبيع الشعير كل كيل بخمسين درهما، الغرارة

---

[١] ذيل الروضتين ص(١٥٤،١٥٥،١٥٦) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٣٣ ، المقريزي : السلوك ج١ ص(٢٢٩،٢٣٤)

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص١٣٨

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٧١٦،٧١٧)

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨

بستمائة درهم .. وبيع الدقيق كل أوقية وربع أوقية بدرهم، ولك رطل بنحو عشرة دراهم .. واللحم كذلك » [١] واحترق في ذلك الحصار قصر حجاج ، والشاغور وأحرقت مساجد وخانات ودور كثيرة ومن تلك المساجد مسجد جراح [٢] ، ويذكر سبط بن الجوزي أن الناس أكلت الميتة والجيف الدم والقطط والكلاب ومات خلق كثير وباع الناس دورهم مقابل الطعام ، وكثر الموتى حتى عجز الناس من كثرة تغسيل الموتى فكانوا يدفنونهم جماعات [٣] ، وتعرضت بلاد الشام في عهد الدولة الأيوبية إلى موجات من الجراد أثرت على المزروعات والأشجار حيث يذكر ابن كثير أنه في سنة (٦١٩هـ / ١٢٢٢م) دهم بلاد الشام جراد عظيم أكل الزرع والثمار والأشجار [٤] .

كما تعرضت دمشق سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م) إلى نقص شديد في مياه الأنهار والآبار حتى هلك الزرع والثمار [٥] ، إضافة إلى ذلك ما وقع من الكوارث الطبيعية مثل الزلازل التي أثرت على مرافق التعليم بدمشق وغيرها مثل المساجد والمدارس وغير ذلك كانتشار الأمراض والأوبئة .

= ففي سنة (٥٥٢هـ/١١٥٧م) وفي شهر رجب من هذه السنة وقعت زلازل عظيمة خربت كثيراً من البلاد ، وهلك بسببه، أمم لا يحصون كثرة ، وتهدمت الحصون والأسوار والقلاع [٦] .

= وفي سنة (٥٦٤هـ/١١٦٨م) في شوال وقعت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها ، شملت بلاد الشام والجزيرة والموصل والعراق وتخرب على أثرها مدن كثيرة وسقطت الحصون والقلاع والأسوار بالشام [٧] .

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٧٨ ، الذهبي : العبر ج٣ ص٣٤٤

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٥

[٣] مرآة الزمان ج٨ ص (٧٥٣،٧٥٤) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص١٧٨

[٤] البداية والنهاية ج١٣ ص٩٨

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٧١

[٦] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٥٣ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص(٢٦١، ٢٦٧) .

[٧] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص١٠٦

= وفي سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م) وقعت زلازل في بلاد الشام وعمت بلاداً أخرى وتأثرت أماكن كثيرة بدمشق [١] ، حيث يذكر أبو شامة أنه قد تهدمت المنارة الشرقية بجامع دمشق وأكثر الكلاسة ، والبيمارستان النوري ، وهرب الناس إلى الميادين خوفا على أنفسهم [٢] .

= وفي سنة (٥٨٩هـ/١٢٠١م) وقعت زلزلة أخرى في بلاد الشام وتأثرت دمشق بها حتى سقطت بسببها معظم المآذن بدمشق ، ومات تحته خلق كثير ذكر أنهم ألف ألف إنسان، مائة ألف إنسان [٣] .

= وفي سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م) وقعت زلزلة عظيمة في الشام وشملت مصر والجزيرة وغيرها من البلاد [٤] .

= وفي سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) انتشرت الأمراض وعمت بلاد الشام ، وهلك بسببها أعداد كثيرة من الناس [٥] .

= وفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٦٧م) اشتد الوباء بالشام وخصوصا بدمشق حتى عز وجود مغسلي الموتى [٦].

---

[١] الذهبي : تاريخ الإسلام (٥٩١/٦٠٠) ص٤٢

[٢] أبو شامة : الذيل ص(٢٠/٢٩) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص(٤٧٧،٤٧٨)

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٤٧٧،٤٧٨) ، أبو شامة : الذيل ص(٢٨،٢٩) ، الذهبي : تاريخ حوادث الإسلام (٥٩١/٦٠٠) ص٤٦

[٤] ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص١٢٠

[٥] ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص١١٤

[٦] ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص١٦٣

المبحث الثالث : الأوضاع الإجتماعية :

١- عناصر المجتمع :

تعددت عناصر المجتمع الدمشقي فكانت فئة العامة هي أكبر الفئات التي تشكل منها المجتمع الدمشقي ، وتتمثل في طبقة الفلاحين والتجار وأرباب الحرف والصناعات وطبقة العلماء والفقهاء والمتعلمين ، كما أن هناك فئات أخرى أدت دورا فعالا في الحياة الاجتماعية بدمشق، من تلك الفئات العرب، والأتراك، والأكراد، وفئة الأحداث ، وأهل الذمة والنصارى واليهود [١] وهي ما سوف نشير إليه هنا :

أولاً ـ **العرب** : كانت قبيلة آل ربيعة من أشهر القبائل العربية التي سكنت بلاد الشام وكان لها اثر واضح في الحياة السياسية والاجتماعية خلال عصر الزنكيين والأيوبيين والمماليك [٢].

وقد تفرع من هذه القبيلة ثلاث قبائل كبار هي آل فضل ، وآل حرّا ، وآل علي [٣].

أما قبيلة آل فضل فينقسمون إلى بطون كثيرة منهم : آل عيسى ، وآل فرج، وآل سميط ، وآل مسلم ، وآل علي ، ويضاف إليهم ، فرعب ، والحريث ، وبنو كلب ، وآل بشار ، وخالد ، وغيرهم [٤].

وكان (آل علي) وهم فرقة من آل فضل يسكنون بادية دمشق وفي الغوطة، وهم الذين ينسبون إلى علي بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة [٥] ، وقد كانت لهم إمارة على عرب بادية الشام تابعة للدولة الأيوبية ، وقد أتاح لهم

---

[١] هناك دراسات عديدة تناولت الحياة الاجتماعية في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع منها : (المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية) ، أحمد رمضان أحمد محمد ، مطبعة الوزارة ١٣٩٧هـ ، (الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي) ، إبراهيم زعرور ، مطبعة الجمهورية ١٤١٣هـ ، (الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي) ، فريال بدوي الزربا ، رسالة ماجستير في التاريخ ، الجامعة الأردنية ١٤٠٠هـ .

[٢] ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص١١١

[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص(٢١١،٢١٢،٢١٤)

[٤] نفسه ج٤ ص٢١٢

[٥] ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص١١١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢١٧

السلطان العادل أبي بكر بن أيوب ذلك، وأمّر عليهم حديثه بن عيسى بن محمد بن ربيعة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) ثم جاء بعده مانع بن حديثه ، ثم ابنه مهنا واستمر في الولاية حتى دولة المماليك [١] .

وكان لهم دورهم المهم في التصدي لجيوش التتار التي دخلت بلاد الشام سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) حيث كانت تربطهم بالملك الناصر يوسف آخر سلاطين الأيوبيين بدمشق علاقة حسنة [٢] .

ثانياً- **الأتراك** : ومن ضمن عناصر السكان الذين تشكل منهم المجتمع الدمشقي طائفة الأتراك المماليك ، حيث كان دخولهم إلى دمشق في السنة التي دخل فيها السلاجقة الأتراك إلى بلاد الشام وسيطروا من خلالها على دمشق سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م)[٣] وقد كثرت هذه الطبقة وزاد نفوذها في المجتمع الدمشقي[٤]، وهي التي تكونت منها القوة العسكرية وأصبح منهم الأمراء والحكام [٥] ، ولا شك أن هذه الطبقة قد تركت آثاراً واضحة على المجتمع الدمشقي في العديد من الجوانب[٦].

ثالثاً- **الأحداث** : لقد ظهرت فرقة الأحداث بالشام على غرار تلك الفرق التي ظهرت بالعراق وفارس ، والتي تسمى نفسها بالفتيان[٧] والعيارين [٨] والشطار[٩]

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢١٣ ، ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص(١٤٢،١٤٣،٢٥٤،٢٥٥)

[٢] اليونيني: ذيل مرآة الزمان ج١ ص(٤٨٥،٤٨٦)

[٣] ابن القلانيسي : تاريخ دمشق ص(١٧٥،١٨٢) ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٨ ص١٢٣

[٤] عاشور : مجتمع بلاد الشام في عصر ابن عساكر ص٢١٧

[٥] أحمد رمضان : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام ص(٤٩،٥٠)

[٦] عاشور : مجتمع بلاد الشام في عصر ابن عساكر ص٢١٧

[٧] الفتيان : الفتى في اللغة السخي الكريم ويقال فتى بين الفتوه ، وقد تفتى وتفاتى ، الجمع فتيان وفتية وفتو ، ابن منظور : لسان العرب ج١٥ ص١٤٧ .

[٨] العيارين : العيار لغة الكثير المجيء والذهاب في الأرض ، ابن منظور : لسان العرب ج٤ ص٦٢٣ وقيل الذكي الكثير التطواف ، الذبيدي : تاج العروس ج٣ ص٤٣٤ ، وحركة العيارين من الحركات الشعبية التي ظهرت نتيجة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة في العصر السلجوقي وقد اتصف هؤلاء بصفات حميدة ، كالصدق والشجاعة وحفظ الأعراض مع ما اتصف به بعضهم من الفساد والفوضى ، حسين أمين : تاريخ العراق في العصر السلجوقي ص(٣٢،٣٣) .

[٩] الشطار:جمع شاطر ، يقال شطر الرجل أعيا قومه شرا وخبثا ، الجوهري : تهذيب اللغة **ج١ ص١٢٥** .

وقد شكلت هذه الفئات عنصرا مهما من عناصر المجتمـــع العراقـــي والفارســـي وصار لها الدور السياسي الواضح [١] إلا أن فرقة الأحداث تبدو وقد اختلفت فـــي بداية ظهورها عن غيرها من الفئات ، وذلك لأنها كانت أكـــثر تنظيمـــا ووعيـــا لدورها العسكري والقتالي [٢] .

وبرز أثر هذه الفئة الشعبية كقوة سياسية لها دورها العسكري خلال العصر الفاطمي والسلجوقي ، إلا أنه في العصر السلجوقي قل دورها العسكري ودمجـــت ضمن القوى العسكرية السلجوقية [٣] ورغم انحسار دورها خلال هذا العصـــر إلا أن المصادر تذكر أنه كان لهم دور في مساعدة السلطان نور الدين محمـــود فـــي دخول دمشق بعدما أغراهم بالمال ، فثادوا علـــى الأبـــواب وفتحوهـــا لـــه سـنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م) ودخل دمشق واستولى عليها [٤] .

أما في العصر الأيوبي فقل نشاطهم بشكل كبير وذلك لعدم الحاجة عليـــهم بسبب التغيرات السياسية في الدولة الأيوبية [٥] ، ويذكر ابن جبير نشـــاطا مـــهماً كانت تقوم به هذه الفئة خلال الدولتين: النورية والأيوبيـــة ، وهـــو محاصرتـــها للرافضة بدمشق ، حيث تسلط عليهم بالقتل والمطاردة أينما كانوا « وكانوا يسـمون أنفسهم (بالنبوية) وهم يدينون (بالفتوه) وأمور الرجوله .. وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه يحزمونه السراويل ويلحقونه بهم ، ولا يرون أن يستعدي أحـــد منهم في نازلة تنزل به ، ولهم في ذلك مذاهب عجيبة ، وإذا أقسم أحدهم بـــالفتوه بر بقسمه » [٦] .

---

[١] شاكر مصطفى : الحركات الشعبية وزعماؤها في دمشق في العهد الفاطمي ص١٧٦ ، محمد النجـــار : الشطار والعيارين ص١٦٥ .

[٢] محمد النجار : الشطار والعيارين ص١٦٥

[٣] شاكر مصطفى : الحركات الشعبية ص(١٧٦،١٧٥)

[٤] ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص١٢٧ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص(٣٤١،١٨٥) تحقيق الزيبق .

[٥] شاكر مصطفى : الحركات الشعبية ص١٧٦ ، محمد النجار : الشطار والعيارين ص١٦٦

[٦] الرحلة :ص(٢٥٢،٢٥١)

ومما يدل على نشاطهم خلال العصر الأيوبي أنه كان لهم قاضٍ خاص بهم يسمى قاضي (الفتيان) يدعى شمس الدين بن البعلبكي (٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م) وهو الذي خرج من دمشق مبعوثا من الخليفة العباسي ليشد السلطان الكامل محمد إلى الفتوه التي جاء الأمر بها من الخليفة [١] .

ومن خلال ما سبق يتضح التحول الذي طرأ على فرقة الأحداث نتيجة لنشاط الخليفة العباسي الناصر لدين الله في نشر (الفتوه) مما يؤكد أن الأحداث بالشام قد تغير مسماهم وحملوا اسم الفتيان فترة من الزمن [٢]

رابعاً ـ أهل الذمة:

يعد أهل الذمة من اليهود والنصارى من عناصر المجتمع الدمشقي ، يذكر ابن عساكر أن لديهم بدمشق خمس عشرة كنيسة هي التي دخلت في الصلح حينما فتح المسلمون المدينة [٣] .

ولم تكن العلاقة بين النصارى وأهل دمشق على وفاق خلال العصر الأيوبي ، فقد تشدد سلاطين الدولة الأيوبية في التعامل معهم ، حيث تذكر المصادر أن السلطان صلاح الدين أصدر أمرا بالمنع من استخدامهم في الوظائف السلطانية والديوانية ، بل إنه هم بإخراجهم من البلد [٤] كما أن الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين لما أخذ دمشق منع من استخدام أهل الذمة في شيء من الوظائف السلطانية ، بل إنه ألزمهم لبس (الغيار) [٥] .

يذكر أبو شامة أنه في سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) كان يتولى خزانة السلطان رجل من النصارى يقال له هبة الله النصراني ، فعزل عنها وحبس ثم أركب على بغل وأتي به من الحبس ثم قتل وعلق على باب كنيسته مريم ، وكان سبب ذلك أنه أخذ أموالا من خزانة السلطان ، وكان يؤذي المسلمين ويتسلط بجاهه عليهم

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٦٩

[٢] زعرور : الحياة الاجتماعية في بلاد الشام ص١١٩

[٣] ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص(٢٤١،٢٤٢) ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص (٢٧١،٢٧٢،٢٧٣)

[٤] المقريزي : السلوك ج١ ص٤٨

[٥] نفسه ج١ ص١٣٥ ، والغيار : نوع من اللباس الذي تميز به أهل الذمة عن المسلمين في القرون الوسطى ، المعجم الوسيط : ج٢ ص٦٦٨ ، مادة (غاره) د/ إبراهيم أنيس ورفاقه مجمع اللغة العربية القاهرة .

ويرفع منار النصارى ، حيث إنه جدد لهم كنيسة مريم، وشيدها وأحسن عمارتها ، وقد أصدر السلطان الكامل محمد أمره بهدم ما زاده في بنائها وحضر ذلك العلماء والشيوخ وخلق كثير من العامة، وتولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم وكتب لهم بذلك كتابا [١] . ويقول ابن جبير : « إن نيران الفتنة والحرب لا تقف بين المسلمين والنصارى بل ربما يصل الأمر إلى حرب قائمة » [٢] ، وتذكر المصادر أنهم كانوا يفرحون إذا هزم الجيش الإسلامي أمام الفرنج ويعلنون ذلك صراحة ، فمن ذلك أن المسلمين بدمشق لما هزم الفرنج في دمياط سنة (٦٤٨هـ /١٢٥٠م) فرح المسلمون بذلك ودخلوا كنيسة مريم وأقاموا فيها بهذا النصر وكادوا أن يخربوها ، وما ذلك إلا ردا على النصارى حينما فرحوا بأخذ الفرنج دمياط قبل ذلك [٣] .

وتذكر المصادر أنه لما دخل التتار دمشق واستولوا عليها سنة(٦٥٨هـ/١٢٦٩م) شمخ النصارى على أهل دمشق ، ورفعوا الصليب وكانوا يمرون به في الأسواق[٤]وينادون بارتفاع دينهم واتضاع دين الإسلام [٥] والخمر معهم يرشونه على المساجد والمصلين ، ومن يرى الصليب ولا يقوم له عاقبوه[٦]، كما جاهروا بشرب الخمر في الدكاكين والشوارع في شهر رمضان لم يردهم عن ذلك أحد [٧]، ولما سمع المسلمون في دمشق بخروج الجيوش المصرية صوب دمشق في نفس السنة، فرحوا بذلك وثاروا على النصارى وأوقعوا بهم ونهبوا منازلهم، وخربوا كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم، حتى حولوها إلى حيطان وتركوها والنار تأكل في أخشابها وقتلوا منهم عددا وهرب أكثرهم [٨] .

---

[١] ذيل الروضتين ص ١٥٦

[٢] الرحلة : ص ٢٦٠

[٣] ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص١٩٠

[٤] المقريزي : السلوك ج٢ ص(٤٢٥،٢٣٢) ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص(٢٧٦،٢٧٥،٢٧٤) .

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٠٨

[٦] السبكي : طبقات الشافعية ج٨ ص(٢٧٦،٢٧٥،٢٧٤) ، ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج٢ ص٢٠٠

[٧] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص(٣٦٤،٣٦٣)

[٨] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٠٨ ، ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج٢ ص٢٠٠

أما اليهود فهم قلة في المجتمع الدمشقي ، فقد ذكر الرحالة اليهودي بنيـلمين التطيلي الذي قدم إلى بلاد الشام في فترة الحروب الصليبية وسجل رحلتـه بسـنة (٥٩٦هـ/١١٧٣م) أنه كان في دمشق ثلاثة آلاف يهودي [١] ، وتشـير بعـض المصادر إلى أن أهل دمشق لم يكونوا على وفاق معهم في غالب مراحل الحكـم الأيوبي [٢].

٢ـ مظاهر الحياة الاجتماعية :

ساد المجتمع الدمشقي الالتزام بأمور الدين وهي السمة الغالبة علـى أهـل دمشق [٣] ولعل ذلك لكثرة مساجدها، وانتشار العلـم، وكـثرة العلمـاء والعـباد والصالحين ، إضافة إلى حرص سلاطين الدولة الأيوبية علـى تطبيـق الأحكـام وتنفيذ الشريعة ، وبالرغم من ذلك فقد تفشت فـي المجتمـع بعـض المنكـرات والمعاصي كالخمر والرشوة وكثرة المغنين والراقصين [٤] ، ولهذا أصدر الملـك الأفضل علي بن السلطان صلاح الدين كتابا إلى والي دمشق، يوضح فيه المفاسـد والمحرمات المنتشرة بين الناس، ويطلب منه إنكارها، ومنه : «ومن المهم عندنـا حد الخمر ، فالناس قد تهافتوا على شربها وإدمانـها ، وجـاهروا فـي افتعالـها وعصيانها ، ولم يردنهم الحد عليها عن ورود مكانها ، ونحن نأمرك بـأن تقتلـع شرها من أصله ، وتسد على شيطانها أبواب سبله ، ولا يتم ذلك إلا بأن تجتهد في منع جلها وتحريم حلها وإراقة زقاقـها ودنانـها ، واسـتهلاك الـدواب الحاملـة باستحلال أثمانها ، وأن تتعهد قيناتها بالنفي والاشتهار ، وهتك الأستار ، واسـتعن على أمرك بكل محتسب يتولى الأمر بالمعروف وبالعلماء من رجـال الله الذيـن ينظرون بنوره من وراء السجون .. ونرجو حينئذ أن يزول هذا الـداء وإن كـان عضالا ، وإذا نظر الله في أمرنا في صدق النية كفى المؤمنين قتـالا ... وهـهنا كبيرة من أعظم الكبائر ، وقد فشت في الناس حتى صارت صغيرة من الصغائر ،

---

[١] يوسف غوانمه : تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي ، دار الحياة لنشر الأردن ، عمان ص١٢٢

[٢] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٣٦٣

[٣] الشيزري : عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر ، المنهج المسلوك في سياسة الملوك ، الطبعـة الأولـى ، مكتبة المنار ، الأردن ١٤٠٧هـ ، تحقيق : علي عبد الله الموسى ص٥٥ المقدمة .

[٤] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٥٩٤،٥٩٥) .

وذلك أن ولاة السوء قد ألفوا تناول الرشوة التي تغير حكما وتختم علـــى القلــوب ختما وسماها الله سحتا وإثما ، وأنت يمنعك عنها دينك والذي هو عصمة أمر»[١] .

ويذكر أبو شامة أن السلطان العادل أبي بكر بن أيوب لما ملك دمشق أبطل المكوس ورد المظالم ومنع من دخول الخمر إليها [٢] وفي سبيل ذلك وضع رجــالا على مداخل المدينة يمنعون دخول الخمر، وجعل لهم الرواتب ، فكان أهل الفســاد يحتالون عليهم ويدخلون الخمر في الطبول وفي غيرها [٣] .

العادات والتقاليد :

أ ـ عاداتهم أيام الحج :

كان من عادات أهل دمشق في أيام الحج أنهم « يتوخون الوقوف يوم عرفـة بجوامعهم ، إثر صلاة العصر ، يقف بهم أئمتهم كاشفين رؤوسهم داعين ربـــهم ، التماسا لبركة الساعة التي يقف فيها الحجاج على صعيد عرفة ، فلا يزالون كذلـك حتى غروب الشمس ، ثم ينصرفون باكين محزونين على ما فاتهم من بركة ذلـــك اليوم العظيم » [٤] .

وكانوا يستقبلون الحجاج القادمين من الحج، ويخرجون لتلقيهم رجالاً ونساءً ويصافحونهم ويتمسحون بهم طلبا للبركة، ويتلقونهم بالأطعمة، ويقدمونها للحجــاج، فإذا أكل الحاج منها جزءا خطف ما بقي منه ثم أكل الباقي طلبا للبركة [٥].

ب ـ عاداتهم ليلة النصف من شعبان :

وكان من عادات أهل دمشق السيئة ليلة النصف من شعبان أنــهم يوقــدون السرج في المساجد [٦] ، ويجمع الناس للصلاة والدعاء وقراءة القرآن [٧] ، وقـــد وصف أبو شامة ما كان يحدث في هذه الليلة من الفسق واختلاط النساء بالرجـــال وتلامس اجسامهم بعضها ببعض من شدة الزحام ، ما دل على شناعة تلك البدعـــة

---

[١] الحموي : دمشق في العصر الأيوبي ص (٣٠،٣١،٣٢)

[٢] ذيل الروضتين : ص١١١

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٥٩٤،٥٩٥) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص٧٥.

[٤] ابن جبير : الرحلة ص٢٦٤

[٥] نفسه ص ٢٥٩

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين ص (١٥٤،١٥٥،١٥٦)

[٧] أبو شامة : الباعث على إنكار البدع والحوادث ص (١٢٨،١٣٢)

المحدثة [١] ثم يقول « وكل من حضر ليلة نصف شعبان عندنا بدمشق في البلاد المضاهية، لما يعلم أنه يقع في تلك الليلة من الفسوق والمعاصي وكثرة اللغط والخطف والسرقة وتنجيس مواضع العبادات وامتهان بيوت الله تعالى ...» فكل ذلك سببه الاجتماع للتفرج على كثرة الوقيد ، وكثرة الوقيد سببها تلك الصلاة المبتدعة المنكرة وكل بدعة ضلالة » [٢] .

ج ـ عاداتهم في شهر رمضان :

أما عن عاداتهم في شهر رمضان ، فلهم فيه عادة حسنة ، وهي أنهم يجتمعون في ليالي رمضان على إفطار جماعي ويصنعون للفقراء وللضعفاء فيها الأطعمة ، ويقوم بذلك الأمراء والقضاة والتجار وغيرهم من عامة الناس يجتمعون في المساجد أو ساحات المنازل [٣] .

د ـ عادات الجنائز :

ولأهل دمشق في جنائزهم طريقة عجيبة « وذلك أنهم يمشون أمام الجنائز بقراء يقرأون القرآن بأصوات شجية وبألحان مبكية ومحزنة للقلوب ، هذا إذا كان الميت من العامة ، أما إذا كان من أئمة الجامع أو من سدنته ، فإنهم يميزون ذلك بدخول القراء مع الجنازة إلى موضع الصلاة عليه ، كما يقيمون العزاء لهم داخل الجامع في البلاطة الغربية من الصحن تجاه باب البريد ، ويصفون أفرادا أفوادا ، وهناك نقباء يسمون (نقباء الجنائز) يرفعون أصواتهم بأسماء من يحضرون للعزاء من أعيان البلدة والعلماء والقضاة والفقهاء، ويجعلون لهم المجالس الخاصة بهم » [٤] ويصف ابن جبير ذلك فيقول « فتسمع ما شئت من صدر الدين ، وشمسه، أو بدره ، أو نجمه ، أو زينه ، أو بهائه ، أو جماله ، أو مجده ، أو فخره، أو شرفه ، أو معينه ، أو محييه ، أو زكيه ، أو نجيبه ، إلى ما لا غاية له

---

[١] ابو شامة : الباعث على انكار البدع والحوادث ص١٣٥

[٢] نفسه ص١٣٥

[٣] ابن بطوطة : الرحلة ص (١٢٠،١٢١)

[٤] ابن جبير : الرحلة ص(٢٦٧،٢٦٨) ، الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ص٢٤٠

من هذه الألفاظ الموضوعة [١] ولا سيما في الفقهاء ، وتسمع أيضا سيد العلماء وجمال الأئمة، وحجة الإسلام، وفخر الشريعة، وشرف الملة، وفتى الفريقين ... فإذا استكملوا وفرغوا من القراءة وانتهى المجلس بهم منتهاه قام وعاظهم واحدا واحدا بحسب رتبهم في المعرفة ، فوعظ وذكر ونبه على خدع الدنيا وحذر وأنشد في المعنى ما حضر من الأشعار ثم ختم بتعزية صاحب المصاب والدعاء له وللمتوفي ثم قعد وتلاه آخر على مثل طريقته إلى أن يفرغوا ويتفرقوا ... » [٢] .

هـ - عادات السبوت :

وكان من عادات أهل دمشق أنهم يجعلون يوم السبت يوم بطالة لا يخرجون فيه إلى أعمالهم ولا يعملون فيه عملا ، حيث يخرجون إلى المتنزهات والشواطئ والأنهار، وإلى البساتين والعيون، يقضون فيها يومهم إلى الليل [٣] .

ويصف القزويني ذلك بقوله : « وفي هذا اليوم لا يبقى للسيد على المملوك حجر ، ولا للوالد ولا للزوج على الزوجة ، ولا للأستاذ على التلميذ ، فإذا كان أول النهار يطلب كل واحد من هؤلاء نفقة يومه فيجتمع المملوك بإخوانه من المماليك ، والصبي بأترابه من الصبيان ، والزوجة بأخواتها من النساء ، والرجل أيضا بأصدقائه ، فأما أهل التميز فيمشون إلى البساتين ولهم فيها قصور ومواضع طيبة ، وأما سائر الناس فإلى الميدان الأخضر وهو محوط فرشه أخضر صيفا ، وشتاء من نبت فيه ، وفيه الماء الجاري ، والمتعيشون يوم السبت ينقلون إليه دكاكينهم ، وفيها حلق المشعبذين ، المساخره ، والمغنين ، والمصارعين، والفصالين والناس مشغولون باللعب واللهو إلى آخر النهار » [٤] .

وبالجملة فقد كانت أيام السبوت من أكبر الأيام والمواسم، تغلق فيها الأسواق ، وتعطل الدواوين والمكاتب ، وتهجر من أجلها حلقات التدريس في

---

(١) انظر كلام العلماء عن مسألة النعوت التي تقتضي التزكية والثناء على صاحبها. بدران : المدخل إلى مذهب الإمام بن حنبل ص (٢٠٣،٢٠٤)

(٢) الرحلة : ص (٢٦٨،٦٧) ، وهذه العادة في الجنائز عند أهل دمشق قد أنكرها العلماء المعاصرون لها وبينوا أنها من البدع المحدثة انظر أبو شامة : الباعث على انكار البدع ص (٢٧٠،٢٧٨)

(٣) ابن بطوطة : الرحلة ص ١٠٤

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد ص١٩١

المساجد والمدارس ، [1] وتزدحم الناس في الساحات والميادين ، وعليهم أصناف الأزياء ، والثياب المشهرة والمنسوجات البلدية الموشاة الفائقة الصفة [2] . يصف ابن ضروف الشاعر أيام السبوت فيقول :

تروق دمشق ولدانا وحورا	وتزهى زهو جنات النعيم
إذا رحلت عروبة عن حماها	تأوه كل أواب حليم
إلى سبت حكمى فرعون موسى	يجمع كل سحار عليم
فتبحر كل أملود قويم	يميس وكل ثعبان عظيم
إذا انسابت أراقمه عليه	تذكرنا بها ليل السليم
وشاهدنا بها في كل حال	حبالا ألقيت نحو الكليم
وتحشر فوق أخضر مستدير	ضراغمه الشرى وهي العريم
بمفدي حبوة مراح أنسي	ومورد طيبة ومراد ريم
مسلطة العيون على قلوب	مؤيدة الفتون على حلوم

---

[1] أنكر العلماء من أهل دمشق هذه العادة السيئة يقول الضياء المقدسي : ((ومن البدع التي نهينا عنها وحرم على المسلمين فعلها مشاركة المسلمين لليهود والنصارى في أعيادهم ومواسمهم مثل خميس البيض ، واثنين الراهب ، ويوم السبت والميلاد ... أما يوم السبت فقد عمت المصيبة فيه، فترى فيه جهلة المسلمين والعلماء الغافلين يتخذونه يوم بطالة وراحة وتنزه، وترى غالبهم يقفلون حوانيتهم، ويبطلون أشغالهم وتجارتهم ويخرجون فيه إلى التنزه، أو يجلس في بيته مستريحا كفعل اليهود بلا ريب ولا شك ، يقصدون ذلك اليوم البطالة دون أيام الأسبوع ويتأسوا في ذلك بفعل جهال ... كثير وإنما يكون الاقتداء والاتباع والتأسي بفعل السلف الصالح أو يكون أمرا مباحا ، وهذا غير مباح لأنه يوم تختص باليهود لأن الجمعة للمسلمين والسبت لليهود، والأحد للنصارى ... وإن كان لابد من يوم بطالة وراحة للمسلم فليكن يوم الجمعة لأنه ما طلعت الشمس على يوم أفضل منه... فيجب على المسلم الطالب لدار الآخرة أن يتجنب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا يغتر بجاهل أو عالم غافل ...)) إتباع السن واجتناب البدع والدف والشبابه : مخطوط بمكتبة الحرم المكي الشريف ورقة (٨/٧).

[2] دمشق في العصر الأيوبي ص٣٨ ، غسسان سبانو : مقالات مجموعة ص١٣٢ .

وتبـدي بـالصوالج فـي كـرات ... محاسـن فعـل أصحـاب الرقيـم

فتبحـر عنـد ذلـك كيـف تسـطو ... بـدور بـالبروق علـى نجـوم

تظـن كراتـها تنبـت منـها ... قلـوب العاشـقين عـن الجسـوم

ومـا فـي حربـها ألـم بشـيء ... مـن الأشـياء إلا بالـهموم (١)

---

(١) ابن سعيد : الغصون اليانعة ص (١٤٣،١٤٢) ، قال ابن سعيد لما دخل دمشق وشاهد ما عليه أهل دمشق في يوم السبت :

أمـا دمشـق مجنـه ... ينـي بـها الوطـن الغريـب

لله ايـام السـبوت ... بـها ومنظرهـا العجيـب

انظـر بعينـك هـل تـرى ... ألا محبـا أو حبيـب

كـل يبلـغ نفسـه ... مـا تشـتهي مرحـا وطيـب

فـي حيـث لا داع هنـا ... ك سـوى السـرور ولا مجيـب

أرض خلـت ممـن ينعـص ... أو يراقـب أو يعيـب

المبحث الرابع : الأوضاع الدينية :

المذهب الحنفي :

في الفترة التي كانت دمشق تخضع لحكم الدولة العبيديه ، كان العلماء المنتمين للمذاهب السنية يمارسون الاشتغال بالتدريس داخل مساجدها الجامعة وكان أكثرهم ينتمون للمذهب الحنفي والشافعي ، فلما دخل السلاجقة دمشق دعموا مذاهب أهل السنة ونشروا فيها المدارس الفقهية وخصوصا الأحناف [١].

وبدأ المذهب الحنفي يأخذ التأييد والدعم في الفترة التي تمكن السلطان نور الدين محمود من بلاد الشام ، حيث كان حنفي المذهب ، فأقام لهم المدارس ، واستدعى العلماء ولكن دون تعصب لمذهبه [٢] .

وفي العصر الأيوبي أخذ الأحناف المكانة المرموقة في الدولة ، وزاد ذلك في فترة حكم الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب، الذي كان ينتمي إلى المذهب الحنفي على الرغم من أن أهل بيته كلهم من الشافعية[٣]، فكان لهذا أثر كبير في دعم المذهب ، وذلك لكونه عالما من علمائه [٤] وقد أسهم في نشر كتب المذهب [٥] وحفظ متونه [٦] والمشاركة بالتصنيف والذب عن علمائه [٧] وهو ما سنتحدث عنه في موضعه من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

---

[١] المنجد : صلاح الدين ولاة دمشق في العصر السلجوقي ، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق لابن عساكر ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب الجديد ١٩٧٥م ص٦

[٢] ابن ألاثير : الباهر ص١٦٥ ، الكامل ج٩ ص١٢٥ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص١٤ ، ابن قاضي شهبة : محمد بن أبي بكر ، الكواكب الدرية ، تحقيق / محمود زائد ، بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م ص٣٧ .

[٣] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص٤٩٤ ، القرشي : عبد القادر بن محمد بن محمد ، الجواهر المضيئة ، الطبعة الأولى ، دار هجر ، تحقيق / عبد الفتاح الحلو ، ج٢ ص(٦٨٢،٦٨٣) .

[٤] أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص٢٣٦

[٥] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٤٧

[٦] نفسه ص(٦٤٤،٦٤٥) ، الذهبي : العبر ج٢ ص١٩٤

[٧] بدوي : أحمد أحمد ، مأمون بني أيوب ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص(١٦،١٧،١٨،١٩)

المذهب الشافعي :

كان أول انتشار المذهب الشافعي في بلاد العراق ثم بمصر ، واستمر على ذلك حتى دخلت الدولة العبيدية إلى مصر فضعف أتباعه وكاد أن يتلاشى [١] وبقيت مصر على ذلك حتى ملكها السلطان صلاح الدين الأيوبي فأعاد مذهب أهل السنة إليها [٢] ، أما دمشق فقد سبقت مصر بدخول المذهب الشافعي إليها ، وكان هو مذهب الدولة الرسمي [٣] ، ومن الواضح أن الغالبية العظمى من الفقهاء بدمشق في فترة البحث هم من أتباع المذهب الشافعي ، والواقع أن المكانة التي تبوأها المذهب الشافعي ، إنما جاءت من المساندة والتأييد اللذين أولتهما إياه الدولة الأيوبية [٤] .

المذهب الحنبلي :

تذكر المصادر أن أول من نشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل بالشام هو الشيخ عبد الواحد بن محمد الشيرازي (٤٨٦هـ/١٠٩٣م) [٥] حينما قدم من بغداد إلى بيت المقدس وذاع صيته بها ، فقرأ عليه عدد كبير من الطلبة [٦] كان من

---

(١) بدوي : أحمد أحمد ، الحياة العلمية في مصر والشام زمن الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٧٢م ص١٤٦

(٢) ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ، الطبعة الثانية ، المكتبة العصرية ، بيروت ١٤١٦هـ ، تحقيق / درويش الجويدي ، المقدمة ص(٤١٩،٤٢٠)

(٣) باشا : عمر موسى ، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، دمشق ١٤٠٩هـ ص٩٠ ، المنجد : ولاة دمشق في العهد السلجوقي ص(٧،٦).

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص(٤١٩،٤٢٠) ، أبو زهرة : محمد ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، دار الفكر العربي ١٩٨٩م ج١ ص٤٨١

(٥) أبو الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي بن أحمد الشيرازي ثم المقدسي ثم الدمشقي ، الفقيه الزاهد ، شيخ الشام في زمنه ، وكان إماما في الفقه والأصول والتفسير ، صنف كتبا منها (المنهج) ، و(الإيضاح) و (التبصرة في أصول الدين) وهي في الفقه ، وكتاب (الجواهر) في التفسير ، ابن رجب : عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي ، ذيل طبقات الحنابلة ، دار المعرفة ، بيروت ج٢ ص(٦٨،٧١) العليمي : عبد الرحمن بن محمد ، المنهج الأحمدي ، الطبعة الثانية ، عالم الكتب ١٤٠٤هـ ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ج٢ ص(١٩٠،١٩٤) .

(٦) الذهبي:العبر ج٢ ص٣٥٢ ، ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص٦٩ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٦٥

أشهرهم قدامة بن مقدام بن نصر بن عبد الله الجماعيلي [١] نسبته إلى قرية جماعيل [٢] ثم رحل قدامة هذا عن بيت المقدس واستقر بدمشق حتى توفى [٣] .

كما أن لهجرة الحنابلة من أسرة بني قدامة الذين هاجروا من بيت المقدس إلى دمشق واستقروا بها ــ إثر دخول الفرنج إليها ــ ، حيث شرعوا في تأسيس حي كبير لهم على جبل قاسيون[٤] يسمى (الصالحية)[٥] وأقاموا المساجد والمدارس[٦] والدور، وقاموا بتدريس كتب المذهب، ونشر العلم، والتصنيف في شتى العلوم ، وأسهم هؤلاء المهاجرون بدراسات وتأليف فقهية وامتزجوا بأصحاب المذاهب الفقهية الأخرى وأخرجوا مذهب الإمام أحمد من عداد المذاهب الحديثية إلى عداد المذاهب الفقهية[٧].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصراع المذهبي بين أتباع المذاهب السنية لم تجده بصورة واضحة طيلة حكم الدولة الأيوبية لدمشق ، إلا ما أشارت إليه بعض

---

[١] لم أقف له على ترجمة .

[٢] قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين ، تقرأ بفتح الجيم وتشديد الميم واللام في الآخر ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص(١٥٩،١٦٠)

[٣] مصطفى : شاكر ، آل قدامة في الصالحية ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية الثالثة ١٤٠٢هـ ، ص(١٠،١٦)

[٤] هو جبل مطل على دمشق من جهتها الشمالية فيه المنازل الملحية والمدارس والربط والبساتين ، وفيه نهر يزيد ، ونهر توري ، وبه الجامع المظفري الذي بناه مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص(٣٩١،٣٩٢) ، الهروي : علي بن أبي بكر ، الإشارات إلى معرفة الزيارات ، دمشق ١٩٥٣م ، ص١١

[٥] قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق ، يكثر فيها المدارس والربط ، والبساتين والأسواق والعمائر الضخمة ، وفيها جماعة من الصالحين لاتكاد تخلو منهم ، وأكثر أهلها ناقلة البيت المقدسي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٣ ص٣٩٠ ، ابن فضل الله : مسالك الأبصار ص(١١٣،١١٤) .

[٦] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص (٦٩،٧٠،٧١،٧٢،٨١،٨٢،٨٣) ، ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٢ ص(٥٢،٥٣،٥٦،٥٨) ، النعيمي : الدارس ج٢ ص(١٢٥/٣٠)

[٧] دهمان : محمد أحمد ، في رحاب دمشق ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ١٤٠٢هـ ، ص٤٢

الروايات مما كان بين بعض الحنابلة والشافعية الأشعرية[١]حول بعض المسائل في الاعتقاد[٢]وما نتج بسبب ذلك منع للحنابلة بدمشق من الصلاة في الجامع الأموي ، ورفع محرابهم [٣] و تذكر المصادر قصة مشيرة إلى أنه كان للحافظ المحدث عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (٦٠٠هـ/١٢٠٣م)، حلقة علم بالجامع الأموي يقوأ بها الحديث وكان موعده بعد صلاة الجمعة فحسده بعض أهل دمشق من الشافعية الأشاعرة [٤] يقول أبو شامة : « فدخلوا عليه بطريق الناصح بن الحنبلي فحسنوا له أن يعظ بعد الصلاة تحت قبة النسر ففعل ، فشوش على عبد الغني، فصار يعقد بعد العصر، وذكر عقيدته على الكرسي، فاتفق القاضي محي الدين بن الزكي ، والخطيب ضياء الدين الدولعي وجماعة من الدماشقة وصعدوا إلى القلعة وواليها صارم الدين بزغش فقالوا : هذا قد أضل الناس ويقول بالتشبيه فعقدوا له مجلسا وأحضروه، فناظرهم، فأخذوا عليه مواضع منها « ولا أنزها تنزيها ينفي حقيقة النزول » ، ومنها قوله : « كان الله ولا مكان وليس هو اليوم على ما كان » ومنها مسألة (الصوت والحرف) فقالوا له إذا لم يكن على ما كان فقد أثبت له المكان، وإذا لم تنزهه تنزيها ينفي حقيقة النزول فقد أجزت عليه الانتقال ، وأما الحرف والصوت فإنه لم يصح عن إمامك الذي تنتمي إليه فيه شيء . وإنما المنقول عنه أنه كلام الله لا غير وارتفعت الأصوات ، فقال له صارم الدين : كل هؤلاء على ضلالة وأنت على الحق ؟ قال : نعم فأمر الأمراء فنزلوا إلى جامع دمشق فكسروا منبر عبد الغني وما كان في حلقة الحنابلة من الدرابزينات ومنعوهم من الصلاة،

---

(١) الأشاعرة : تنسب هذه الفرقة إلى أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري (ت ٣٢٤هـ/٩٣٥م) يتصل نسبه بالصحابي الجليل أبي موسى الأشعري كان معتزلياً فتاب من الاعتزال ورجع إلى مذهب اهل السنة وتوفي سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م السمعاني :الانساب ج١ ص٢٧٣ ،القرشي الجواهر المضيئة ج٢ ص٥٤٤ .

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ص(٤٦،٤٧) .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث ج(٥٦١/٦٠٠)

(٤) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٢ ص٢٠

ففاتتهم صلاة الظهر، فجمع الناصح ابن الحنبلي السوقة وقال لئن لم نرجع إلى مكاننا فعلنا وضعنا فأذن لهم القاضي في ذلك »[١] .

وتجددت الخلافات بين الحنابلة والأشاعرة في عهد الملك الأشرف موسى حيث يذكر أن الملك الأشرف كان يميل إلى الحنابلة وأهل الحديث ، [٢] يقول ابن واصل:« وقعت بين الشافعية والحنابلة فتنة بدمشق بسبب العقائد،وتعصب عزالدين بن عبد السلام على الحنابلة جداً لميله إلى مذهب أبي الحسن الأشعري...»[٣] وقد أفاض السبكي في ذكر تفاصيل القصة وذكر أن الملك الأشرف موسى لما جاءه رد الشيخ العز بن عبد السلام حول المسائل المتنازع عليها ولم توافق ما ذهب إليه منعه من ثلاثة أمور: ألا يفتي ولا يجتمع بأحد وأن يلزم بيته ، [٤] ثم لما كتب بعض العلماء من الشافعية والمالكية والأحناف إلى الملك المعظم عيسى تأيدهم لما ذكره العز بن عبد السلام في جوابه إليه ، رفع عنه العقاب وأرسل إليه معتذرا [٥]، وذلك لأنه كان « يكره الفتن والعصبية في المذاهب » [٦] .

الصوفية : يعرف ابن خلدون التصوف فيقول : « وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها » [٧] وبهذا التعريف نحى ابن خلدون بالتصوف منحى الزهد ، لكن ابن الجوزي فرق بين التصوف والزهد فقال : « والتصوف طريقه كان ابتداؤها الزهد الكلي ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يرونه من التزهد ، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب ... فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم

---

[١] ذيل الروضتين ص(٤٦،٤٧) وانظر للإستزاده ، الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، سير الأعلام النبلاء ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٤هـ ،ج٢٢ص(٤٥٨،٤٥٩،٤٦٠،٤٦١،٤٦٢،٤٦٣،٤٦٤) ، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة ص(٢٠،٢١،٢٢،٢٣)

[٢] الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٢٢ ص١٢٦

[٣] مفرج الكروب : ج٥ ص(١٤١،١٤٢)

[٤] طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص(٢٣٤،٢٣٥)

[٥] نفسه: ج٨ ص(٢٣٦،٢٣٧،٢٣٨)

[٦] ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص(١٤١،١٤٢) .

[٧] المقدمة ص٤٤٩

يذمه أحد وقد ذموا التصوف»[١]، ولهذا يمكن القول إن التصوف إنما هو « نزعة من النزعات ، وليس فرقة مستقلة ثابتة الآراء والأهداف والتعليمات ، وأن هناك بعض التماثل في الأساليب واعتماد التسلسل في الطريقة ، ولذلك يصح أن يكون الرجل سنيا متصوفا ، أو شيعيا متصوفا ، أو معتزليا متصوفا » [٢] .

وكان أول ظهور للصوفية في القرن الثاني الهجري ، حيث كان أول من تسمى بهذا الاسم أبو هاشم الصوفي (١٥٠هـ/٧٦٧م) وهو رجل أصله من أهل الكوفة [٣] وقد قضى معظم حياته في بلاد الشام [٤] وبلغ التصوف أوج كماله ونضجه في أواخر القرن الثالث الهجري [٥] وأخذت الصوفية في بعض أطوارها بعد ذلك تمتزج في كثير من عقائدها وأفكارها مع الشيعة الرافضة وذلك بسبب مخالطتهم لهم ، يقول ابن خلدون« ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس ، توغلوا في ذلك ، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة ... وملأوا الصحف منه ، مثل الهروي [٦] في كتاب (المقامات) وغيره، وتبعهم ابن عربي[٧]

---

[١] ابن الجوزي : عبد الرحمن ، تلبيس إبليس ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ١٣٦٨هـ ص(١٦١،١٦٥)

[٢] عسيري : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص١٤٣

[٣] هي المدينة المشهورة بأرض العراق ، سميت الكوفة لاستدارتها ، وقد مصرت في أيام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص(٤٩٠،٤٩٤) ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص٣٠٠

[٤] عميره : عبد الرحمن ، التصوف الإسلامي منهجا وسلوكا ، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ص٧

[٥] غني : قاسم ، تاريخ التصوف في الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ١٣٩٠هـ ، ترجمة : صادق نشأت ص(٧١،٨١)

[٦] لم أقف له على ترجمة .

[٧] محي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد الطائي الأندلسي الصوفي ، ولد بمرسية سنة سبع وخمسمائة للهجرة ، ونشأ بها ثم انتقل إلى إشبيلية ، وتعلم بها ورحل إلى بلاد المشرق فدخل مصر وبغداد وحج إلى مكة وتعلم بها ، ثم أخرج من مصر إلى دمشق واستقر بها حتى وفاته ، له مصنفات كثيرة في فنون عدة من أشهرها في الصوفية كتاب (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم) ، الذهبي : العبر ج٣ ص٢٣٣ ، الشعراني : عبد الوهاب بن أحمد بن علي ، الطبقات الكبرى ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ١٤٠٨هـ ج١ ص١٨٨ .

وابن سبعين[١]وتلميذها، ثم ابن عفيف،[٢]وابن الفارض[٣] والنجم الإسرائيلي [٤] في قصائدهم وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الأئمة مذهبا لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر ، واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم...))[٥] .

وقد طغت هذه المذاهب من الصوفية على بلاد الشام وغيرها ، في حين سعى الزنكيون والأيوبيون للإصلاح من شأنها ، ولذا تذكر المصادر عناية واهتمام كل من السلطان نور الدين بن محمود بن زنكي والسلطان صلاح الدين الأيوبي بالصوفية [٦] وقد وصف ابن جبير صوفية دمشق وما هم عليه من رغد العيش فقال : ((وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفراغ خواطرهم لعبادته من الفكر في أسباب المعايش وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة ، وهم على طريقة شريفة ، وسنة في

---

(١) عبد الحق إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين ، كان صوفيا على نهج الفلاسفة وله مصنفات توفى بمكة سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص٤٦٠ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٨ ص٦٠ .

(٢) سليمان بن علي بن عبد الله علي الكومي التلمساني ، عفيف الدين، أديب وشاعر ، تنقل في بلاد الروم وسكن دمشق ، وهو أحد زنادقة الصوفية ، وقد قيل له مرة أأنت نصيري ؟ فقال : النصيري بعض مني ، توفى سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) ، الذهبي : العبر ج٣ ص(٣٧٢،٣٧٣) ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٨ ص٣٥

(٣) عمر بن علي بن مرشد ابن الفارض الحموي الأصل المصري المولد والوفاة ، كان شاعرا وله فيه (ديوان) كان ممن يقول بالوحدة توفى سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٤٥٤ ، الذهبي : العبر ج٣ ص٢١٣

(٤) محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر نجم الدين الشيباني ، شاعر متصوف كان مولده ووفاته في دمشق سنة (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) كان له شعر يصرح فيه أحيانا بالاتحاد ، مدح السلاطين والقضاة وغيرهم ، الذهبي : العبر ج٣ ص٣٣٦ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٣ ص١٤٣ ، الكتبي : محمد بن شاكر ، فوات الوفيات ، دار صادر ، بيروت ، تحقيق : إحسان عباس ، ج٣ ص(٣٨٣،٣٨٥)

(٥) المقدمة ص٤٥٥

(٦) الصفدي : تحفة ذوي الألباب ج٢ ص١٥٠

المعاشرة عجيبة ، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، و عوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفصل المثابر رقة وتشوقا ، وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشا طيبا هنيئا ، ومن أعظم ما شاهدناه لهم موضع يعرف بالقصر ، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء ، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقا منها ، وهو من البلد بنصف ميل ، له بستان عظيم يتصل به » [١] وهو وقف على الصوفية من السلطان نور الدين محمود بن زنكي . [٢]

ووجد بدمشق كثير من طوائف الصوفية المنحرفة في أفكارها وعقائدها مثل طائفة القلندرية ، واليونسية ، والحريرية ، والرفاعية ، [٣] وأصبح لهم تنظيمات خاصة بهم [٤] كما كان لهم من يرأسهم وكانت تسمى وظيفته (شيخ الشيوخ) [٥] وهو يحظى بمنزلة كبيرة في الحياة السياسية الاجتماعية تبلغ أحيانا منزلة القضاة والعلماء [٦] وكان للعلماء موقف حازم في مواجهة هذه الطوائف بالإنكار عليها وتصنيف الكتب في الكشف عن بدعها وانحرافاتها .

---

(١) الرحلة ص(٢٥٦،٢٥٧)

(٢) نفسه ص٢٥٧

(٣) سوف نرجئ الحديث عن هذه الطوائف وجهود العلماء في الانكار عليها إلى الفصل الثاني من الرسالة

(٤) غني : تاريخ التصوف في الإسلام ص(٦٩٨،٧٠٠)

(٥) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٦ ص٥٨ وهو رئيس خوانق الصوفية جميعا ، وكان لهذه الوظيفة قيمة سياسية تزيد على قيمة قاضي القضاة ، دهمان : محمد أحمد ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، الطبعة الأولى دار الفكر دمشق ١٤١٠هـ ص٩٩ .

(٦) زعرور : الحياة الاجتماعية في بلاد الشام ص١٢٩

الفصل الثاني

دور العلماء الدمشقيين في حفظ السنة والجهاد ضد الصليبيين

المبحث الأول : دور العلماء في حفظ السنة ومقاومة المذاهب والتيارات الضالة

المبحث الثاني : دور العلماء في الوحدة الإسلامية والجهاد ضد الصليبيين

المبحث الأول : دور العلماء في حفظ السنة ومقاومة المذاهب والتيارات الضالة:

إن المتأمل لدور العلماء في حياة الأمة من خلال جهودهم في حمل أمانة نشر العلم والقيام بواجبه ، وإسهامهم في الحفاظ على خط سير الأمة ، وما بذلوه من جهود في تعليم الناس وتوجيههم من خلال دروسهم العلمية ومؤلفاتهم التي يبينون فيها المنهج الصحيح والطريق الذي ينبغي على المسلمين أن يسلكوه من أجل تجنب الانحراف والخطأ ، وبيان الانحرافات التي قد تحدث ، ثم الرد على أصحاب البدع والأهواء والتيارات الضالة التي شذ بها الطريق و تغير بها المنهج حتى خرجت عن مناهج أهل السنة وسلوك طريقهم ، ليدرك من خلال ذلك عظم المسؤولية التي تحملها العلماء في هذا السبيل . وقبل الحديث عن جهود العلماء في دمشق لحفظ السنة ومقاومة المذاهب الضالة يجدر بنا أن نذكر تعريفا مختصرا لأهل السنة وما المقصود بهم .

السنة لغة واصطلاحا :ـ

السنة في اللغة : هي الطريقة والسيرة [١]

قال الأزهري : السنة الطريقة المحمودة المستقيمة ولذلك قيل فلان من أهل السنة، معناه من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة [٢]

وفي الاصطلاح : قال الشاطبي : ويطلق أي لفظ السنة في مقابلة البدعة فيقال : فلان على سنة إذا عمل على وفق ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك مما نص عليه الكتاب أولا ، ويقال: فلان على بدعة إذا عمل على خلاف ذلك[٣].

وأهل السنة كما يقول ابن حزم : « هم الذين تذكرهم أهل الحق ، ومن عداهم فأهل البدعة ، فإنهم الصحابة رضي الله عنهم ، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمهم الله تعالى ، ثم أصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا ، ومن اقتدى بهم من العوام من شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم » [٤] .

---

[١] ابن منظور : لسان العرب ج١٣ ص٢٢٥

[٢] تهذيب اللغة ج١٢ ص ١٠٣

[٣] الشاطبي : الموافقات في أصول الشريعة ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ، تحقيق : عبد الله دراز

[٤] ابن حزم : محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر ، الملل والنحل ، الطبعة الثانية ، دار المعرفة ، بيروت ، تحقيق : محمد سيد كيلاني

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريف أهل السنة : « هم المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان » [١]

وتعد دمشق المدينة العلمية الكبرى في بلاد الشام وعاصمتها السياسية في العصر الأيوبي ، وقد اجتمع بها كثير من العلماء من أهل السنة ، وارتحل إليها العلماء من أنحاء الدولة الإسلامية ، فكان هذا عاملا قويا ورافدا حيا لدعم المذهب السني ونشر علومه .

وكان لسلاطين الدولة الأيوبية جهود كبيرة في النهوض بدمشق علميا واستقطاب العلماء من أهل السنة إليها ، فكانت مساهماتهم في إنشاء أماكن التعليم والإنفاق عليها واضحا وجليا [٢] إدراكا لأثرها في الدعم والتمكين لأهل السنة ونشر علومهم ، ويمكن أن نلقي الضوء على بعض جهود السلاطين في التمكين لأهل السنة من خلال جوانب منها :

أولا : **إنشاء المدارس السنية :** [٣]

فقد ركز نور الدين محمود بن زنكي جاهدا على إنشاء المدارس السنية إلا أن أكثرها كان للأحناف وهي الأكثر انتشارا بدمشق[٤] ، أما في العصر الأيوبي فقد زاد عدد المدارس وشملت بقية المذاهب من شافعية وحنابلة ومالكية [٥] فتنوع بذلك نشاط المدارس السنية وكثر طلابها وخريجوها ، مما كان له الأثر الواضح في دعم الاتجاه السني خلال الحكم الأيوبي ، كما انشئت مدارس الحديث النبوي

---

[١] مجموع الفتاوى ج٣ ص ٣٧٥

[٢] سوف يأتي الكلام عنه في الفصل الثالث .

[٣] لم يكن إنشاء المدارس السنية مقتصرا على دمشق وحدها دون باقي المدن الأيوبية بل شمل ذلك مدن بلاد الشام مثل بيت المقدس ، وحلب ، وحماه ، وبلاد مصر والحجاز واليمن ، العليمي : مجير الدين عبد الرحمن بن محمد الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، بيروت ١٩٧٣م ج٢ ص (٣٤،٤١،٤٦،٤٧،٤٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٢٠٩ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ (حلب) ص (٩٦،١٠٧،١٠٨،١٢١) .

[٤] النعيمي : الدارس ج١ ص (٤٧٣،٦٤٩)

[٥] نفسه ج١ ص (١٢٩،٤٦٨) ، ج٢ ص(٤٣،١٢٠)

فكانت أول دار للحديث في بلاد الشام هي التي بناها السلطان نور الدين محمود وجعل مشيختها لشيخ الحديث في عصره الحافظ علي بن الحسين بن عساكر [١] واتسعت دائرة الاهتمام بعلوم الحديث في العصر الأيوبي وزاد في عصرهم إنشاء دور الحديث ، وتولى التدريس بها أعلام العلماء والحفاظ فكان لها الفضل في تخريج جملة من الطلبة أصبحوا من أئمة الحديث بعد ذلك ، وكان لدور الحديث الدور البارز في مقاومة الفكر الشيعي الباطني ، الذي لا يعترف بصحة الحديث النبوي إلا ما كان مرويا عن آل البيت ، ولهم في ذلك مصادرهم الخاصة التي يعتمدون عليها ويرجعون إليها [٢] ، كما لقي القرآن الكريم اهتماما خاصا وكبيرا بدمشق فقد كثرت أماكن تعليمه سواء في المساجد الجامعة أو المدارس الخاصة به ، شمل ذلك فئات المتعلمين ، وما ذلك إلا لأن القرآن هو الأساس الأول في بناء الثقافة العلمية لدى أهل السنة [٣] .

ثانيا : **تقريب العلماء** :حظي العلماء من أهل السنة بمكانة رفيعة لدى سلاطين الدولة الأيوبية وعلت مكانتهم في دولتهم ، فكانت مجالسهم لا تخلو من العلماء في شتى فنون العلم كما شغل العلماء مناصب مهمة مثل القضاء والوزارة. [٤]

ثالثا: تعظيم السلاطين لمذاهب أهل السنة :

كما برز دور السلاطين كذلك في تعظيم مذاهب أهل السنة دون تعصب لمذهب معين ، ظهر ذلك جليا فيما أنشؤوه من مدارس لأصحاب كل مذهب دون تخصيص لمذهب بعينه ، ثم خصصت الأوقاف الدارة عليها [٥] .

---

[١] ابن الأثير : الباهر ص١٧٢ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج١ ص(٦٩٣،٦٩٨) ، النعيمي : الدارس ج١ ص٩٩

[٢] فياض : عبد الله ، تاريخ التربية عند الإمامية وأسلافهم من الشيعة بين عهدي الصادق والطوسي ، مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٧٢م ص١١

[٣] بدوي : عبد المجيد أبو الفتوح ، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد ، الطبعة الأولى ، عالم المعرفة ، جدة ١٤٠٣هـ ص٢٩٢

[٤] انظر الفصل الثالث من الرسالة

[٥] ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ورقة ٥٣٢ (أ – ب) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص ٢٠٧ ، النعيمي : الدارس ج١ ص(١٩،٤٨،٣١٦،٣١٧،٣٥٩) ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص (١٥٥،١٦٤)

وعلى الرغم من أن السلطان صلاح الدين كان أكثر سلاطين الدولة الأيوبية تعصبا لمذهبه الشافعي ، إلا أن مواقفه في ذلك محمودة ، فقد ذكرت المصادر أن الفقيه ابن أبي اليعيش الحنفي [١] صنف كتابا سماه (النوري في شرح القدوري) تعرض فيه لأصحاب الحديث والشافعي بما لا يحسن ذكره ، فاستدعاه السلطان وطلب منه الكتاب فأنكر وجوده عنده فقال له السلطان أتحلف فوقف وأحضر الكتاب ، فأمر السلطان بغسله بجامع دمشق يوم الجمعة أمام الناس ، وأنكر على ابن يعيش ذلك ، فتشفع فيه الفقهاء فعفى عنه، [٢] ولعل هذا الموقف من السلطان صلاح الدين يدل على حرصه رحمه الله على منع أسباب الخلاف لما في ذلك من الفرقة والنزاع .

أما السلطان المعظم عيسى فرغم تعصبه للمذهب الحنفي [٣] إلا أن ذلك لم يصرفه عن إنشاء المدارس للشافعية والحنابلة والأحناف [٤] والاحتفاء بعلمائها [٥] ونشر علوم الحديث وإنشاء مدارسها ونشر أمهات كتب الحديث أمثال مسند الإمام أحمد [٦] وغيره .

أما عن دور العلماء في حفظ السنة فيتبين ذلك من خلال إلقاء نظرة شاملة على الحركة العلمية ونشاطها بدمشق ، فقد كانت المدارس قناة مهمة لبث الفكر السني وتلقي علوم أهل السنة من خلال ما يقوم به شيوخ المدارس السنية من جهود في تعليم طلابهم وفق المناهج السنية المقررة داخل تلك المدارس .

كما تتمثل جهود العلماء أيضا في التأليف في فنون العلم ، وعلى الخصوص التأليف في العلوم الشرعية التي تخدم الفكر السني ، كعلوم العقيدة

---

[١] لم أقف له على ترجمة وافية ولعله هو الذي ترجم له القرشي : الجواهر المضيئة ج٣ ص(٥٧٧،٥٧٨)

[٢] العماد الأصفهاني : البستان الجامع ورقة ١٢٤ (أ)

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٦٤٤،٦٤٥)

[٤] النعيمي : الدارس ج١ ص (١٩،٤٧،٤٨،٣١٦،٣١٧)، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص(١٥٥،١٦٤،٢١٩)

[٥] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٦٤٤،٦٤٥) ، الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، تذكرة الحفاظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ج ص(١٤٤٤،١٤٤٥)

[٦] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٣،٦٤٤)

والتفسير والقراءات والحديث والفقه واللغة العربية وغيرها ، حيث يتضح من خلال ذلك معرفة الاتجاه العام للتأليف بما يخدم مذاهب أهل السنة ، إضافة إلى ذلك فقد وجه بعض العلماء مصنفاتهم لإحياء السنة والرد على أهل الفرق والتيارات الضالة ، أو بدع المجتمع التي يجب على العلماء بيان خطئها،[١] أو ما يصنفه العلماء من كتب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢] وكانت مجالس الوعظ و المناظرات [٣] التي يعقدها العلماء في المساجد ودور العلم تساهم في الرد على بعض المخالفين وأهل البدع ، ويمكن إبراز دور العلماء في حفظ السنة من خلال ذكر جهودهم في مقاومة بعض الفرق والتيارات الضالة التي كان لها نشاطها في ذلك العصر . على النحو التالي :

أولا : دورهم في مقاومة الرافضة (الباطنية) [٤] .

---

[١] من هذه المصنفات كتاب (الباعث على إنكار البدع والحوادث) للحفاظ المحدث عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة المقدسي ، وقد تناول فيه رحمه الله الإنكار على عدد من البدع التي اشتهر فعلها عند أكثر المسلمين وعمت بها البلوى ، مثل بدعة صلاة ليلة النصف من شعبان ، وصلاة الرغائب ، وجل الكتاب يدور حول الرد على هذه البدعة ، وتعرض كذلك لبدع أخرى يقع فيها الناس في الحج والجنائز ورمضان وصلاة الجمعة وغير ذلك ، والكتاب مطبوع بعناية مشهور حسن سلمان ، دار الراية ، ١٤١٠هـ ومن هذه المصنفات كتاب (مساجلة بين الإمامين الجليلين العز بن عبد السلام وأبي عمرو بن الصلاح حول (صلاة الرغائب المبتدعة) حيث دار نقاش علمي بينهما حول مشروعية هذه الصلاة ، مما يدل على حرص العلماء على نقض البدع وإحياء السنن في ذلك العصر والكتاب مطبوع ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني و محمد زهير الشاويش ، الطبعة الأولى ، المكتب الإسلامي .

[٢] من تلك المصنفات كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) للحافظ المحدث عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي ، والكتاب طبع وتحقيق ودراسة فالح محمد الصغير ، دار العاصمة ١٤١٧هـ .

[٣] ابن قدامة المقدسي : المناظرة في القرآن الكريم مع بعض أهل البدع مجاميع ص (٦٤،٦٥) ، (٥٧، أ ـ ب) ، أبو شامة ذيل الروضتين ص(٤٦،٤٧) ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص(١٣٧٧،١٣٧٩،١٣٨٠)

[٤] الباطنية : لقب عام تدخل تحته طوائف عديدة تلتقي جميعها في تأويل ظواهر النصوص وإثبات معان باطنة لها ، وتلجأ إلى رموز في تفسير النصوص الدينية ، وإخراجها عن معانيها الظاهرة ، مستهدفين بذلك هدم الدين وإبطال شعائره وأحكامه ، البغدادي : عبد القادر بن طاهر بن محمد ، الفرق بين الفرق ، دار المعرفة ، بيروت ص (٢٨١،٢٨٢،٢٨٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٢٠٦ ، ، الصاعدي : خالد محمد عليان ، جهود العلماء والولاة في الحفاظ على السنة في العصر السلجوقي ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، الجامعة الإسلامية ١٤١٦هـ ص٢٦٣

ثانيا : دورهم في مقاومة الفلاسفة .

ثالثا : دورهم في الإنكار على الصوفية .

أولا : **دور العلماء في مقاومة الرافضة** :ـ لم يكن الدور السياسي الذي قام به السلطان صلاح الدين للإجهاز علي الدولة العبيدية عسكريا كاف لاجتثاث الفكر الشيعي [١] بصورة كاملة ، لهذا قام السلطان صلاح الدين وخلفاؤه بتوجيه الحركة العلمية بمصر والشام لخدمة الفكر السني ومقاومة الفكر الشيعي [٢] ولأجل ذلك سعي السلطان صلاح الدين وخلفاؤه إلي تعطيل الجامع الأزهر عن دوره العلمي وذلك لأنه كان يمثل رمزا شيعيا قويا [٣] وكانت إسهامات العلماء الدماشقة لمقاومة-الفكر الشيعي تتضح من خلال وسائل لعل من أهمها ما يلي :

١ـ المدارس السنية ودورها في نشر الفكر السني :

إن من أكبر الدوافع التي من أجلها أنشئت المدرسة في الدولة الإسلامية مقاومة الفكر الشيعي ونشر علوم السنة وهو ما سعى إله الوزير نظام الملك السلجوقي[٤] في مدارسه النظامية التي

---

[١] يقول شيخ الإسلام ابن تيميه عن أثر الرافضة لما حكموا بلاد الشام (لهذا لما ظهر الملاحدة الباطنية وملكوا الشام وغيرها ظهر فيها النفاق والزندقة الذي هو باطن شرهم) وقال : (فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول صلى الله عليه وسلم سلطت عليهم الأعداء فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة وأخذوا الثغور الشامية شيئا بعد شيء إلى أن أخذوا بيت المقدس في أواخر المائة الرابعة وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار والنصارى والمنافقين الملاحدة ، إلى أن تولى نور الدين الشهيد ، وقام بما قام به من أمر الإسلام وإظهاره ، والجهاد لأعدائه ، ثم استنجد به ملوك مصر بنو عبيد على النصارى فأنجدهم وجرت فصول كثيرة إلى أن أخذت مصر من بني عبيد ، أخذها صلاح الدين يوسف بن شادي ، وخطب بها لبني العباس ، فمن حينئذ ظهر الإسلام بمصر) ، الفتاوى ج١٣ ص(١١٧،١٧٩) .

[٢] عبدالمجيد بدوي:التاريخ السياسي والفكري ص(٢٤٨،٢٤٩،٢٥١،٢٥٤،٢٦١،٢٧٣،٢٧٤،٢٧٦،٢٧٨،٢٧٩)

[٣] خفاجي : محمد عبد المنعم ، الأزهر في ألف عام ، الطبعة الثانية ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٤٠٨هـ ج١ ص (٨٣،٨٤،٨٥،٨٦)

[٤] أبو علي الحسين بن علي إسحاق الطوسي الشافعي (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) الوزير السلجوقي المشهور ، رحل في طلب العلم ، وخالط العلماء وأحسن إليهم ، هو أشهر من بني المدارس للفقهاء والعلماء ، وهي المعروفة بالنظاميات بناها ببغداد نيسابور ، طوسي ، أصبهان ، وغيرها ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص(١٢٨،١٢٩،١٣٠) ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٤ ص(٣٠٩،٣١١) ، ابن الجوزي :=

بناها في العراق[١] ، وهو المنهج الذي اتبعه السلطان نور الدين محمود للقضاء على النفوذ الشيعي فكريا في بلاد الشام[٢] وسلك سلاطين الدولة الأيوبية هذا المنهج في إقامة المدارس بمصر والشام [٣].

أما دمشق فعلى الرغم من أن البيئة العلمية بها خلال فترة البحث كانت بيئة سنية إلا أنها كانت رافدا قويا من الروافد التي تناهض الفكر الشيعي في الشام ومصر [٤] وهذا يظهر من خلال السمات التي تمتعت بها المدرسة الدمشقية خلال فترة الحكم الأيوبي بما يخدم مذاهب أهل السنة فمن تلك السمات : ـ

أ ـ أن المدرسة الدمشقية شكلت بصورة عامة إتجاها علميا موحدا لمناهضة الفكر الشيعي الباطني سواءً كان في المدارس الفقهية الخاصة بالأحناف أو الشافعية أو الحنابلة ، أو مدارس الحديث التي أدت دورها بشكل مباشر .

ب ـ أن التعليم في المدارس الدمشقية كان يسير وفق أسس ومناهج التعليم عند أهل السنة فكانت الكتب المعتمدة في التدريس بالمدارس يتم اختيارها وفق شرط الواقف أو شيخها الذي يتولى التدريس بها ،[٥]مما ساعد على تنوع علومها ومناهجها .

ج ـ ومما ساعد على ازدهار مدارس أهل السنة بدمشق ما كانت تمتاز به من حسن التنظيم وتوفير الإمكانات والخدمات المعينة على طلب العلم كالمسكن والإعاشة مما كان دافعا لأستقطاب الطلاب إليها .

د ـ إضافة إلى ذلك فإن دمشق قد خلت طيلة فترة الحكم الأيوبي من أي نشاط علمي بارز للشيعة سواءً كان هذا داخل مدارسها أو مرافق التعليم الأخرى ، ولم

= عبد الرحمن بن علي البغدادي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الدكن ١٣٥٩هـ /١٩٤٠م ، ج٩ ص٦٤، الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٢ ص(١٢٣،١٢٤،١٢٥)

[١] عسيري : الحياة العلمية في العراق ص (١٧٥،١٧٦)

[٢] عبد المجيد بدوي : التاريخ السياسي والفكري ص (٢٥٠،٢٥٤،٢٥٥،٢٥٦،٢٥٧،٢٥٨،٢٥٩)

[٣] نفسه ص (٢٤٨،٢٤٩،٢٨٩،٢٩٠)

[٤] نفسه ص (٢٥٩)

[٥] أنظر الرسالة الفصل الرابع مبحث المدارس .

يمكن لهم السلاطين والعلماء من إنشاء مدارس خاصة بهم أو القيام بأي نشاط علمي واضح .

٢ـ تصنيف الكتب في الرد على أباطيلهم :

وقد ضل الرافضة في مسألة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضلالا بعيدا ، فكانت عقيدتهم في الصحابة من أسوأ العقائد ، فذكروا أن منهم الكذابين وأرادوا بذلك سبهم ولعنهم ، فكفروا أبابكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وعامة المهاجرين والأنصار إلا النزر اليسير منهم ، وغلوا في آل البيت وعلي رضي الله عنه وأهل بيته [١] ، ومن هذا الجانب تولى العلماء الرد على الرافضة ، فعندما تبرأ الروافض من معظم الصحابة ، قابلهم أهل السنة ببيان فضيلتهم وعظيم منزلتهم ، وقرروا أنهم أفضل الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألفوا في ذلك المؤلفات التي تدل على فضلهم ، ضمنوها ما ورد في حقهم جميعا من أدلة الكتاب والسنة وأقوال أئمة العلماء وبينوا فيها مذهب السلف في هذه المسألة [٢]

وكان لعلماء دمشق في فترة البحث مشاركة فاعلة في الرد على الرافضة في هذه المسألة وغيرها ، فمن ذلك ما صنفه الإمام الحافظ على بن القاسم بن عساكر (٥٧١) في فضائل الصحابة عامة ، وله مصنفات كذلك في (فضائل أبي بكر الصديق) و(فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه)و(فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه)و(فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه) [٣].

كما صنف كتابا مستقلا في الرد على الرافضة سماه (الرد على الرافضه)

---

[١] للإستزادة عن عقيدة الرافضة أنظر البغدادي : الفرق بين الفرق ص(٢٩،٧٢) ، ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص (٣٢،٣٣،١٠٦،١١١) ، ابن حزم : الممل والنحل ج١ ص (١٤٧،١٥٠،١٥٩،١٦٣) ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب : رسالة في الرد على الرافضة .

[٢] الشهراني : منهج بن قدامة في تقرير عقيدة السلف وموقفه من المخالفين لها ، رسالة ماجستير لم تنشر ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤١٤هـ ج٢ ص٦٧٤.

[٣] منه نسخة خطية بدار الكتب الظاهرية بدمشق ، يوسف العش ، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية التاريخ وملحقاته ص٨٨ مجموع ١٦ (٩٥)

ولم يتمه[1] وللحافظ المحدث الحسن بن ابي العنائم هبة الله بن محفوظ بن حسن بن عساكر(٥٨٦ هـ/١١٩٠م) كتابا في (فضائل الصحابة)[2].

وكان من هؤلاء العلماء الذين قيضهم الله عز وجل للرد على الرافضة الإمام المحدث الفقيه عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه المقدسي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) ألف كتابا سماه (منهاج القاصدين في فضائل الخلفاء الراشدين) [3] ويعد هذا الكتاب من أنفع الكتب التي وصلت إلينا في الرد على معتقدات الرافضه في الصحابة ، وفي كثير من المسائل الأخرى التي خالفوا فيها مذاهب أهل السنة [4] ومن تلك المصنفات كتاب (النهي عن سب الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب) [5] للحافظ المحدث محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) فقد بين فيه رحمه الله عقيدة الرافضه في الصحابة وحكم من سبهم ، ذكر فيه جملة من أقوال العلماء في هذه المسألة ، وأورد بعض أقوال الصحابة والتابعين في حكم ذلك ، كما أنه أورد في آخر كتابه عدداً من معتقداتهم وضلالاتهم وأنهم يتفقون مع اليهود في كثير من أفكارهم وذكر نماذج كثيرة تدل على ذلك [6] .

---

(1) ابن عساكر:علي بن الحسن بن هبة الله ،تبيين كذب المفتري علي أبي الحسن الأشعري ،مقدمة الناشرص٥

(2) المنذري : عبد العظيم بن عبد القوي ، التكملة لوفيات النقلة ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ ،تحقيق:بشار عواد معروف،ج١ ص (١٤٨،١٤٦)،الذهبي:تذكرة الحفاظ ج٤ ص١٢٥٨ ، تاريخ الإسلام حوادث (٥٨١/٥٩٠) ص (٢٣٨،٢٣٧) ، كحاله : عمر رضا ، معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،ج٣ ص٣٠١

(3) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٢ ص١٣٩ ، ومنه نسخة مخطوطة في جامعة ليبزخ بألمانيا الشرقية تحت رقم (٦٥٠) ونسخة أخرى بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة تحت رقم (٢٥٣) .

(4) الشهراني : منهج ابن قدامة في تقرير عقيدة السلف ج٢ ص (٧٢٧،٦٨١)

(5) الكتاب مطبوع بمؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ، تحقيق : عبد الرحمن بن عبد الله التركي

(6) الضياء المقدسي : النهي سب الأصحاب ص (١١٠،١٠٩)

وممن صنف في الرد عليهم الفقيه المحدث يوسف بن خليل بن قراجان بن عبد الله الدمشقي الحنبلي (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) له جزء في (فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه) ، جمع فيه الأحاديث الواردة في فضله برواية عبد الله بن أحمد بن حنبل ، رد فيه على كل من ينتقص من عثمان بن عفان رضي الله عنه[١]

وممن صنف في الرد عليهم الشيخ الفقيه محمد بن عبد الله المظفري الشافعي (٦٤٩هـ/١٢٥١م) له كتاب سماه (المخترع في الرد على أهل البدع) والكتاب في أصله للرد على الرافضه ومن طعن في الصحابه ، وتفصيل القول فيما حدث بين الصحابة حتى نهاية خلافة على رضي الله عنه وهو يتكون من ثلاثة أبواب:

الباب الأول : ما ينبغي للعاقل العالم والمتعلم من اتباعه والاعتماد عليه .

الباب الثاني : ذكر اختلاف العلماء في المجتهدين وما يجوز الاجتهاد فيه ومن يأثم من المجتهدين ومن لا يأثم ومن يكفر باجتهاده ، وتفصيل أنواع العلوم .

الباب الثالث : ذكر أنواع الفرق الضالة والمارقة والمقاربة والمباعدة والهادوية والمقلدة والمتبعه بأخصر ما أمكن بعد الاستعانة بالله تعالى .

الفصل الأول : في الرد على من قال بأن القرآن مخلوق وذكر اختلاف مذاهب الناس في ذلك وذكر المعتقدات في قائله وأدلة الرد على من قال بالحرف والصوت وذكر المعتقدات في الناسخ والمنسوخ بالمحكم والمتشابه وغير ذلك .

الفصل الثاني : في الرد على من أنكر الرؤية وما قرب من المسائل جرها البحث مما خالفت فيه المعتزلة سواهم ، وإثبات الرؤية في يوم القيامة .

الفصل الثالث : وهو أطول فصول الكتاب ــ في إثبات خلافة أبي بكر وتقديمه وتفضيله على سائر الصحابة والقرابة وأنه كان خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يفضله في زمانه ، وذكر خلافة الخلفاء الراشدين من بعده ،

---

[١] منه نسخة مخطوطة بمركز البحث وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى تحت رقم (١٨٩٢) تاريخ ، ورقها ٢٨ ورقة وهي مصورة من مكتبة الأمبروزيانا بإيطاليا تحت رقم (٦٧) .

وبعض وقائع حرب علي رضي الله عنه مع معاوية ــ رضي الله عنه ــ وذكــره يزيد والحسين وغير ذلك . [١]

وكان العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بــأبي شامة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) من أكثر العلماء الذين تصدوا للرد عليهم وبيــان فســاد مذهبهم ودولتهم ، ولهذا أشاد بالدولتين النورية والصلاحية في كتابه (الروضتيــن في اخبار الدولتين) ، ولما تحدث عن دور السلطان نور الدين والسلطان صـــلاح الدين في اسقاطهم للدولة العبيدية بارك لهم دورهم هذا وأنه من خير الأعمال التـي قاموا بها [٢] .

وقد صنف كتابا منفردا في بيان حال العبيديين سماه (كشف ما كان عليــه بنو عبيد من الكفر والكذب والكيد) [٣] ورغم أن الكتاب لم يصل إلينا بعد إلا أنــه يمكن أن نستشف شيئا مما ذكر فيه من خلال كتاب (الروضتين) ، فقد ذكر فيــه إشارات عما يحتويه هذا المصنف من قضايا ، كقضية نسب بنـــي عبيــد وأنـــهم يعودون في نسبهم إلى عبيد الله القداح الملحد المجوسي ، وأن جملة من العلماء قـد أوردوا ذلك وذكر منــهم القــاضي أبــي بكــر محمــد بــن الطيــب البــاقلاني (٤٠٣هـ/١٠٩٢م) [٤] في كتابه (كشف أسرار الباطنيـــة) [٥] والقــاضي عبــد

---

[١] منه نسخة مخطوطة بمركز البحث وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى تحت رقم (٤٦٣) عقيدة .

[٢] أبو شامة : الروضتين ج١ ص(٢٠١،٢٠٢) ج٢ ص(١١٨،١٨٤،٢٠٩،٢١٠،٢١٣،٢١٤،٢١٥) ، تحقيق الزيبق

[٣] نفسه ج٢ ص٢٢٢ ، حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، المطبعة التجارية ، مكة المكرمة ج٥ ص٤٢٦

[٤] محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه رئاسة مذهب المالكية في زمنه ، سكن بغداد ، له المصنفات الكثيرة المشهورة في علم الكلام ، من أشهر كتبه (إعجاز القرآن) ، (كشف أسرار الباطنية) ، ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ص٢١٧، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص٦٠٨ ، ابن فرحون : إبراهيم بن نور الدين المالكي ، الديباج المذهب ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٧هـ ، تحقيق : مأمون الجنان ص ٣٦٣

[٥] لم يصل إلينا هذا الكتاب

الجبار بن أحمد البصري الهمذاني (٤١٥هـ/١٢٢٤م) [١] في آخر كتابه (تثبيت دلائل النبوة) [٢] .

وكذلك الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن أبي نصر الشاش [٣] في كتابه (الرد على الباطنية) [٤] وكتاب في رد نسبهم صنفه الشريف محمد بن علي بن الحسين بن إسماعيل الدمشقي [٥] ثم ذكر نقولات من كتب هؤلاء الأئمة في القدح في نسب العبيديين وما انطوت عليه عقيدتهم من الكفر والإلحاد والضلال ، وما فعله حكام هذه الدولة الخبيثة من العداوة للإسلام وقتل العلماء والفقهاء والمحدثين [٦] وكل هذه الكتب من مصادره في مصنفه المذكور [٧] .

---

[١] عبد الجبار بن أحمد ، أبو الحسن الهمذاني ، من كبار شيوخ الشافعية ، وشيخ المعتزلة في عصره له التصانيف المشهورة في الاعتزال والتفسير وغيرها ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٧ ص٢٤٤ ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٥ ص٩٧ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٨ ص٣١

[٢] الكتاب مطبوع بتحقيق عبد الكريم عثمان ، بيروت سنة ١٩٦٦م .

[٣] لم أقف له على ترجمة

[٤] لم يصل إلينا هذا الكتاب

[٥] محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن جعفر الصادق ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٦ ص(٢٦٩،٢٧٠) .

[٦] أبو شامة : الروضتين ج٢ ص(٢١٤،٢١٥،٢١٦،٢١٧،٢١٨،٢١٩،٢٢٠،٢٢١،٢٢٢،٢٢٣،٢٢٤) تحقيق الزيبق

[٧] نفسه ج٢ ص٢٢٢ تحقيق الزيبق

ثانيا : دور العلماء في مقاومة الفلسفة :

كان من أهم الأسباب التي دعت السلطان صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه إلى الوقوف ضد الأفكار الفلسفية ، هو ما للفلسفة من ارتباط بالفكر الشعبي الباطني [١] وقد استغلت الشيعة الباطنية الفكر الفلسفي لنشر مذهبهم وبدعـــهم وضلالاتـــهم ، واتخذوا من الفلاسفة دعاة لهم ينشرون لهم مناهجهم وأفكارهم ، يقول عبد الله بـــن الحسين القيرواني ، [٢] في وصيته إلى سليمان بن الحسين سعيد الجنابي [٣] « ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه وأوهم كل واحد منهم بأنك منـــهم ... وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به فعلى الفلاسفة معولنا...» [٤]ويقول شيخ الإســـلام ابن تيمية في ذلك : « وكان ابن سينا[٥]وأهل بيته من أهل دعوتهم ، وقال وبسـبب ذلك اشتغلت في الفلسفة »[٦]، ولهذا عرف عن السلطان صلاح الدين الأيوبي كـثرة التعظيم لشعائر الدين وبغضه للفلاسفة والمعطلة والدهرية [٧] وكـــل مـــن يعـــاند

---

[١] حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص٢٧

[٢] لم أقف له على ترجمة

[٣] لم أقف له على ترجمة

[٤] العلوي : يحيى بن حمزه ، مشكاة الأنوار الهادئة لقواعد الباطنية الأشرار، الطبعة الثالثة ، الدار اليمنية للنشر ١٤٠٣هـ ، تحقيق : محمد السيد الجنيدل ، ص٤١ مقدمة الحقوق .

[٥] أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا (٤٢٨هـ/١٠٣٦م) أحد الفلاسفة المشهورين ، والأطباء الكبار ، له مصنفات كثيرة في الطب والفلسفة منها : (كتاب القانون) و (النشاء) ، وكتاب (تقاسيم الحكمة) و (الموجز الكبير في المنطق) ، ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم السعدي ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٩٥م ، تحقيق : نزار رضا ص(٤٣٧،٤٣٨) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص١٥٧ ، البيهقي : ظهير الدين ، تاريخ حكماء الإسلام ، الطبعة الأولى ، مكتبة الثقافة الدينية ١٤١٧هـ ، تحقيق : ممدوح حسن محمد ج٦٥

[٦] الفتوى ج١٣ ص١٧٧

[٧] قال الإمام ابن القيم ــ رحمه الله ــ عنهم : هؤلاء قوم بطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا ما حكاه الله عنهم وقالوا أن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر . الجاثية ٢٤ وقالوا إن دائم لم يزل ولا يزال لا يتغير ولا يضمحل ، وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي فيه ، وهؤلاء هم المعطلة حقا ، وهم فحول المعطلة وقد سرى هذا التعطيل الرسالة فرق المعطلة على اختلاف آراءهم وتباينهم في التعطيل (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان) ج٢١ ص(٣٦٦،٣٦٧) ج١ المكتب الإسلامي بتحقيق محمد عفيفي .

الشريعة [١]. ولعل موقفه من الشهاب السهروردي [٢] أوضح دليل على ذلك ، حيث تذكر المصادر أن السهر وردي كان من أهل الفلسفة متهم بانحلال العقيدة والتعطيل ومعرفة علوم الأوائل [٣] وكان من المقربين للملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين صاحب حلب ، فلما علم الفقهاء [٤] منه ذلك شنعوا عليه وكاتبوا السلطان صلاح الدين بدمشق أن هذا الرجل إن بقي فإنه يخشى أن يفسد اعتقاد ولده الظاهر ، ولابد من قتله دون مراجعة فيه قبل أن يخرج من حلب ، فكتب السلطان إلى ولده الظاهر يأمره بقتله دون مراجعة ، فقام الملك الظاهر بحبسه في قلعة حلب حتى مات ثم أخرج وصلب بعد ذلك [٥] .

ويعلق ابن كثير على هذه الحادثة بقوله : « ... وله من الكتب المشتملة على الفلسفة وعلم الكلام التي ساقه قدر الله بسببها إلى قتله وجعله مثله في الناس يرتدع به كل من على طريقته ومنهجه ، ولو أنه بآثار النبوية والأخبار

---

[١] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٤٢٦،٤٢٩) ، أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، عيون الروضتين في أخبار الدولتين ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، تحقيق : أحمد البيسومي ج٢ ص٣٠٤

[٢] أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي ، شافعي المذهب ، أحد الأذكياء المشهورين برع في علوم عدة وتميز بالفلسفة وعلوم الأوائل ، وذكر عنه أنه كان يعرف علم السيمياء واتهم بالزندقة وسوء العقيدة ، له مصنفات منها ، (التلويحات اللوحية والعرشية) (حكمة الإشراق) (هياكل النور) توفي سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م) أنظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص (٦٤١،٦٤٦) ، الذهبي : العبر ج٣ ص٩٦ ، الدلجي : أحمد بن علي ، الفلاكة والمفلكون ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٣هـ ص ٧٢

[٣] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص (٦٤١،٦٤٦) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ ص (٣٦٨،٢٧٠،٢٧٢،٢٧٣،٢٨٩) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادثحوادث (٥٨١/٥٩٠) ص (٧٤،٨٥،٢٨٥،٢٨٧) ، الأسنوي : جمال الدين عبد الرحيم ، طبقات الشافعية ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ١٤١٦هـ ص٣٩٣

[٤] من هؤلاء العلماء الذين شنعوا عليه وافتوا بقتله الفقيه زين الدين ومجد الدين ابني جهبل كتبوا كتابا بكفره وبعثوا به إلى السلطان صلاح الدين بدمشق ، ابن كثير : اسماعيل بن عمر القرشي ، طبقات الفقهاء الشافعيين ، مكتبة الثقافة الدينية ١٤١٣هـ ، تحقيق : أحمد عمر هاشم وزميله ج٢ ص(٧٣٤،٧٣٥)

[٥] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص(٦٤١،٦٤٦) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ ص (٢٦٨،٢٨٠،٢٧٢،٢٧٣،٢٨٩) ، الذهبي : العبر : ج٣ ص٩٦ ، ابن كثير : اسماعيل بن عمر القرشي ، البداية والنهاية في التاريخ ، الطبعة الأولى ، دار الريان للتراث ١٤٠٨هـ ، تحقيق : أحمد أبو ملحم ، فؤاد السيد وغيرهم ج١٣ ص ٦

المصطفوية المنقولة بالسند الصحيح عن خير البرية لخرج من هذه البلية ، ولرفع يوم القيامة إلى الجنة ، ولكن كان ما وقع به مقدرا وكان على جبينه مسطورا » [١]

وقد كان السلطان العادل أبو بكر ابن أيوب ميالا لأهل العلم من أهل السنة مع حسن العقيدة ، وكارها لأهل البدع والمنكرات في دولته [٢] .

أما في عهد السلطان المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب فقد كثر اشتغال الناس بعلوم الأوائل ، يقول أبو شامة : « وكان اشتهر الاشتغال بعلوم الأوائل بدمشق في أواخر دولة المعظم ابن أبي بكر ، وفي دولة ابنه داود وكثر ذلك حتى أخمده الله بالدولة الأشرفية » [٣] ومما يؤكد ذلك ، أن السلطان المعظم عيسى رغم عدم ميله لسيف الدين الآمدي إلا إنه ولاه التدريس بالمدرسة العزيزية [٤] .

أما السلطان الأشرف موسى بن العادل أبي بكر فكان أكثر سلاطين الدولة الأيوبية تعصبا وشدة على أهل الفلسفة ومنع تعليمها بالمدارس الدمشقية واتخذ لأجل ذلك إجراءات صارمة للحد من انتشار تعليمها داخل مدارس دمشق، حيث أمر منادي أن ينادي في مدارس دمشق أن من درس غير التفسير والفقه والحديث وتعرض للكلام في الفلسفة نفيناه عن دمشق، [٥] ودلل على ذلك بعزله للعلامة الأصولي الفيلسوف سيف الدين الآمدي عن التدريس في المدرسة العزيزية بدمشق[٦] .

---

[١] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٧٣٤، ٧٣٥)

[٢] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث (٦١١/٦٣٠) ص (٢٤٨،٢٤٩) ، الصفدي : تحفة ذوي الألباب ج٢ ص(١٠٤، ١٠٥)

[٣] أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٥٦

[٤] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٩١ ، ابن قاضي شهبة : أبي بكر أحمد بن محمد بن عمر طبقات الشافعية ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ١٤٠٧هـ ، تحقيق : الحافظ عبد العليم خان ج٣ ص(٧٩،٨٠)

[٥] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٩١، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص(٧٩،٨٠)

[٦] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٩١ ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص(٧٩ ، ٨٠) وهناك رواية مفادها أن سبب عزل السيف الآمدي عن التدريس بالمدرسة العزيزية هو أن صاحب آمد كاتبه سنة إحدى وثلاثين وستمائة ويطلب منه القدوم عليه ليوليه قضاء آمد ، فلما أخذ الملك الكامل محمد آمد ولما علم بذلك الأشرف موسى كف يده عن المدرسة وهذا يعني أن السبب كان بدافع سياسي بحت ، القفطي : أبي الحسن علي بن يوسف ، أخبار العلماء بإخبار الحكماء ، دار الآثار للطباعة والنشر ، بيروت ، ابن نظيف : التاريخ المنصوري ص(٢٤٨،٢٤٩) .

ولم يكن نظام المدارس بدمشق يسمح بتعليم الفلسفة ضمن مناهجها فكان شيوخ المدارس يمنعون ذلك ويشددون على طلاب المدارس المشتغلين بها بعدم النظر في كتب الفلسفة ، والمطالعة فيها ، فقد كان القاضي محمد بن علي بن محمد بن يحيى المعروف بابن الزكي (٥٩٨هـ/١٢٠١م) قاضي السلطان صلاح الدين [١] وشيخ المدرسة التقوية [٢] متشددا في موقفه ضد الفلسفة ، فكان ينهي الناس عن الاشتغال بكتب المنطق والجدل داخل المدارس وخارجها [٣] وتذكر المصادر أنه أمر بجمع كتب الفلسفة والمنطق والجدل التي كانت بحوزة الطلاب الساكنين بالمدرسة التقوية ، فأحرقها أمام الناس في مدرسته بالكلاسة وصاحبها حاضر [٤].

وقد كان الإمام المحدث عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان ابن الصلاح (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) أحد أعلام المحدثين في ذلك العصر ، يكره الفلسفة والمنطق ، ولا يمكن أحدا بدمشق من قراءة المنطق والفلسفة [٥]، وكان يناصح السلاطين ويكاتبهم لمنع ذلك فيستجيبون له [٦].

وقد ظهر موقفه من الفلسفة من خلال فتاواه، التي بين فيها مفاسد الفلسفة وآثارها وحكم تعلمها وتعليمها ، حيث سئل الشيخ رحمه الله عن حكم الاشتغال بكتب ابن سينا في الفلسفة والمطالعة فيها مثل كتاب:(تقاسيم الحكمة)(الموجز الكبير في المنطق). أجاب بقوله :«لا يجوز لهم ذلك ومن فعل ذلك فقد غرر بدينه، وتعرض للفتنة العظمى ، ولم يكن من العلماء بل شيطانا من شياطين الإنس » [٧].

---

[١] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص(٢٢٩،٢٣٤)

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ح٣٣ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٣٥

[٣] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص٧٥٧

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٣٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص٣٦ ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص(٣٨،٣٩)

[٥] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص(٨٥٧،٨٥٨)

[٦] الأسنوي : طبقات الشافعية ص٢٦٢

[٧] ابن الصلاح : عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان ، فتاوى ومسائل ابن الصلاح ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٦هـ ، تحقيق : عبد المعطي أمين قلعجي ج٢ ص٢٠٨

وسئل كذلك « فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعليما وتعلما وهل المنطق جملة وتفصيلا مما أباح الشارع تعليمه وتعلمه ؟ وهل الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون والسلف الصالحون ذكروا ذلك ، أو أباحوا الاشتغال به أو سوغوا الاشتغال به أم لا ، وهل يجوز أن يستعمل في إثبات الأحكام الشرعية والاصطلاحات المنطقية أم لا ؟، وهل الاحكام الشرعية مفتقرة إلى ذلك في اثباتها أم لا؟ ، وما الواجب على من تلبس بتعليمه وتعلمه متظاهرا به ، وما الذي يجب على سلطان الوقت في أمره ، وإذا وجد في بعض البلاد شخص من أهل الفلسفة معروف بتعليمها وإقرائها والتصنيف فيها وهو مدرس في مدرسة من مدارس العلم ، فهل على سلطان تلك البلاد عزله وكفاية الناس شره » .

أجاب رحمه الله فقال : «الفلسفة رأس السفه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة ، ومن تلبس بها تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان ، وأي فن أخزى من فن يعمي صاحبه عن نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم كلما ذكره ذاكر وكلما غفل عن ذكره غافل مع انتشار آياته المستبينة ، ومعجزاته المستنيرة ، حتى لقد انتدب بعض العلماء لاستقصائها فجمع منها ألف معجزة وعددناه مقصرا ... أما المنطق فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشر ، شر ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، والسلف الصالحين وسائر من يقتدي به من أعلام الأئمة وسادتها ، وأركان الأمة وقادتها ، وقد برأ الله الجميع من مغرة ذلك وأدناسه ، وطهرهم من أوضاره ... ، فالواجب على السلطان ــ أعزه الله وأعز به الإسلام وأهله ــ أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم ، ويخرجهم من المدارس ويبعدهم ، ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام لتخمد نارهم وتنمحى آثارها وآثارهم ، يسر الله ذلك وعجله ، ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسته من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والإقراء لها ثم سجنه وإلزامه منزله ، ومن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم فإن حاله يكذبه والطريق في

خلع الشر قلع أصوله وانتصاب مثله مدرسا من العظائم جمله ، والله تبارك وتعالى ولي التوفيق والعصمة وهو أعلم » [(١)]

وصنف الإمام الفقيه عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه المقدسي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) كتابا يرد فيه على أهل الفلسفة وعلم الكلام سماه (تحريم النظر في كتب أهل الكلام) [(٢)] تضمن هذا الكتاب الرد على أبي الوفاء على بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي (٥١٣هـ/١١١٩م) [(٣)] الذي اعتنق مذهب المعتزلة لبعض الوقت، وأتى ببعض البدع القبيحة والشناعات الخطيرة ، فرد عليه ابن قدامه وحذر من بدعه كما تضمن الكتاب دعوة من ابن قدامة إلى السير على منهج السلف الصالح في تلقي أمور الدين والعقيدة والالتزام بالكتاب والسنة ، والبعد عن علم الكلام وأهله ، حيث بين أن هذا العلم بدعة وضلالة ، وأورد أقوال السلف في ذمه ، وبين أثره وخطره على المسلمين [(٤)] .

ورغم الموقف المتشدد من الفلسفة من قبل السلاطين والعلماء إلا أنه وجد بدمشق أبان فترة البحث من كان له اهتمام بالفلسفة وعلوم الأوائل تعلما وتعليما وكان لهم الطلبة الذين يترددون إليهم ويقرءون عليهم من هؤلاء ، رجل يقال له الشهاب النقاش (٦٥٦هـ/١٢٢٨م) ، يذكر عنه أبو شامة أنه « كان زنديقا يعرف علم الكلام وطرق الحكماء في إنكار النبوات والإزراء بما أهل الإسلام عليه ، كان يسكن داخل المدرسة النورية بدمشق وله مجلس بالجامع عند باب مشهد علي في قبة يزيد يجتمع عليه جماعة على شاكلته يقرأون عليه» [(٥)].

---

(١) ابن الصلاح : فتاوى ابن الصلاح ج٢ ص (٢٠٩،٢١٠،٢١١،٢١٢)

(٢) الكتاب مطبوع ، تحقيق عبد الرحمن دمشقية سنة ١٤١٤هـ

(٣) أحد أعلام العلماء ، وشيخ الحنابلة في وقته ، المقرئ ، الفقيه ، الأصولي ، الواعظ ، كان عظيم المكان لدى الخلفاء والملوك ، له كتاب (الفنون) في أربعمائة مجلد ، الذهبي : العبر ج٢ ص(٤٠٠،٤٠١) ، ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص (١٤٢،١٦٢) ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٢١ ص(٣٢٦،٣٢٧،٣٢٨)

(٤) الشهراني : منهج ابن قدامة في تقريره عقيدة السلف ج١ ص٥٩

(٥) أبو شامة : ذيل الروضتين ص(٢٠٠،٢٠١)

وتذكر المصادر أن الفخر ابن البديع البندهي (٦٥٧هـ/١٢٥٩م) كان أبوه من تلامذة الفخر الرازي ، وله عناية بالفلسفة وعلوم الأوائل ، وكان يسكن في بعض المدارس ، وقد أفسد عقائد الشباب المشتغلين بالمدارس بما لديه من فكر فلسفي ، حيث كان يجاهر باستنقاص الأنبياء عليهم السلام [1].

وممن ذاع صيته واشتهر بذلك الحسن بن محمد بن نجا الغنوي الأربلي الضرير (٦٦٠هـ/١٢٦١م)[2] الفيلسوف الرافضي[3] من المشهورين بعلوم الفلسفة والكلام وعلوم الأوائل [4] كان الناس يترددون إليه في بيته ، من المسلمين، وأهل الكتاب ، وغيرهم يتعلمون منه الفلسفة وعلم الكلام[5] تذكر المصادر أنه رجع في آخر حياته وتاب ، وفي ساعة موته تلى قوله تعالى : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[6] ثم قال صدق الله وكذب ابن سينا كذب ، ثم خرجت روحه[7].

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٠٢

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص٥٠١

(٣) الذهبي : العبر ج٣ ص٢٩٨، السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر ، بغية الوعاه في طبقات اللغويين والنحاة ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٤هـ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج١ ص٥١٨، الأسنوي : طبقات الشافعية ص١٦٣

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص(١٦٥،١٦٦،١٦٧،١٦٨)

(٥) أبو شامه : ذيل الروضتين ص١٢٦، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص(١٦٥،١٦٦،١٦٧،١٦٨) ، الذهبي : العبر ج٣ ص٢٩٨

(٦) سورة الملك الآية (٨)

(٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص (١٦٦،١٦٧،١٦٨)

ثالثا : دور العلماء في الإنكار على الصوفية :

ظهر الاتجاه الصوفي بدمشق منذ منتصف القـــرن الخـــامس الـــهجري [١] وغدت الخوانق والزوايا تمثل ذلك الاتجاه بشكل واضح [٢] وقد برز هذا الاتجـــاه من خلال عدد من طوائف الصوفية التي تركز نشاطها بدمشق وظهر أثرها علـــى المجتمع الدمشقي ، وعلى الرغم من انحسار نشاط هذه الطوائف وقلـــة تأثيرهـــا بسبب الاتجاه العلمي السني في فترة البحث إلا أنه بقي لها أثرها علـــى المجتمـــع الدمشقي مما اضطر العلماء من أهل السنة إلى الإنكار عليهم والرد على بدعـــهم وتحذير الناس منهم .

وكان من ضمن تلك الطوائف التي ظهر أثرها طائفة القلندريه [٣] ظـــهرت هذه الطائفة بدمشق سنة ست عشرة وستمائة للهجرة [٤] وقد تزعمها بدمشق ، شيخ الطائفة محمد بن جمال الدين السادجي (٦٢١هـــ/١٢٢٤م) حينما قـــدم دمشـــق ، وسكنها وبها تعلم وكان يقيم في زاوية الشيخ عثمان الرومي [٥] بجبل قاسيون ، ثم تركها وأقام بمقبرة باب الصغير ، بالقرب من القبة التي بنيـــت لأصحـــاب هـــذه الطائفة ، وأظهر أتباع هذه الطائفة بعض البدع والأعمال المخالفة للشرع [٦] .

وقد غادر السادجي دمشق ورحل إلى دمياط وبقي بها إلى حين وفاتـــه [٧] وقد خلفه في مشيخة هذه الطائفة بدمشق جلال الدين الدركزيني ، ثم محمد البلخي خلال حكم المماليك [٨] .

---

[١] النعيمي الدارس ج٢ ص١٦٤

[٢] نفسه ج٢ ص(١٣٩،٢٢٠)

[٣] تعني بالعربية (المحلقين) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث (٦٢١/٦٣٠) ص٣٩٨

[٤] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث (٦٢١/٦٣٠) ص(٣٩٧،٣٩٨)

[٥] هو عثمان بن علي الرومي الزاهد صاحب الزاوية المشهورة بدمشق في سطح جبل قاسيون انظر ترجمة ابنه ، الذهبي : العبر ج٣ ص ، ابن العماد : أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الكتب العلمية بيروت ج٥ ص٣٩٨ ، يذكر الصفدي أن الصوفية من أتباع عثمان الرومي دخلوا على السارجي واتباعه وهم في قبتهم فسبوهم وقبحوا ما هم عليه من الأعمال فلم يردوا عليهم بشيء ، الوافي بالوفيات ج٥ ص (٢٩٢،٢٩٣)

[٦] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث (٦٢١/٦٣٠) ص(٣٩٧،٣٩٨)

[٧] نفسه ص (٣٩٧،٣٩٨)

[٨] نفسه ص ٣٩٨

وكان موقف السلطان الكامل محمد موقفا حازما من هذه الطائفة وغيرها من طوائف الصوفية المبتدعة ، حيث تذكر المصادر أنه لما دخل السلطان الكامل محمد دمشق سنة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) نفى شيوخ هذه الطائفة وأتباعها إلى خارج دمشق [١] نفاهم إلى قصر الجنيد [٢] .

ومن تلك الطوائف طائفة اليونسية ، يقول الذهبي عنهم : (وهم من شر الطوائف ولهم أعمال تدل على الاستهتار والانحلال في القول والفعل [٣] وقد تزعم هذه الطائفة شيخها يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني المخارقي المشرقي القيني (٦١٩هـ/١٢٢٢م)[٤] وقد ذكر الذهبي أن شيخ الإسلام ابن تيمية كان ينشد له [٥]:

موسى على الطور لما خر لي ناجى

واليثربي أنا جبتوه حتى جا

يقول الذهبي : « وأما البيت السابق فإن كان قاله على لسان الربوبية فهذا قريب وأما إن كان قصد به نفسه فهذه زندقة عظيمة » [٦] وقد وصفه الذهبي أنه ليس من أهل العلم بل من أهل الحال والكشف عاريا عن الفضيلة [٧] .

وأخطر طوائف الصوفية التي ظهرت بدمشق في فترة البحث طائفة الحريرية ، وهي التي تنسب لعلي بن الحسن بن منصور الحريري (٦٤٥هـ/١٢٤٧م) قدم دمشق وبرع في صناعة الحرير ثم تزهد وظهرت له أحوال ومكاشفات ، ردها أكثر العلماء المعاصرين له وقالوا أنها من المكاشفات الشيطانية [٨] كان يقيم في زاوية خاصة به في دمشق وقد تبعه جماعة من الفقراء

---

[١] الذهبي : العبر ج٣ ص٢٢٢

[٢] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث (٦٢١/٦٣٠) ص(٣٩٧،٣٩٨)

[٣] نفسه ص(٤٢٤،٤٢٥)

[٤] نفسه ص ٤٢٤

[٥] نفسه ص ٤٢٥

[٦] نفسه ص ٤٢٥

[٧] نفسه ص ٤٢٥

[٨] الذهبي : العبر ج٣ ص٢٥٢ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص١٣٧

سموا أنفسهم بالحريرية ، جعلوا لهم لباسا خاصا بهم ، سماه أبو شامة « لباس خارج عن الشريعة » [١] .

يقول أبو شامة عن الحريري وأصحابه :« وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة والتهاون بها من إظهار شعار أهل الفسق والعصيان شيء كبير وانفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء دمشق ، وصاروا على زي أصحابه وتبعوه بسبب أنه خليع العذار ، ويجمع مجلسه الغناء الدائم والرقص والمردان ، وترك الإنكار على أحد فيما يفعله ، وترك الصلوات ، فأضل خلقا كثيرا وأفسد جما غفيرا» [٢] .

ومن أقوال الحريري التي بلغت العلماء قوله : « لو دخل مريدي بلد الروم ، وتنصر وأكل لحم الخنزير ، وشرب الخمر كان في شغلي » [٣] وقوله :« لو ذبحت بيدي سبعين نبيا ما اعتقدت أني مخطئ » [٤].

ومن قوله نظما :

أمرد يقوم مداسي	أخير من رضوان
وربع قحبة عندي	أحسن من الأكوان

وقوله :

كم يتعبني بصحبة الأجساد	كم يسهرني بلذة الميعاد
جد لي بمدامة تقوي رمقي	والجنة جد بها على الزهاد [٥]

وقد أنكر العلماء عليه أقواله إنكارا شديدا وبينوا زيغ وانحراف هذه الطائفة ، من هؤلاء العلماء ، الشيخ المحدث تقي الدين بن الصلاح وأبو عمر بن الحاجب والشيخ العز بن عبد السلام وغيرهم [٦] وقد رفع العلماء أمره إلى السلطان الملك

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٨٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٨٥

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٨٠

[٣] الذهبي : العبر ج٣ ص٢٥٢ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص (١٧٣،١٧٤)

[٤] الذهبي : العبر ج٣ ص٢٥٢ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص (١٧٣،١٧٤)

[٥] الذهبي : العبر ج٣ ص٢٥٢ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص (١٧٣ ، ١٧٤)

[٦] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٨٠

الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب ، وقد افتى بعض العلماء بقتله ولم يقتله الأشرف بل أمر بسجنه في قلعة (عزتا) [١] واستمر في السجن عدة سنوات، حتى أطلقه الملك الصالح إسماعيل واشترط عليه أن لا يقيم بدمشق [٢]. وكان من أشهر اتباع هذه الطائفة نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل بن خضر بن اسرائيل الشيباني الدمشقي (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) الذي برع في الأدب والشعر وقد ظهر من خلال شعره أنه من أصحاب فكرة الحلول والاتحاد [٣].

ومن المنكرين على هذه الطائفة محمد بن علي الحريري (٦٥١هـ/١٢٥٣م) ابن مؤسسها كان ينكر على والده وأصحابه ما كانوا عليه من الأعمال المخالفة للشريعة ويأمرهم باتباع السنة [٤] ومن ضمن طوائف الصوفية بدمشق طائفة الرفاعية [٥] الواسطية[٦] تزعم هذه الطائفة الشيخ طالب بن عبدان بن فضائل الرفاعي [٧] صاحب الزاوية المشهورة [٨] التي بقصر حجاج بدمشق ، كان له أصحابه ومريدوه يجتمعون به في تلك الزاوية [٩] . وذكر اليونيني في ترجمته لطالب بن عبدان الرفاعي ، أن الشيخ الفقيه موفق الدين عبد الله بن محمد بن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) دخل على الرفاعي زاويته ، واستحسن ما هو عليه وأصحابه من طريقة وما يقومون به من الغناء والرقص والتواجد ، وذكر أنه أنشد في حضرة الشيخ أبياتا فوافقه عليها منها :

---

(١) عزتا : موضع قرب عين الفيجه التي تبعد عن دمشق أربعة وعشرون كيلو مترا غربا ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ص٣٥٦ حاشية رقم (٦) ، كرد علي : غوطة دمشق ص٨٧ حاشية رقم (١)

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٨٥ ، الذهبي : العبر ج٣ ص٢٥٢ ، ابن الوردي : تتمة المختصر

(٣) الذهبي : العبر ج٢ ص٣٣٦ ، ابن دقماق : إبراهيم بن محمد بن أديمر، نزهة الأنام في تاريخ الاسلام، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، تحقيق : سمير طباره ص ١٢٦

(٤) النعيمي : الدارس ج٢ص١٩٩ ، بدارن : عبد القادر ، منادمة الأطلال ، الطبعة الثانية ، المكتب الإسلامي ١٤٠٥هـ إشراف زهير الشاويش ص٣٠١

(٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٤ ص (٢١٤،٢١٥)

(٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨

(٧) نفسه ص ١٩٨

(٨) النعيمي : الدارس ج٢ ص٢٠٤

(٩) أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨

إن أنكــرت أهــل الشــريعة كلـــها أمــر الســماع فــــإنني لمحلـــه
أو أغمـــدوه بسـيف ســنه أحمـــد إنـــي ببدعـــة حبكـــم سأســـله
والله لـــو ســمحت عليـك بنظـــرة لتزعزعت أركـــان جســمك كلـــه[(١)]

ويبدو أن هذه الرواية يشوبها الكثير من الشك ، وذلك لأن موقـف الشـيخ الموفق من الصوفية وطرقها وبدعها واضح من خلال جهوده في الإنكار عليـهم وما صنفه في ذلك من الكتب والرسائل [(٢)] .

وقد كان من مشاهير شيوخ هذه الطريقة وهي تنسب إليه أحيانـا ، الشـيخ يوسف الواسطي الأعرج (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) أحـد مشـائخ القـراءات بالتربـة الأشرفيه [(٣)] ومن مشائخ طرق الصوفية بدمشق الشيخ يوسف بن يعقوب بن بعيش أبو المحاسن جمال الدين السـلمي المعـري (٦٨٠هـ/١٢٨١م) أحـد مشـائخ المغارة[(٤)] التي بسفح جبل قاسيون المعروفة (بالعزيزية) ، يجتمـع بـه الطلبـة والمريدون بها ، وكان له دراية بالكتب الصوفية المشهورة مثـل كتـاب (خلـع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين) لابن قسي [(٥)] وقد كان يقوم بشرح هـذا الكتاب على طلابه ومريديه بدمشق [(٦)] .

أما الصوفية المتأثرة بالفلسفة فإن ظهورها كان مرتبطا بدخول الشيخ محمد بن علي بن محمد بن عربي [(٧)](٦٣٨هـ/١٢٤٠م) إلى دمشـق وتولـى نشـرها

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٤ ص (٢١٤،٢١٥)

(٢) سوف يأتي الحديث عنه قريبا .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨

(٤) لم أجد لها ذكرا فيما وقع بين يدي من المصادر .

(٥) هو أبوالقاسم أحمد عيسى الأندلسي ، أحد مشائخ الصوفية في زمنه توفي سنة (٥٤٥هـ/١١٥٠م) ، انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ج١ ص٥٥٤

(٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٤ ص(١٤٠،١٤١)

(٧)) محي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد الطائي الندلسي الصوفي ، ولد بمرسيه سنة سبع وخمسمائة للهجرة ونشأ بها ثم انتقل إلى إشبيلية ، وتعلم بها ورحل إلى بلاد المشرق فدخل مصر وبغداد وحج إلى مكة وتعلم بها ، ثم أخرج من مصر إلى دمشق واستقر بها حتى وفاته ، له مصنفات كثيرة في متون عدة من أشهرها في الصوفية كتاب (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم) ، الذهبي : العبر : ج٣ ص٢٣٣ ، الشعراني : الطبقات الكبرى ج١ ص١٨٨

والدعوة إليها من خلال كتبه ومصنفاته [١] ولعل الموقف المتشدد من الفلسفة خلال فترة الحكم الأيوبي كانت السبب في عدم انتشار الصوفية الفلسفية بدمشق بشكل بارز ، تلك الفلسفة التي تزعمها ابن عربي في آخر فترة من حياته التي قضاها بدمشق [٢].

وعلى الرغم من ذلك فقد تخرج على يد ابن عربي تلامذة حملوا فكره وشرحوا كتبه ونشروها في البلاد بعد ذلك [٣].

بقي أن نشير هنا إلى بعض العلماء الذين كانت لهم جهود في الإنكار على الصوفية والرد عليهم من خلال تصنيف الكتب والرسائل ، نذكر منهم الفقيه العلامة موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامه المقدسي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) الذي صنف كتابا في الرد عليهم سماه (ذم ما عليه مدعو التصوف) [٤] والكتاب هو رد على سؤال ورده في حكم ما يفعله بعض المتصوفة من الأعمال المنافية للشرع ، وهذا نص السؤال «ما تقول السادة الفقهاء ــ أحسن الله توفيقهم فيمن يسمع الدف والشبابة والغناء ويتواجد حتى أنه يرقص، هل يحل ذلك أم لا ؟ مع اعتقاده أنه محب لله وأن سماعه وتواجده ورقصه في الله »[٥].

وقد رد رحمه الله على هذا السؤال بذم ما يفعله هؤلاء من الأعمال المخالفة للشرع والبدع التي استحدثوها ، وأنها معصية لله ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال : (إن فاعل هذا مخطئ ساقط المروءة ، الدائم على هذا الفعل مردود الشهادة في الشرع ، غير مقبول القول ومقتضى هذا : أنه لا تقبل روايته لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا شهادته برؤية هلال رمضان ولا أخباره

---

[١] الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ ص (١٧٣،١٧٤،١٧٥)

[٢] نفسه ص(١٧٤،١٧٥)

[٣] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص(٤١٩،٤٢٠) ، الذهبي : العبر ج٣ ص(٢٦٥،٣٧٢،٢٧٣) ، الشعراني : الطبقات الكبرى ص(٢٠٣) ، ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص (١٩٦

[٤] الكتاب مطبوع تحقيق زهير الشاويش ، الطبعة الثالثة ، المكتب الإسلامي (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)

[٥] ذم ما عليه مدعو التصوف ص٥

الدينية أما اعتقاده محبة الله عز وجل ، فإنه يمكن أن يكون محبا لله سبحانه ، مطيعا له في غير هذا ، ويجوز أن يكون له معاملة مع الله سبحانه ، وأعمال صالحة في غير هذا المقام » [١].

ومن المنكرين على الصوفية الحافظ المحدث أحمد بن عيسى بن عبد الله ابن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) رد على محمد بن طاهر المقدسي (٥٠٧هـ/١١١٣م) [٢] في إباحته للسماع المحدث وعلى مواضع من كتابه (صفوة أهل التصوف) [٣].

وللإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي المعروف بالضياء (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) رسالة في الرد على بعض البدع عند الصوفية سماها : (اتباع السنن واجتناب البدع) وقد قسم رسالته هذه إلى ثمانية أبواب هي على النحو التالي :

الباب الأول : الأمر باتباع السنن واجتناب البدع .

الباب الثاني : افتراق الأمم وظهور البدع .

الباب الثالث : في تعظيم مس إمرأة غيره .

الباب الرابع : ذكر أن زنا العينين النظر .

الباب الخامس : كراهية النظر إلى الأحداث .

الباب السادس : ما كره من الغناء .

الباب السابع : ما كره من المزمار والطبل .

الباب الثامن : ما يكره من الرقص [٤] .

---

[١] ذم ماعليه مدعو التصوف ص٦

[٢] هو محمد بن طاهر بن علي بن أحمد أبو الفضل المقدسي ، الحافظ المحدث ، ولد سنة (٤٤٨هـ/١٠٥٦م) وكان من حفاظ الحديث ، توفي سنة (٥٠٧هـ/١١١٣م) صنف في التصوف (صفوة أهل التصوف) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص(٤٩،٥٠)

[٣] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٢ ص٢٤١ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ج٢ ص١٠٢

[٤] يوجد منه نسخة خطية بمكتبة الحرم المكي برقم ١١٢٢ عدد أوراقها (١٠ ورقات)

وهكذا يتبين لنا من خلال ما تقدم دور العلماء البارز في الرد على أهل البدع والتيارات الضالة وما لجهودهم من أثر بالغ في مقاومة البدع والحد من خطرها ، وما نتج عن ذلك من نشاط في حركة التأليف والتصنيف في هذا العصر.

المبحث الثاني : دور العلماء في الوحدة الإسلامية والجهاد ضد الصليبيين

لم يقتصر دور العلماء على التعليم والتأليف في فنون العلم ، بل كان العلماء العاملون يتفاعلون مع قضايا أمتهم ومجتمعهم ، ولقد حدث في عصر الدولة الأيوبية حدث من أكثر الأحداث خطرا على الأمة الإسلامية ، إذ استفحل فيه الغزو الصليبي ضد مقدسات المسلمين وبلغ الجهاد ضده ذروة سنامه ، فكان على العلماء واجب كبير في تحمل مسئوليات جسام ، لدفع هذا العدو بشتى الوسائل .

ونحاول هنا أن نبرز دور العلماء الدمشقيين في الوحدة الإسلامية ونجاح الجهاد ، وتحرير المسجد الأقصى ، ثم عملهم بعد ذلك في إبقاء الجبهة الإسلامية متماسكة تؤدي دورها لصد الحملات الصليبية المتكررة على بلاد الشام ومصر ، ويمكن بيان ذلك الأدوار من خلال ما يلي :

أولا : جهودهم في الوحدة الإسلامية والجهاد حتى استرداد بيت المقدس .

ثانيا : جهودهم في الحفاظ على الوحدة الإسلامية والحث على الجهاد بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي .

ثالثا : جهودهم في تصنيف الكتب التي تناولت الجهاد وفضله ، وفضائل الشام وبيت المقدس ، والتأليف في السياسة الشرعية ونظام الحكم .

أولا : جهود العلماء في الوحدة الإسلامية والجهاد حتى استرداد بيت المقدس :

لم تقم الدعوة إلى الجهاد ضد الصليبيين إلا على أكتاف العلماء باستنهاض همم الحكام والسلاطين للجهاد في سبيل الله ، وتحرير البلاد الإسلامية ، ففي السنة التي دخل فيها الفرنج بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس وعاثوا فيها فسادا ، بالقتل والنهب والتشريد [١] خرج أهل دمشق يستنفرون الخليفة العباسي وقادهم

---

[١] ابن الأثير : الكامل ج٨ ص١٨٩ ، سبط بن الجوزي مرآة الزمان ج١ص(٣٢٣،٣٢٤،٣٢٥) ، تذكر المصادر أن الفرنج لما دخلوا بيت المقدس قتلوا داخل المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا معظمهم من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم والمجاورين ، وقتلوا الشيوخ وسبوا النساء ، وأخذوا الذهب والفضة التي في الصخرة ، وخرج الناس هاربين إلى الشام والعراق وغيرها من البلاد ، ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ١٨٩ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج١ ص (٣٢٣،٣٢٤) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص١٦٦

قاضي البلدة الفقيه زين الدين أبي سعد محمد بن نصير بن منصور الهروي (٥١٩هـ/١١٢٥م) [١] ودخلوا إلى ديوان الخلافة ، وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا ، وقام القاضي في الديوان وأورد كلاما أبكي الحاضرين[٢] ، فندب الخليفة الفقهاء الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد ، فخرج الشيخ أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي (٥١٣هـ/١١١٩م) [٣]وغيره من أعيان الفقهاء فساروا في الناس يحرضون على الجهاد فلم يفد ذلك شيئا[٤]. ويصور موقف المسلمين المتخاذل في هذه الفترة ، ما قاله الشاعر أبو المظفر الأبيوردي[٥] في قصيدته التي يقول فيها:

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم

فإيها بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم

يجيب السيوف البيض محمرة الظبى ... وسمر العوالي داميات اللهازم

وبين اختلاف الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القوادم

وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشائم

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى ... رماحهم والدين واهي الدعائم

---

(١) أحد مشاهير الفقهاء ، ومن رجال العلم والسياسة والقضاء ، تولى القضاء ببغداد ودمشق قتلته الباطنية هو وولده بهمذان ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ١١٥ ، الأنصاري : موسى بن يوسف ، نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٩١م ، حققه : عدنان محمد إبراهيم ص(٢٧١،٢٧٢) ، الزركلي : خير الدين ، الأعلام ، الطبعة الثامنة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٩م ج٧ ص١٢٥

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج١ ص (٣٢٧،٣٢٨،٣٢٩)

(٣) سبقت ترجمته ص٨١

(٤) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص١٨٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص ١٦٧

(٥) محمد بن أحمد بن محمد الأبيوري ، أقام ببغداد زمنا طويلا وهو أحد شعراء البلاط العباسي ، كان فاضلا في العربية والعلوم الأدبية ، ينتهي نسبه إلي بني أمية ، توفى سنة ٥٠٧هـ له من المصنفات كتاب(الطبقات)، وكتاب (المختلف والمؤتلف) ، انظر ابن الجوزي : المنتظم ج٩ ص (١٧٦،١٧٧) ، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص ٤٤٤

ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويفضى على ذل كماة الأعاجم

فليتهم إذ لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

وإن زهدوا في الأجر إذ حمى الوغى ... فهلا أتوه رغبة في الغنائم [(١)]

وعندما هاجم الفرنج دمشق سنة (٥٢٣هـ/١١٢٨م) أرسل صاحب دمشق الشيخ عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي (٥٣٦هـ/١١٤١م) [(٢)] إلى الخليفة العباسي المسترشد يستنجده على قتال الفرنج ، فوعده بالانجاد [(٣)]

ومن هؤلاء العلماء الدمشقيين الشيخ ابو الحسن على بن المسلم الدمشقي (٥٣٣هـ/١١٣٨م) [(٤)] ، فقد كانت أغلب دروسه في الجامع الأموي تتحدث عن

---

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج١ ص(٣٢٩،٣٢٧) ، ابن الأثير : الكامل ج٨ ص١٨٩ ، ومن أفضل ما قبل في وصف الحالة التي كانت عليها بلاد الشام إبان دخول الفرنج إليها قول أحد الشعراء:

أحل الكفر بالإسلام ضيماً ... يطول عليه للدين النحيب

فحق ضائع وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب

وكم من مسلم أمسى سليباً ... ومسلمة لها حرم سليب

وكم من مسجد جعلوه ديراً ... على محرابه نصب الصليب

دم الخنزير فيه لهم خلوق ... وتحريق المصاحف فيه طيب

أمور لو تأملهن طفل ... لطفل في عوارضه المشيب

أتسبى المسلمات بكل ثغر ... وعيش المسلمين إذا يطيب

أما لله والإسلام حق ... يدافع عنه شبان وشيب

فقل لذوي البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج١ ص (٣٢٩،٣٢٨،٣٢٧) ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص١٥١ .

(٢) فقيه واعظ مفسر ، كان شيخ الحنابلة بالشام في عصره ، وكانت له مجالس علم في الجامع الأموي ، بنى للحنابلة مدرسة بدمشق عند باب الفراديس ، ابن القلانيسي : ذيل تاريخ دمشق ص (٤٣٠،٤٢٩) ، الذهبي : العبر ج٢ ص ٤٥١ ، وابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص (٢٠١،٢٠٠،١٩٩) ، ابن الجوزي : المنتظم ج١٠ ص١٣ .

(٣) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص (٢٠١،٢٠٠،١٩٩) ، العليمي : المنهج الأحمد ج٢ ٢٩٠

(٤) من العلماء المشاهير والفقهاء الكبار ، خلف الإمام الغزالي وابو نصر المقدسي في دمشق ، ودرس بالزاوية الغزالية ، والمدرسة الأمينية ، وكانت تأتيه الفتاوى من جميع البلاد ، صنف في الفقه والتفسير ، ابن القلانيسي : ذيل تاريخ دمشق ص٤٢٤ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (١٧١،١٧٠) ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص(٢٣٦،٢٣٥) ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٢٢ ص١٩٥

الجهاد في سبيل الله وفضله وعظيم أجره ، وقد صنف في ذلك كتابا في إثني عشر جزءا أسماه (كتاب الجهاد) [١] ، ذكر فيه معارك الإسلام الأولى ودور المجاهدين ، والآيات والأحاديث التي تحض على الجهاد في سبيل الله وتبيين مكانة المجاهدين الأوائل ، ثم شرح فيه أهداف الاحتلال الصليبي ، وأنه يأخذ خطوطا ثلاثة كان هو أول من ذكر ذلك ــ منها ما هو موجه إلى بلاد الأندلس ، ومنها ما هو موجه إلى صقلية وإفريقيا ، ومنها ما هو موجه إلى بلاد الشام [٢] .

وقد أشار إلى ذلك من خلال خطبه التي كان يلقيها في الجامع الأموي يحث فيها على الجهاد ، نذكر منها قوله : «.. لم يزل الأمر كذلك ــ أي مواصلة خلفاء المسلمين الجهاد ــ إلى الوقت الذي تركه بعض الخلفاء لضعفه وقصور يده ثم اتبعه على ذلك غيره للسبب المذكور ... فشتت الله شملهم وخالف بين كلمتهم وألقى العداوة والبغضاء بينهم ، واطمع أعداءهم في انتزاع بلادهم من أيديهم ، فوثبت طائفة على جزيرة صقلية ــ يقصد غزو الرومان لها ابتداء من عام ٤٥٤هـ إلى أن احتلوها بالكامل عام ٤٨٤هـ ، على حين تباين وتنافس ، وتملكوا بمثل ذلك بلدا بعد بلد في الأندلس ، ولما تناحرت الأخبار عندهم بما عليه هذه البلاد ــ يقصد بلاد الشام ــ من اختلاف أربابها وتفرق أكابرها مع اختلالها واضطرابها ، أمضوا عزائمهم على الخروج إليها ، وكانت القدس مهائر أمانيهم منها ، فأشرفوا من بلاد الشام على ممالك متفرقة وقلوب غير متفقة وآراء متباينة ... فقويت بذلك أطماعهم ولم يزالوا دائبين في جهاد المسلمين ، والمسلمون متثاقلون عن حربهم ، وهم في لقائهم متواكلون حتى تملكوا في البلاد ما لم تنته إليه غاية آمالهم ، وبلغوا أضعاف ما أرادوه والله بكرمه يخيب ظنونهم باجتماع الكلمة وانتظام شمل الأمة إنه قريب مجيب » [٣] .

---

[١] منه أربعة أجزاء في المكتبة الظاهرية في دمشق برقم (٣٧٩٦) عام

[٢] الحلواني : أحمد عبد الكريم ،ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبين ، دار الفداء للدراسات والنشر والتوزيع ، دمشق ص (٤٠،٤١)

[٣] نفسه ص (٤٠،٤١) .

وهي نظرة ثاقبة من هذا العالم الجليل في أن أسباب ذهاب بلاد المسلمين ما هي الفرقة والاختلاف والضعف والتخاذل عن الجهاد في سبيل الله ، وهي دعوة منه إلى الوحدة الإسلامية، ولم الشمل وجمع الكلمة والجهاد في سبيل الله ، فكانت دعوته هذه مواكبة للعمل الذي كان يسعى إليه السلطان عماد الدين زنكي في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية إدراكا منه أنه ليس بالإمكان طرد الغزاة إلا بتوحيد بلاد الشام والجزيرة في قوة موحدة تقف في وجه الصليبيين . [١]

وقد برز دور عالم آخر ، هو القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري (٥٧٢هـ/١١٧٦م) الذي كانت تربطه بالسلطان عماد الدين زنكي علاقة قوية ، فكان له دوره في الوحدة الإسلامية والجهاد ، فحينما أرسله السلطان عماد الدين زنكي إلى السلطان مسعود بن محمد السلجوقي حينما هاجم الصليبيون والبيزنطيون بلاد الشام ، يطلب النجدة لصد هجومهم ، وكان كمال الدين الشهرزوري قد نبه السلطان عماد الدين إلى أثر استنجاده بالسلطان السلجوقي على مستقبل ممتلكاته في بلاد الشام والجزيرة ، فرد عليه عماد الدين بقوله : « إن هذا العدو قد طمع في البلاد وإن أخذ حلب ، لم يبق بالشام إسلام وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار » [٢] ، عندها خرج القاضي كمال الدين الشهرزوري طالبا بغداد ، ومثل أمام المسلمين وأدى رسالة عماد الدين بإنفاذ العساكر ، فوعده السلطان بإرسال النجدة إليه ، يقول القاضي كمال الدين الشهرزوري : « فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلانا : وهو فقيه كان ينوب عني في القضاء فقلت له : خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر فقم وأنت معهم واستغيثوا بصوت واحد: (وا إسلاماه) فخرجوا من الجامع وقصدوا دار السلطان مستغيثين ، ثم وضعت إنسانا آخر فعل ذلك في

---

[١] عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ، طبعة بيروت ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م ، الغامدي : مسفر سالم ، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر ، جده ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م ص (١٨٦،١٨٨) .

[٢] ابن الأثير : التاريخ الباهر ص٦٣

جامع السلطان ، فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه ، وألقى عمامته عن رأسه ، وصاح وتبعه ذلك بالصياح والبكاء ، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى ، وبطلت الخطبة ، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان ، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، فاجتمع اهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الأمر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره ، وقال ما الخبر فقيل : ان الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة ، فقال : احضروا القاضي ابن الشهرزوري قال فحضرت عنده وأنا خائف منه ، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق ، فلما دخلت قال : (يا قاضي ما هذه الفتنة ؟) فقلت : إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر ، ولا شك أن السلطان لم يعلم كم بينه وبين العدو وإنما بينكم نحو أسبوع وعظم الأمر فقال السلطان : (أردد هؤلاء العامة عنا ، وخذ من العسكر ما شئت والإمدادات تلحقك) يقول كمال الدين : فانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس من خيار العسكر ، وسار بهم إلى نجدة عماد الدين في بلاد الشام ، فوصلت الأخبار من بلاد الشام بعودة البيزنطيين والصليبيين عن حلب ، فطلب السلطان عماد الدين من الشيخ كمال الدين رد العساكر فرجعت إلى بغداد » [١] . والمتأمل لهذا الدور الذي قام به القاضي كمال الدين الشهرزوري في سبيل نجدة عماد الدين وتعريض نفسه للمخاطر ، والعمل من أجل وحدة الصف الإسلامي ، يدرك عظيم المهمة التي قام بها وقد أشاد بذلك ابن الأثير بقوله « انظروا إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس » [٢] .

وقد أدرك علماء العصر أن من لوازم بناء الوحدة السياسية ، بناء الوحدة الفكرية المبنية على منهج أهل السنة ، فحينما استولى السلطان نور الدين محمود بن زنكي على دمشق سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م) [٣] وصل إليه كتاب من الوزير

---

[١] ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص (٧٩،٨٠،٨١) ، ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٦٠ ، الغامدي : عبد الله بن سعيد ، القاضي كمال الدين الشهرزوري حياته ودوره في الحياة العامة ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة للطباعة ، مكة المكرمة ١٤١٥هـ ص (٣٠،٣١،٣٢)

[٢] ابن الأثير : الباهر ص٦٧

[٣] انظر الفصل الأول الأوضاع السياسية.

العباسي العالم يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة (٥٥٥هـ/١١١٠م) [١] يستحثه على انتزاع مصر من يد العبيديين [٢] .

ودعوة ابن هبيرة هذه توضح أنه لا يمكن توحيد القوى العسكرية لقتال الفرنج واسترداد الأراضي الإسلامية في ظل اختلاف المذهبين ، السني الذي تمثله الخلافة العباسية والدولة النورية ، والمذهب الإسماعيلي الباطني والذي تمثله الدولة العبيدية في مصر .

فلما تمكن السلطان نور الدين من بسط نفوذه على مصر كتب إلى السلطان صلاح الدين بإعلان الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بنور الله ، معلناً بذلك سقوط الدولة العبيدية ، وقد تردد صلاح الدين في ذلك ، وكان الذي جرأه هو الشيخ محمد بن الموفق بن سعيد بن علي الخبوشاني (٥٨٠هـ/١١٨٤م) [٣] وكان أول ومن خطب بها للخليفة العباسي هو الشيخ محمد بن الحسن بن الحسين بن أبي المضاء السكيكي (٥٧٢هـ/١١٧٦م) [٤] ، ويذكر ابن واصل أنه لما أمر السلطان نور الدين محمود صلاح الدين الأيوبي أن يلغي الخطبة عن العاضد ، ويخطب للخليفة العباسي ، استشار الأمراء في ذلك ، فترددوا ، ويذكر أنه دخل إلى ديار مصر رجل أعجمي يقال له الأمير العالم ، فقال « أنا أبتدئ بها » فلما كان يوم الجمعة صعد المنبر قبل الخطيب ، ودعا للخليفة العباسي ، فلم ينكر عليه أحد ، ثم خطب بعدها في سائر الأقاليم . [٥]

---

[١] وزير عباسي : علام دخل بغداد واشتغل بالعلم على مذهب الإمام احمد بن حنبل رحمه الله وتقدم في فنون العلم وتقلد الوزارة فكان أشهر الوزراء في البلاط العباسي ، صنف كتبا منها (الإيضاح عن معاني الصحاح) و(المقتصد) ، واختصر كتاب (اصلاح المنطق) لابن السكيت ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ص(٣٣٠،٣٣٣،٣٣٤) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٢٥٥، مريزن عسيري : الوزير العالم يحيى بن هبيرة الشيباني مجلة جامعة الإمام عدد١٧

[٢] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٣ص٢٥٨ ، العليمي : المنهج الأحمد ج١ ص(٣٣٧،٣٣٨) ، وانظر ما ذكره أبو شامة في قصة المنام الذي عبره ابن هبيرة حول ذلك وكاتب بعدها السلطان نور الدين في اسقاط الدولة العبيدية ، الروضتين ج٢ ص٢٠٠

[٣] ابن قاضي شهبه : طبقات الشافعية (ج٣ ص (٢٤،٢٥)

[٤] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص ٧٠٤ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص٤٦٢

[٥] ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص (٢٠٠،٢٠١) .

وقد أسهم القاضي الواعظ زين الدين علي إبراهيم بن نجا (٥٩٦هـ/١٢٠٢م) في كشف المؤامرة التي دبرها بعض أفراد القصر العبيدي [١] بهدف قتل صلاح الدين وإعادة الدولة العبيدية ، فكشف أمرهم إلى السلطان صلاح الدين فأمر بقتلهم وصلبهم [٢] .

ولقد تميزت سياسة السلطان نور الدين محمود بالحكمة والعدالة وحبه للجهاد في سبيله الله ووضوح منهجه بين العلماء والعامة ، والتفاف نخبة من العلماء الكبار حوله ، فكان الحافظ المحدث على بن الحسين بن عساكر (٥٧١هـ/١١٧٥م) من أوائل العلماء الذين التقى بهم نور الدين محمود بدمشق ، وكان السلطان نور الدين يواظب على حضور مجالسه العلمية ، وبنى له بدمشق دارا للحديث ، فتولى ابن عساكر التدريس بها وقويت العلاقة بينهما ، وكان السلطان يدرك مكانته في دعوة الناس إلى الجهاد من خلال دروسه العلمية ومؤلفاته في هذا الجانب [٣] فقد صنف ابن عساكر كتبا في فضل الجهاد ، وفضل بيت المقدس ، منها كتاب (أربعون حديثا في الحث على الجهاد) و (الزهادة في طلب الشهادة) و (فضل بيت المقدس) و (فضل عسقلان) وكتاب (الاجتهاد في إقامة فرض الجهاد) [٤] .

أما كتاب (أربعون حديثا في الحث على الجهاد) فما هو إلا استجابة من ابن عساكر لطلب من السلطان نور الدين محمود في أن يجمع له كتابا في الجهاد فجمع له كتابا سماه (أربعون حديثا في الحث على الجهاد) ذكر في أوله أنه صنفه بطلب من السلطان نور الدين حيث يقول : أما بعد : « فإن الملك العادل الزاهد المجاهد المرابط ، وفقه الله للمداد وأعانه على القيام بمصالح العباد وأمده

---

[١] منهم عمارة اليمني الشاعر ، وداعي الدعاة عبد الجبار بن اسماعيل بن عبد القوي ، والقاضي المفضل ضياء الدين نصر الله بن كامل ، والقاضي الأعز سلامة بن العوريس ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص٥٦٣ ، المقريزي : السلوك ج١ ص(٥٤،٥٣) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٢٩٦ .

[٢] أبو شامة : الروضتين ج١ ص٥٦٣

[٣] ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٧١ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٣٠٦

[٤] كوركيس عواد : مؤلفات ابن عساكر ، بحث ضمن البحوث الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر ص(٤٧٤،٤٢١)

بفضله بصالح الإمداد ، أعز نصره بجنده ، وشد أزره بالإمداد ، أحب أن أجمع له أربعين حديثا في الجهاد ، تكون واضحة المتن متصلة الإسناد ، تحريضا للمجاهدين الأجلاد وأولى الهمم والسواعد الشداد ، وذوي المرهفات الماضية والأسنة الحداد ، ليكون لهم تحضيضا على الصدق عند اللقاء والجلاد ، وتحريضا على قلع ذوي الكفر والعناد ... فسارعت إلى امتثال ما التمس من المراد ، وجمعت له ما يرتضيه أهل المعرفة والانتقاد ، واجتهدت في جمعها غاية الاجتهاد، رجاء أن يحصل لي أجر التبصير والإرشاد» [١] .

ولعل العلاقة القوية التي تربط ابن عساكر بالسلطان نور الدين دفعته أن يرسل إليه قصيدة يوجهه فيها إلى العمل من أجل تحرير بيت المقدس ... وبذل أقصى جهده من أجل ذلك ، يقول فيها :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب	عوضت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسبا	للأجر جوزيت أجرا غير محتسب
والأجر في ذاك عند الله مرتقب	فيما بنيت عليه خير مرتقب
الذكر بالخير بين الناس تكسبه	خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد	أصبحت تملك من مصر إلى حلب

إلى أن قال :

فطهر المسجد الأقصى وحوزته	من النجاسات والإشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا	وفي القيامة تلقى خير منقلب [٢]

---

[١] أحمد حلواني : ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين ص (١٠٧،١٠٨) . وصنف الشيخ الطاهر بن نصر الله بن جهبل الحلبي (٥٩٦هـ/ م) كتابا في (فضل الجهاد) دفعه إلى السلطان نور الدين محمود ، ابن قاضي شهبه : طبقات الشافعية ج٣ ص٢٦ ، الأسنوي : طبقات الشافعية ص١٢٢ ، حاجي خليفة : كشف الظنون ج٥ ص٣٥٣ ، الزركلي : الأعلام ج٣ ص٢٢٣

[٢] ابو شامة : الروضتين ج١ ص ٤٠٥ .

ولقد كان السلطان نور الدين يدرك أهمية دور العلماء والفقهاء وغيرهم من القراء والمشائخ [١] الذين كان ينفق عليهم ويبذل لهم الأموال ، فقد نصحه بعض القادة بأن يقطع عنهم نفقاتهم ويستعين بها على الحرب ، فرد عليهم وهو غضبان بقوله : « والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك ، فإنما ترزقون بضعفائكم ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رآني ، بسهام قد تخطئ وتصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم كيف أعطيه غيرهم ؟ » [٢]

وكانت وفاة السلطان نور الدين محمود رحمه الله خسارة كبرى للإسلام والمسلمين في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية ، لكن الإنجاز الذي تحقق على يديه من توحيد الجبهة الإسلامية التي بناها كانت قد أوشكت على أن تكتمل ، وتولى السلطان صلاح الدين مقاليد الأمور ، فسلك طريق السلطان نور الدين في استكمال توحيد الجبهة الإسلامية والإعداد لفتح بيت المقدس ، يقول أبو شامة منوها بذلك « ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدين من بعده لقرت عينه فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها » [٣] .

وقد كان لعلماء المسلمين دور هام وبارز في المحافظة على تلك الوحدة ، يتضح ذلك من خلال دور الشيخ كمال الدين الشهرزوري [٤] فبعد وفاة السلطان

---

[١] من هؤلاء كان الشيخ حياة بن قيس بن رحال بن سلطان الأنصاري الحراني ، كانت الملوك والأعيان يزورونه ، وكان السلطان نور الدين محمود يزوره ويشاوره في أمر الجهاد فتقوى عزائمه ، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يزوره ويشاوره أيضا ويطلب منه الدعاء له ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٨١،٥٩٠/١٠٤)

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ١٣٦ .

[٣] أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٥٨٥

[٤] قام القاضي كمال الدين الشهرزوري بدور سياسي في عهد السلطان نور الدين حيث ترسل له إلى الخليفة العباسي سنة (٥٦٨هـ/١١٧٢م) ، ليخبر الخليفة بما عليه السلطان نور الدين من الجهاد والمرابطة وقتال الكفار ، ويطلب منه تقليدا بما في يده من البلاد في مصر والشام والموصل وغيرها ، ومنها خرج رسولا من الخليفة المقتفي للإصلاح بين السلطان نور الدين محمود والسلطان قلج بن أرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص١٢٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص (٢١٤،٢٢٤،٢٤٣).

نور الدين محمود وتولية ابنه الملك الصالح إسماعيل [١] جمـــع الأمـــراء ومنـــهم الأمير شمس الدين ابن المقدم الذي يتولى تربية الملك الصالح إسماعيل [٢] وأشـــار عليهم أن يجمعوا الكلمة على السلطان صلاح الدين ، وهو الأقوى منهم عسكريا[٣] وأقدرهم على حماية ديار الإسلام من الفرنج ، فلم يوافق الأمراء على ذلك [٤].

وبعدها عقد الأمراء بدمشق الهدنة مع الفرنج ودفعوا لهم الأموال ، فغضـب السلطان صلاح الدين من هذا العمل ، وكتب إلى الشيخ شرف الدين عبد الله بـــن أبي عصرون (٥٨٥هـ/١١٨٩م) يلومه على سكوته لما فعله الأمراء من مهادنـــة الفرنج ، وذلك لعلمه بأن الشيخ من العلماء العاملين في الجهاد باللسان وبالسيف[٥] منكرا عليه ذلك الموقف .

وتواصلت الرسائل بين السلطان صلاح الدين والأمراء في دمشق ، وكـــان الشيخ كمال الدين الشهرزوري يرى أن الأمر لـــن يكـــون فـــي صـــالح الجبهـــة الإسلامية إذا بقي هؤلاء الأمراء هم الذين يقومون بشؤون الملك الصالح إسماعيل، مما حدا بالشيخ كمال الدين وبعض الأمراء إلى ضرورة مكاتبة السلطان صـــلاح الدين يطلبون منه سرعة القدوم إلى دمشق وتولـــي الأمـــور بـــها [٦] واســـتجاب السلطان لطلبهم ورأى أنه « إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعـــة ، وضاقت المناهج المتسعة ، وانفردت مصر عن الشام ، وطمع أهل الكفر في بـــلاد الإسلام » [٧] وعزم السلطان على أخذ دمشق ، وكاتب القـــاضي كمـــال الديـــن الشهرزوري أن يساعده في الدخول إليها ، فقام الشيخ كمال الدين بدوره في فتـــح

---

[١] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٢٦

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص (٣،٢،١)

[٣] ابن الأثير : الباهر ص١٦٣

[٤] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص(٣،٢،١)

[٥] أبو شامة : الروضتين ج١ ص (٥٩٥،٥٩٤،٥٨٩) ، النبداري : سنا البرق الشامي ص٣٥

[٦] ابن شداد : النوادر السلطانية ص٩٢ ، النبداري : سنا البرق الشامي ص١٧٦

[٧] أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٥٩٦

الأبواب له ، والتوسط بين السلطان صلاح الدين وريحان صاحب القلعة حتى تم تسليمها إليه [(١)] .

ومن جانب آخر كان العلماء يشاركون السلطان صلاح الدين في خوض المعارك ، فلما تسامع الناس أن السلطان عزم على فتح بيت المقدس ، قصده العلماء والصالحون للجهاد معه واجتمع عنده عدد كبير [(٢)] يقول ابن خلكان : « قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف منه أحد » [(٣)] ويذكر سبط بن الجوزي « أنهم زهاء عشرة آلاف عمامة من جميع الأجناس » [(٤)] .

ومن أشهر العلماء والفقهاء الذين شاركوا في الجهاد ضد الصليبيين ، الشيخ جمال الدين أبو علي الحسين بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن رواحة (٥٨٥هـ/١١٨٩م) قتل شهيدا في وقعة مرج عكا [(٥)] والشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (٦٠٧هـ /١٢١٠م) وأخوه الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) شاركوا في فتح بيت المقدس وكانوا يحضرون مع السلطان صلاح الدين أكثر معاركه وغزواته . [(٦)] ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن عبد الواحد الأنصاري (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) شارك في فتح بيت المقدس ، وكان يحضر مجالس السلطان صلاح الدين في القدس بعد الفتح [(٧)] ومن الذين شاركوا في الجهاد الأمير عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري (٥٨٥هـ/١١٨٩م) [(٨)] الفقيه العالم المحقق [(٩)] كان لا يفارق

---

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٣٤٠

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص ٣٤٤

(٣) وفيات الأعيان ج٧ ص ١٧٩ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص(٩٥،٩٦)

(٤) مرآة الزمان ج٨ ص (٣٩٢،٤٠٠)

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٣٠٠ ، الحموي : ياقوت بن عبد الله ، معجم الأدباء ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ ج٣ ص١٤٧ ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢٠٣

(٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٥٤٦،٥٥٣) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (٦٤،٦٥) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٨١،٥٩٠/٢٤٢،٤٤٣)

(٧) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص (١٩٣،١٩٤)

(٨) الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٨١،٥٩٠/٢٢٤،٢٢٥) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٤٩٧

(٩) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية ج٧ ص (٢٥٥،٢٥٦)

صلاح الدين وشارك معه في معظم معاركه وفتوحه [١] وأسره الفرنج فافتداه السلطان بستين ألف دينار [٢] . وقدم إلى دمشق غازيا المحدث أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنداني الأصبهاني [٣] ، ومن هؤلاء العلماء القاضي محي الدين محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن الزكي (٥٩٨هـ/١٢٠١م) شارك في فتح حلب وفتح بيت المقدس ، وكان ابن الزكي قد علم بما ذكره الفقيه مجد الدين الطاهر بن جهبل الشافعي (٥٩٦هـ/١١٩٩م) أنه رأى في تفسير أبي الحكم المغربي [٤] عند قوله تعالى: (آلم (١) غلبت الروم (٢) في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (٣) في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون (٤) بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) [٥] البشارة بفتح بيت المقدس في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة واستدل على ذلك بأشياء [٦] فكتب ذلك في ورقة وأعطاها للفقيه عيسى بن محمد بن عيسى الهكاري ليبشر بها

---

[١] المقريزي : السلوك ج١ ص١٠٣ ، النبداري : سنا البرق الشامي ص١٣١

[٢] ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ص٣٩٨ (أ) ، النبداري:سنا البرق الشامي ص١٣١،ابن الأثير:الكامل ج٩ ص(٢٠٥،١٤٢)

[٣] أبو طاهر السلفي : أحمد بن محمد ، معجم السفر ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة ص٥٦

[٤] عبد السلام بن عبد الرحمن بن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمن اللخمي الأشبيلي المعروف بأبن برجان، أحد العارفين بالقراءات ، والحديث ، صنف في التفسير وقد عاب عليه العلماء إمعانه في علم الحروف حتى استعمله في تفسير القرآن ، توفى سنة (٥٣٦هـ/١٢٣٨م)، الذهبي : العبر ج٢ ص ٤٥٠ ، السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، طبقات المفسرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ص٥٦ ، الداوودي : محمد بن علي بن أحمد ، طبقات المفسرين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ج١ ص٣٠٦.

[٥] سورة الروم : الآيات (٥،١)

[٦] قال أبو شامة :(وقد تكلم شيخنا ابو الحسن علي بن محمد السخاوي في تفسيره الأول فقال وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي ، يعني ابن برجان في أول سوة الروم إخبار عن فتح بيت المقدس وإنه ينتزع من ايدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وقال السخاوي : ولم أره اخذ ذلك من علم الحروف وإنما اخذه فيما زعم من قوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) الآية ، فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون ، فذكر أنهم يغلبون في سنة كذا وكذا ويغلبون في سنة كذا وكذا على ما تقتضيه دوائر التقدير ، ثم قال وهذه نجابة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه وكان في كتابه قبل حدوثه ، يقول ابن خلكان: ولما وقفت أنا على هذا البيت وهذه الحكاية لم أزل أتطلب تفسير ابن برجان حتى وجدته على هذه الصورة ، لكن كان الفصل مكتوبا في الحاشية بخط غير الأصل ، ولا أدري هل كان من أصل الكتاب أم هو ملحق به ، وذكر له حسابا طويلا وطريقا في استخراج ذلك حتى حرره من قوله (بضع سنين) ، وفيات الأعيان ج٤ ص٢٣٠ ، ورغم غرابة هذه القصة إلا انها تدل على أن قضية الصراع مع الصليبيين كانت شغلهم الشاغل ، واسترداد بيت المقدس كان مدار حديثهم في دروسهم العلمية ،ابن كثير:البداية والنهاية ج٦ ص(٣٤٨،٣٤٧)

السلطان صلاح الدين ، فلم يتجاسر على ذلك خوفا من عدم تحققه ، فعلم بذلك القاضي محيي الدين ابن الزكي فنظم في معناها قصيدة منها :

وفتحكم حلب الشهباء في صفر　　مبشرا بفتوح القدس في رجب

وقدمها إلى السلطان فتاقت نفسه إلى ذلك فلما فتح السلطان بيت المقدس جعل خطبة الفتح عنده [1] ولما علم السلطان أن ابن جهبل هو الذي قال ذلك ، جمع له من العسكر من الفقهاء وأهل الدين ، ثم أدخله إلى القدس والفرنج ما خرجوا منه بعد ، وأمره أن يذكر درسا في الفقه داخل قبة الصخرة فدخل وذكر درسا بها ، « وحظي عند السلطان بما لم يحظ به غيره » [2] .

ومن المبشرات بفتح بيت المقدس ما ذكره أبو شامة بقوله : قال لي شيخنا ابو الحسن علي بن محمد السخاوي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) قرأت بخط شيخنا أبي الفضائل ابن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة يقول : « رأى إنسان كأن شخصا ذا جهامة على حائط بجامع دمشق يسمى النسر وهو يقول :

ملك الصياصي والنواصي ناصر　　للدين بعد إياسه أن ينصرا

وسيفتح البيت المقدس بعدها　　يطوي الطراز له ويقتل قيصرا

قلت : « وهذا قبل أن يفتح السلطان صلاح الدين البلاد بعشر سنين ، وقرأت بخط بعض أصحابنا قال : وجدت على حاشية كتاب ، يروي عن خطيب كان بالرقه أنه رأى من ينشده هذا الشعر في النوم سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ... وهذا قبل الفتح بإثنين وخمسين سنة » وقد رمز بالطراز بلاد الساحل ، أنها تفتح قبل بيت المقدس ، وكنى بقيصر بالبرنس ارناط الذي قتله بيده لأنه كان من رؤوس الكفر وملوكهم وغلاتهم في معادات الإسلام [3] .

---

[1] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٣٣٥ ، طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص ٧٥٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص(٢١٩،٢٢٨) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص (٢٢٩،٢٣٠،٢٣٦) ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص (٣٨،٣٩) .

[2] أبو شامة : عيون الروضتين ج٢ ص ١٠٧

[3] نفسه : ج٢ ص(١٧٨،١٧٩)

وممن شهد فتح بيت المقدس الشيخ المغدى بن ختلع بن عبد الله الأميري المسترشدي [١] ومنهم الشيخ عبد الله بن عثمان بن جعفر بن محمد اليونيني [٢] وبعد فتح بيت المقدس أرسل السلطان صلاح الدين بالأسرى إلى دمشق ودخل القاضي شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون إلى دمشق وصليب الصلبوت بين يديه [٣] ثم حمل هذا الصليب بعد ذلك إلى بغداد ، ودفن تحت عتبة باب النوبي في دار الخليفة العباسي ، إهانة له ليداس بالأقدام [٤] .

أما القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي بن الحسن البيساني (٥٩٨هـ/١٢٠١م) فقد كان عنصرا فعالا ومؤثرا في حركة الجهاد [٥] وتماسك الجبهة الإسلامية ، وكان لقلمه البليغ وأدبه الرفيع رسائله المؤثرة دور في استمالة القلوب وجمع الكلمة ، ولهذا كان السلطان صلاح الدين يقول في ملأ من النلس لا تظنوا أنني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل [٦] .

وكان القاضي الفاضل لحرصه على أمر الجهاد وتماسك الجبهة الإسلامية، لا يتوانى في النصح والمشاورة [٧] مع السلطان صلاح الدين وحثه على الجهاد في سبيل الله فلما مرض السلطان سنة (٥٨١هـ/١١٨٥م) وشاع بين الناس مرضه ، وجاء الأطباء إليه ، نذر لئن شفاه الله من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال الفرنج ، ولا يقاتل بعد ذلك مسلما ، وليجعل أكبر همه فتح بيت المقدس ، ولو صرف في سبيل الله ما يملكه من الأموال والذخائر ، وليقتلن البرنس الذي تعرض لقافلة المسلمين وقتل من بها وسخر من النبي صلى الله عليه وسلم ومن

---

[١] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٣ ص٣٧٩

[٢] الذهبي : العبر ج٣ ص١٧٣ ، تاريخ الإسلام حوادث(٦١١/٦٢٠) ص (٣١٣،٣٠٤)

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٤٠٠،٣٩٢)

[٤] ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص ٣٠٤ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٨١،٥٩٠/٤١)

[٥] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٦١

[٦] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٤٧٣،٤٧٢)

[٧] نفسه ج٨ص(٤٧٣،٤٧٢) ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٧٥٠،٧٤٩،٧٤٨) .

دينه ، « كان هذا النذر كله بإشارة من القاضي الفاضل وهو الذي أرشده إليه وحثه عليه حتى عقده مع الله عز وجل » [١] .

ومن خلال عرض لنماذج من استعراض رسائله يتضح لنا أثرها في رفع معنويات السلطان ، وشحذ همته للجهاد ، وما يتجلى فيها إدراكه للهدف الأعظم من ذلك الجهاد وهو نصرة الإسلام ورفع كلمة الله واسترداد بيت المقدس وغيرها من بلاد المسلمين ، ومن ذلك رسالة أرسلها إلى السلطان صلاح الدين يهنئه بنصر حطين لأنه كان غائبا عنها : « ومنها كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من خدودها ، وكلما فكر الخادم أن البيع تعود وهي مساجد ، والمكان الذي كان يقال فيه : أن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه انه الواحد ، جدد لله شكرا ، تارة يفيض من لسانه ، وتارة يفيض من جفنه .. والمماليك ينتظرون أمر المولى ، فكل من أراد ان يدخل الحمام بدمشق قد عول على دخول حمام طبريه .

تلك المكارم لا قعبان من لبن   وذلك الفتح لا عمان واليمن

وذلك السيف لا سيف ابن ذي يزن » [٢] .

ومنها رسالة كتبها إلى السلطان في حصاره لعكا والضائقة التي حدثت للمسلمين في حصارهم هذا محذرا من أثر الذنوب والمعاصي ، وانتشار المظالم بين الناس في تأخر النصر وقلة المعين والمساند يقول فيها :« والمملوك ينهى أن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته ، والمعاصي في كل مكان بادية ، والمظالم في كل موضع فاشية ، وقد طلع إلى الله تعالى منها ما لا يتوقع إلا ما يستعاذ منه ، وقد أجرى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون له بمشيئة الله له حجة في رضاه ، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه ، بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الأجساد وتتصدع بذكرها الأكباد ، والمملوك

---

[١] ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص٣٣٧

[٢] أبو شامة : الروضتين ج٢ ص(٨٢،٨٣)

لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات في اتباعه وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمه لقبة الصخرة والمسجد الأقصى» [١]

ومن رسالة أخرى يقول فيها :« إنما أتينا من قبل أنفسنا ولو صدقنا ، لعجل الله لنا عواقب صدقنا ، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا مالا نقدر عليه إلا به ، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله ولا يرج إلا ربه ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان ، ولا فلان الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان فكل هذا مشاغل عن الله ليس النصر بها وإنما النصر من عند الله ، ولا نأمن أن يكلنا الله إليها ، والنصر به واللطف منه ، وأستغفر الله تعالى من ذنوبنا ، فلولا أنها تسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل ، وفيض دموع الخاشعين قد غسل ولكن في الطريق عائق .. » [٢]

ومن رسالة أخرى والمسلمون في حصار عكا ، يشد من أزر السلطان ويقوي عزيمته على مواصلة الحصار ، منها « فليس إلا الدعاء والتجلد للقضاء فلا بد من قدر مفعول ودعاء مقبول » .

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا   يوم الهجاج وإن علوا لم يضجروا

يا معاذ الله أن يفتح علينا البلاد ، ثم يغلقها ، وأن يسلم على أيدينا القدس ثم ينصره ، ثم معاذ الله أن يغلب على النصر ، ثم معاذ الله أن يغلب على الصبر وإذا كان ما يقدمنا الله إليه لابد منه وهو لقاؤه ، فلأن نلقاه والحجة لنا خير من أن نلقاه والحجة علينا ، ولا تعظم ذه الفتون على مولان متبهر صبره وتملأ صدره ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾[٣]. وهذا دين ما غلب بكثرة وإنما اختار الله له أرباب بنات ، وروى قلوب رجالات فليكن المولى نعم السلف ، لذلك الخلف ، واشتدي أزمة تنفرجي ، والغمرات تذهب ثم تجئ ، والله يسمعنا ما يسر القلوب ويصرف عن الإسلام غاشية هذه الكروب ، ونستغفر الله فإنه ما ابتلى

---

[١] أبو شامة : الروضتين ج٢ ص (١٦٥،١٦٦) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص٣٦١

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص٣٣٩

[٣] سورة محمد : الآية ٣٥

إلا بذنب ..» [١] لقد كانت هذه الكلمات تدخل على السلطان صلاح الدين والجيش الإسلامي المرابط ، الثقة بنصر الله ، ويذكرهم بحسن التوكل على الله في طلب النصر والالتجاء إليه في الشدائد والكروب .

وكان السلطان صلاح الدين حريصا على تكوين وحدة إسلامية شاملة تضم بلاد الشام ومصر وبلاد العراق واليمن والمغرب والأندلس ، وكان العلماء يقومون بدورهم في هذا الأمر بتولي السفارات إلى البلاد الإسلامية لإبلاغهم بحاجة المسلمين إلى العون وإرسال النجدات إليه ، والوقوف صفا واحدا في وجه الصليبيين [٢] .

وقد مثلت سفارات العلماء في هذا العصر عنصرا مهما في سياسة أكثر سلاطين الدولة الأيوبية ، لأن الأيوبيين كانوا ممن قرب العلماء وأولاهم العناية والرعاية ، واختيار العلماء للقيام بهذا الأمر ، لما يتمتعون به من العلم والفضل وقول الحق ، ولأن العالم أقدر من غيره في معالجة الأمور بالحكمة وأداء مهمته بأمانة .

ومما يدل على نجاح الوحدة الإسلامية إلى حد كبير أن السلطان صلاح الدين أرسل قبل فتح بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م) إلى جميع الأمصار الإسلامية في الشام ومصر وبلاد اليمن والجزيرة يطلب العساكر فجاءته من كل فج [٣] ولا أدل على ذلك من قول الملك الإفرنجي (الانكتار) عندما حاول حصار بيت المقدس سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م) أنه لا يمكن حصار هذه المدينة مع وجود صلاح الدين واجتماع كلمة المسلمين [٤] .

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٨١/٥٩٠)ص٥٨،٥٩

(٢) غانم : حامد زيدان ، العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٨م ص١٩

(٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص١٧٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص(١٨٦،١٨٨،١٨٩،٣١٠) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص٣٢٢ ، النبداري : سنا البرق الشامي ص٢٩٣

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٨١/٥٩٠) ص٤١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص٣٣٧

ولهذا كانت رسل السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغـــداد لا تنقطع يخبره فيها بكل ما يريد فعله من الأعمال العسكرية [(١)] وتولى العلماء مهمـة الترسل إلى الخليفة ، فمن هؤلاء القاضي ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبـد الله الشهرزوري (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) كان يتردد إلى الخليفة برسائل مـــن السـلطان صلاح الدين الأيوبي [(٢)] وكان القاضي بهاء الدين بن شداد يترسل للسلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسي ، وقد ولاه السلطان قضاء العسكر [(٣)] كما قام القـــاضي محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش قاضي العسكر بدمشق ، مهمـــة الترسل لصلاح الدين إلى ملوك الآفاق [(٤)] .

ولما اشتد الحصار على عكا أرسل السلطان صلاح الدين إلـــى الأمصـــار يطلب الإنجاد [(٥)] وسير الأمير العالم عبد الرحمن بن محمد بن مرشد بـــن منقـذ الشيزري (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) [(٦)] إلى صاحب المغرب يعقوب بن يوسف بن عبـد المؤمن (٥٩٥هـ/١١٩٨م) [(٧)] يستنصر به ليقطع مدد الفرنج من جهة البحـــر ، وأمر رسوله ، أن يقص عليه ، ما فعله السلطان من فتح مصر وإزالة ما بها مـــن الإلحاد ، وما فتح الله على يده من بلاد الفرنج ، وما عليه الأمر الآن في حصـــار عكا ، وأنه لا غنى له عن نجدته [(٨)] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص (٣٣٦،٣٣٧)

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٨١،٥٩٠)ص٤١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص٣٣٧

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ص٨٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص(٣١٠،٣٩٦) ، تاج الديـــن السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص٣٦٠

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص ٣٧٥

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ص٣١٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص (٣٥٧،٣٥٨) .

(٦) من بيت الإمارة والفضل والرئاسة ، سمع من الطاهر السلفي بالاسكندرية ، كـــان اديبـــا عالمـــا شـــاعرا مترسلا، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص١٢ ، المنذري : التكملة ج٢ ص٥٢ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث (٥٩١/٦٠٠) ص٤٤١ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٨ ص(٢٥١/٢٥٢)

(٧) صاحب بلاد المغرب ، كان ملكا جوادا عادلا متمسكا بالشرع المطهر ، رفع راية الجهاد وبسط العدل فـــي الأحكام ، كان يحب العلم والعلماء ، وانتشرت العلوم في عهده ولقي العلماء في بلاط أعظـــم مكانـــه ، ابـــن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ص(٣،١٤) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٩١/٦٠٠)ص(٢٢٠/٢٢١) .

(٨) الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٨١/٥٩٠)ص٦٠،٦١

وحمله كتابا بقلم القاضي الفاضل عنوانه « بلاغ إلى محل التقوى الطاهر من الذنب ومستقر حزب الله الظاهر من الغر أعلى الله به كلمة الإيمان ورفع به منار الإحسان » جاء في بعض هذا الكتاب « وأنت ايها الأمير أول من استخار الله وسار وما رأينا أهلا لخطابنا ولا كفؤا لإنجادنا ، إلا ذلك الجانب فلم ندعه إلا لواجب عليه ، فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سناها ، ويغرس في العدوة القصوى شجرتها ، فينال من العدوة الدنيا جناها ، فلا ترضى همته ان يعين الكفر الكفر ، ولا يعين الإسلام الإسلام ، واختص بالاستعانة لأن العدو جار ، والجار أقدر على الجار وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ، ولأنه بحر والنجدة بحرية ، ولا غرو أن تجيش البحار » إلى أن قال : « وكان المتوقع من تلك الدولة العالية ، العزمة العارية ، ومع القدرة الوافية والهمة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جواري كالأعلام »[1] . على أن المصادر تذكر أن صاحب المغرب لم يستجب لنجدة السلطان صلاح الدين ، والسبب في ذلك أنه لم يخاطب بخطاب أمير المؤمنين[2]

---

[1] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٨١/٥٩٠) ص٦٣

[2] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص٣٦٢ ، ويمكن أن نلتمس له العذر وهو انشغاله هو الآخر بقتال الفرنج حيث وقعت بينه وبين الفرنج وقعة عظيمة سنة (٥٩١هـ/١١٩٣م) هي معركة (الأرك) وكان طلب النجدة سنة (٥٨٧هـ/١١٩٠م) أي أن المدة كانت قريبة لطلب الانجاد ، كما أن هناك رواية يذكرها المؤرخ المغربي السلاوى الناصري أن يعقوب بن عبد المؤمن استجاب وأرسل مائة وثمانية سفينة حربية لمنع سفن الصليبيين من سواحل الشام ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٩١/٦٠٠)ص٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ص٢١،٢٢ ، السلاوي الناصري : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج٢ ص١٦٣

ثانيا : جهود العلماء في المحافظة على الوحدة الإسلامية والحث على الجهاد بعد وفاة السلطان صلاح الدين:

كان النزاع الذي نشب بين أبناء البيت الأيوبي سببا للوحدة الإسلامية التي تحقق بها بعد توفيق الله تعالى استرداد بيت المقدس ومعظم البلاد التي كانت تحت سيطرة الفرنج .

وقد شكل هذا النزاع عبئا كبيرا على العلماء في الحفاظ على تلك الوحدة ، لأن العلماء يدركون ما للخلاف والتنازع من أثر على وحدة الأمة وتماسكها ، يقول الله تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ [1] ويقول جل شأنه : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾[2]، وقد عبر القاضي الفاضل عن ذلك الصراع بقوله :« أما هذا البيت ــ يعني البيت الأيوبي ــ فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا ، وأما الأبناء منه اختلفوا فهلكوا ، إذا غرب نجم فما في الحيلة تشريقه ، وإذا خرق ثوب فما يليه إلا تمزيقه ..» [3] ويعبر القاضي بهاء الدين بن شداد عن أسفه واستيائه على ما حدث بعد وفاة السلطان صلاح الدين في الاختلاف بين أبناء البيت الأيوبي بقوله : « واشتغل كل واحد من أهل بيته وأولاده بناحية ووقع الخلف بينهم ، وأعرضوا عن النظر في المصلحة العامة للمسلمين ، فلو قدر الله بقاءه أي صلاح الدين لكان أغلب الظن أن العدو لا يبقى له في البلاد الشامية ثغر ولا بلد » [4] .

من هذا المنطلق حرص العلماء على القيام بواجبهم في هذا الأمر ، ويمكن أن نعرض محاور جهودهم من خلال ما يلي :

أولا : القيام بإصلاح ذات البين وفض النزاع السياسي بين أبناء البيت الأيوبي .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٦

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٠٣

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٩١/٦٠٠)ص١٢

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص٨٦

ثانيا : القيام بواجب النصيحة للسلاطين وتنبيههم للمحافظة على بلاد المسلمين وحث الناس على البذل والعطاء والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال .

لقد كانت مصلحة الإسلام والمسلمين في هذه الفترة تقتضي اجتماع كلمتهم ووحدة صفهم لذلك عمل العلماء على الإصلاح بين أبناء البيت الأيوبي المتنازعين على الحكم في مصر والشام حرصا على جمع الكلمة ووحدة الصف في وجه العدو الجاثم على بلاد المسلمين .

ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك ما قام به القاضي الفاضل سنة (٥٩٢هـ/١١٩٥م) من الصلح بين ابني السلطان صلاح الدين ، صاحب مصر الملك العزيز عثمان ، وصاحب دمشق الملك الأفضل علي ، مع أنه قد اعتزلهم لما حدث من فساد حالهم واختلافهم ، فاجتمع بعمهما العادل أبو بكر وأصلحا بينهما وأقر كل واحد على ما بيده من البلاد [١] .

كما برز دور عدد من العلماء في الصراع الذي حدث بين الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر وابن أخيه الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ، حيث خرج الكامل لحصار دمشق ، فحاصرها حصارا شديدا وضيق على أهلها ، ووقعت مقتلة بين الجانبين ، فسار العلماء بالصلح بينهما ، من هؤلاء العلماء جمال الدين محمد بن أبي الفضل الدولعي خطيب الجامع الأموي (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) وشمس الدين أحمد بن خليل بن سعادة الشافعي (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) ومحمد بن هبة الله الشيرازي الدمشقي الشافعي (٦٣٥هـ/١٢٣٨م) وانتهى الأمر بالصلح وتسليم دمشق للملك الكامل وخروج الناصر داود إلى الكرك وما بقي معه من البلاد [٢] .

ولا بد من التنويه إلى مشاركة العلماء في البلاد الإسلامية الأخرى ، للتدخل في فض النزاعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي ، وما هدفهم إلا الحفاظ على الوحدة وجمع الكلمة ، في الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام في أمس الحاجة

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص١٠٩

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ص(١٥٤،١٥٥،١٥٦)

إلى ذلك ، حيث استغل الصليبيون هذا الصراع ، وحاولوا الاستيلاء على بعـــض المدن في بلاد الشام [١] .

فلما علم الخليفة المستنصر بالله العباسي بالصراع بين أبناء البيت الأيوبـــي في الشام ومصر أرسل الشيخ العلامة محي الدين يوسف بـــن أبـــي الفـــرج بـــن الجوزي (٦٥٦هــ/١٢٥٧م) للإصلاح بين الملوك ، فحضر للإصلاح ولكن وفـــاة الملك الأشرف صاحب دمشق والكامل صاحب مصر ، والعزيز صاحب حلـــب ، حالت دون القيام بذلك [٢] .

وأرسله الخليفة العباسي مرة اخرى ليصلح بين الملك العادل بـــن الكـــامل وأخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي استولى على دمشق [٣] إلا أنه لم يحقـق نجاحا في ذلك [٤] وعلى كل حال فقد ظل الشيخ محي الدين بن الجوزي يتابع امـو الصلح بين الملوك الأيوبيين ويقرب بينهم عدة سنوات وبذل في ذلك جهدا عظيمـــا ثم عاد إلي بغداد . [٥] ومن جهود العلماء في الإصلاح ما قام به الشيخ نجم الديـن الباذرائي ، حيث جاءه الأمر من الخليفة العباسي العزيز بالله وهو مقيم بدمشـق أن يقوم بالصلح بين صاحب دمشق الملك الناصر يوسف بن صـــلاح الديـــن الثـــاني (٦٥٩هــ/ م) وصاحب مصر المملوكي عز الدين أيبك ، وكان جيش دمشق قـــد وصل إلى غزة قاصدا مصر ، وتمكن الشيخ نجم الدين أن يثني عزمه على قصـد مصر ونصحه ان تتحد قوى الجيشين لقتال التتار الذين هم على مقربة مـــن بـــلاد العراق والشام [٦] .

وقد كان العلماء العاملون المخلصون للأمة يدركون أبعاد الصراع بين أبناء البيت الأيوبي الذي أدى في بعض مراحله إلى التنازل عـــن بيـــت المقـــدس ، أو

---

[١] ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص (٢٥٩،٢٥٨،٢٥٥،٢٥٤،١٦٧،١٦٦)

[٢] القلقشندي : أحمد بن علي ، مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، عالم الكتب ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ج٢ ص٧٩

[٣] أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص(٦٦٧،٦٦٦)

[٤] المقريزي : السلوك ج٢ص(٢٩٢،٢٩١،٢٨٤)

[٥] ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(٢٤٦،٢٤٣،٢١٩،٢١٦)

[٦] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٩٦

مهادنة الفرنج أو الاتحاد معهم في مساعدة بعضهم في صراعه مع أحد أفراد بيته، ولهذا كانت على عاتقهم مسؤولية عظيمة في القيام بدورهم في هذا الأمر ، بالانكار عليهم وتوجيه النصح لهم قياما بواجب النصيحة المأمور بها شرعا ، كما جاء في الحديث عن تميم الداري رضي الله عنه أنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : { الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، قيل لمن يا رسول الله قال : لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم } [١] .

فهذا الشيخ عبد الرحمن اليمني (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) كان أحد العلماء القائلين بالحق ، دخل على السلطان العادل أبي بكر بن أيوب ، وأنكر عليه تساهله في عدم حفظ ثغور المسلمين عندما دخلها الفرنج . [٢]

وعندما قام الملك المعظم عيسى سنة (٦١٦هـ/١٢١٩م) بتخريب أبراج بيت المقدس وأسواره ، وكان السبب في ذلك أنه خاف من الفرنج ، وظن أنه بفعله هذا لا يتمكن الفرنج من دخوله ، ولو أخذوه لقتلوا كل من فيه ، فقام بذلك ، وأخرج من به من الرجال والنساء والشيوخ وغيرهم وعمهم الحزن الشديد على فراقه [٣] ، وذمه الشعراء على فعله هذا فقال مجد الدين بن عبد الله قاضي الطور:

مررت على القدس الشريف مسلما ... على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة ... على ما مضى في عصرنا المتقدم
وقد رام علج أن يعفي رسومه ... وشمر عن كفي لئيم مذمم
فقلت له : شلت يمينك خلها ... لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته ... وهذا صحيح الظن في كل مسلم [٤]

ولما قام الملك الكامل محمد بن العادل سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) بتسليم بيت المقدس لملك الفرنج ، طارت الأخبار في البلاد الإسلامية واشتد غضب الناس

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الإيمان) باب الدين النصيحة ، المطبعة المصرية بالأزهر ط١ ١٣٤٧هـ ج٢ ص٢٦

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٣٦

[٣] نفسه ص١١٥ ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٣٧٨ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٠١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٨٨

[٤] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦١١/٦٢٠)ص٢٤

وشنع عليه العلماء في كل ناحية [١] وشنع عليه أهل دمشق ، ومعهم الملك الناصر داود في تسليمه القدس ، وأمر الشيخ شمس الدين سبط بن الجوزي ، أن يخطب في ذلك في جامع دمشق يقول السبط : « وأشار الملك الناصر داود بأن اجلس بجامع دمشق وأذكر ما جرى على البيت المقدس فما أمكنني مخالفته ورأيت من جملة الديانة والحمية للإسلام موافقته فجلست بجامع دمشق ، وحضر الملك الناصر ... ولم يتخلف من أهل دمشق أحد .. » [٢] فكان من جملة ما قال :

« انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة ، وكم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة ، تالله لو صارت عيونهم عيونا ، لما وفت ، ولو تقطعت قلوبهم أسفا لما شفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات لمثلها تعظم الحسرات » [٣] وذكر قصيدة الشاعر دعبل الخزاعي [٤] والتي منها :

على قبة المعراج والصخرة التي ... تفاخر ما في الأرض من صخرات

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات [٥]

فلما علم الملك الكامل كثرة الإنكار عليه في هذه الحادثة العظيمة أرسل إلى الخليفة في بغداد أحد كتابه ليسكن قلوب الناس ويطمئنهم تجاه هذا الأمر وأخبرهم بما تم الاتفاق عليه وهو « أن ملك الفرنج يأخذ القدس من المسلمين ويبقيها على ما هي عليه من الخراب ولا يجدد سورها ، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج ، وأن الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدي

---

[١] المقريزي : السلوك ج١ ص٢٣٢

[٢] مرآة الزمان ج٨ ص (٦٥٣،٦٥٤)

[٣] نفسه ج٨ ص (٦٥٣،٦٥٤)

[٤] دعبل بن علي بن ابو علي الخزاعي شاعر مشهور ولد في أوائل الدولة العباسية ، صنف كتابا في (طبقات الشعراء) ، توفي سنة (٢٤٦هـ/٨٦٠م) ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٤ ص(١٢،١٣)

[٥] ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص١٤٧

المسلمين ، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ، ويتولاه قوام من المسلمين ، ويقيمون فيه شعائر الإسلام من الآذان والصلاة ... » [١] .

ويتضح دور العلماء بشكل جلي تجاه الصراع مع الصليبيين ما قام به الشيخ العز بن عبد السلام ، من الإنكار على الملك الصالح إسماعيل ، عندما أذن للفرنج بدخول دمشق وشراء الأسلحة ، فدخل الفرنج دمشق وأكثروا من الشراء للآلات والسلاح من أهلها ، فأنكر المسلمون ذلك ، وأفتى الشيخ العز بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج [٢] بل إن الملك الصالح إسماعيل سلم الفرنج حصن شقيف ، وأرنون وصفد ، فأنكر عليه الشيخ العز بن عبد السلام أشد الإنكار ووافقه على ذلك الشيخ أبو عمرو بن الحاجب ، وامتنع العز بن عبد السلام من الخطبة للملك الصالح إسماعيل ، فعزله عن الخطابة وسجنه هو وأبو عمرو بن حاجب ، ثم أخرجا وأمرا بلزوم منازلهم ثم أخرجا إلى الديار المصرية [٣] . وبعد خروج الشيخين من دمشق ، كتب الشيخ شمس الدين محمد محمد بن سعد بن نمير المقدسي الحنبلي (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) قصيدة إلى الملك الصالح إسماعيل يناصحه في اتخاذ بعض من الوزراء الذين لا يقومون بواجبهم ولا ينبغي الاعتماد عليهم في مهمات الأمور يقول فيها [٤] :

يا مالكا لم أجد لي من نصيحته بدا	وفيها دمي أخشاه منسفكا
اسمع نصيحة من أوليته نعما	يخاف كفرانها إن كف أو تركا
والله لا امتد ملك مد مالكه	على رعيته من ظلمه شبكا
ترى الحسود به مستبشرا فرحا	مستغرب من بوادي أمره ضحكا

---

[١] المقريزي : السلوك ج١ ص٢٣٢

[٢] نفسه: ج٢ ص٣٠٢

[٣] ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٧٠ ، اليونيني : مرآة الزمان ج٢ ص(١٧٢،١٧٣) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٦٧ ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص٢١٨ ، كان الملك الصالح اسماعيل يقول عندما تحالف مع الفرنج ضد أخيه الملك الكامل وهزم هو والفرنج (قد علمت أنا لما سرنا تحت الصلبان أننا ما نفلح أبدا) ، الصفدي : صلاح الدين خليل بن إيبك ، أمراء دمشق في الإسلام ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٤٠٣هـ تحقيق : صلاح الدين المنجد ج٢ ص١٣٣ .

[٤] الصفدي : أمراء دمشق في الإسلام ج٢ ص(١٣٥،١٣٦) ، ابن دقمان : نزهة الأنام في تاريخ الإسلام

وزيره ابـن غـزال والرفيـع لـه ... قاضي القضاة ووالي جيشه ابن بكـا
وثعلب وفضيل [١] من همـا وهمـا ... أهل المشورة فيما ضـاق أو ضنكـا
جماعة بـهم الآفـات قـد نشـرت ... والشرع قد مات والإسلام قد هلكـا
ما راقبوا الله فـي سـر ولا علـن ... وإنمـا يرقبـون النجـم والفلكـا
إن كان خيرا ورزقا واسـعا فلـهم ... أو كان شـرا وأمـرا سـيئا فلكـا

ومن جهود العلماء ما كانوا يقومون به من حث الناس على الجهاد بالنفس والمال من خلال دروسهم ومواعظم في المساجد والتجمعات ، ومن خلال إرسال النصائح للسلاطين بسبب انتشار المنكرات والمظالم لما لها من خطورة على تماسك المجتمع ووحدته من مداخل [٢] وهو ما تتطلبه الجبهة الخارجية للجيش الإسلامي ، فمن تلك الجهود ما قام به الشيخ سبط بن الجوزي في حثه المسلمين على الجهاد وتحريضهم على البذل والعطاء في سبيل الله ، وذلك من خلال المجالس العلمية التي كان يعقدها في الجامع الأموي يجتمع فيها عدد كبير من الناس ، قيل وصل عددهم إلى ثلاثين ألفا ، فوعظ الناس وذكرهم بما هو واجب عليهم من نصرة الإسلام ، والبذل له بالمال والنفس ، وذكر لهم قصة المرأة التي لم تجد إلا شعرها تهبه في سبيل الله ، قصته وأرسلت به إلى أبي قدامة الشامي ليجعله قيدا لفرسه ، فدفع ذلك الناس للبذل في سبيل الله وقص الناس شعورهم فاجتمع عنده من شعور الناس ما عمل منه ثلاثمائة شكال ، وخرج سبط بن الجوزي وخرج معه عدد كبير من المسلمين للجهاد ، فخرج معه من قرية واحدة من قرى دمشق يقال لها زملكا [٣] ثلاثمائة رجل بالعدد والسلاح ، حتى التقى بالملك المعظم عيسى وهو على نابلس ، فخرج إليهم يتلقاهم ، ولما أحضرت

---

[١] ثعلب وفضيل ، منجمان كانا قد استوليا على الصالح إسماعيل وحسنا له فعل كل قبيح ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ص٧٨٨

[٢] انظر نصيحة الشيخ محمد بن عبد الواحد المقدسي المعروف بالضياء التي كتبها للملك الأشرف موسى في إصلاح بعض الأمور الداخلية بدمشق ، مجلة الحكمة ، العدد الثالث ، سنة ١٤١٥هـ ، تحقيق : علي حسن علي الحلبي الأثري ص(٢١٥،٢٤٧) .

[٣] قرية بغوطة دمشق ينسب إليها كثير من العلماء ، ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص١٥٠

الشعور التي جمعت من اهل دمشق ورآها المعظم فرح بذلـــك ووضعـــها علـــى صدره ووجهه وبكى ، ونصر الله المسلمين على الفرنج في تلك الموقعة [١].

كما أن الملك المعظم عيسى أرسل إلى الشيخ سبط بن الجوزي في الســـنة التي أخذت فيها الفرنج دمياط ، يطلب منه أن يحرض الناس على الجهاد ويعرفـهم ما جرى على إخوانهم من أهل دمياط ، وما فعله بهم الفرنـــج ، ويحثـــهم علـــى الإنفاق من أموالهم ويخص بذلك أهل دمشق ، ليبذلوا من أملاكهم ما يســتطيعون ، ثم يخرج إليه الشيخ سبط بن الجوزي إلى الجهاد [٢] .

ولما دخل الفرنج نابلس سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وقتلوا من بها من الرجـال والشيوخ وسلبوا النساء والولدان ، ووضعوا الصلبان على مساجدها ، كتب الملـك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي صاحب دمشق ، إلـــى الشـيخ العز بن عبد السلام وهو بمصر يذكر فيه ما حل بالمسلمين على أيدي الفرنج فـــي بلاد الشام ، ويدعوه إلى القدوم لحث الناس على الجهاد فإن لقوله قبولا عندهـــم ، جاء في بعض هذا الكتاب « أحسن الله عزاء المجلس السامي القضوي العزي فـــي مصابه بالمسلمين ، وصبرنا وإياه على ما دهى به حوزة الدين ، وأثـــاب الذيـن استشهدوا بما وعد به الشهداء من رضوانه ... وسامحنا وإياه بما أهملناه من حمية الدين وحف أركانه ... قول معترف بتقصيره عن جهاد أعداء الله وأعداء دينـــه ، جهرا بلسانه وسرا بيقينه ... فيا أيها العز الذي كنا نظن أن الإسلام يتزايد بســعيه غدا ، وأن رقي عزائمه تكون عليه من سحر الكفار حرزا ، تيقن أن قدم بالشـــام النفير ، ووجبت الغزاة على الحدث الطرير ، والشيخ الكبـــير ... ووجـب علـــى المجاهدين الإسعاد ، والإنجاد ، وتعين في طاعة الله الجهاد ، فيا لسان الشـــريعة أين الجدال فيه وأين الجلاد وأين مهند لسانك الماضي ، إذا كلت المهندة الحـــداد ، أتغمد سيف لسانك في غمده وقد هجرت سيوف الكفار جفونها ، وأجـــرت عيـون الأنام على الإسلام شؤونها ألا وإن الإسلام بـــدأ غريبـــا وســـيرجع كمـــا بـــدأ ،

---

[١] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٥٤٤،٥٤٥) ، ابو شامة : ذيل الروضتين ص(٦٩،٧٠) ، ابـــن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (٦٣،٦٤)

[٢] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٠٤

وتقاصرت الهمم عن اسعاده حتى لا يرى له مسعدا ، فإن لله قول من عز عــزاؤه في الإسلام وذويه ، وبذل في الدفاع عنه ما تملكه يده وتحويه ، وصبرا فـــي الله على احتمال الأذى وعدم دونه محاميه ، والله سبحانه وتعـــالى يتلافـــى الإســـلام بتلافيه ، ويحميه بحمايته ، وحسن نظره فيه أنه قريب مجيب » [١] .

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص(١٥٧،١٥٨،١٥٩)

ثالثا: جهود العلماء في تصنيف الكتب التي تناولت الجهاد وفضله وفضائل الشام وبيت المقدس والتاليف في السياسة الشرعية ونظام الحكم

لقد كان الاتجاه إلى التأليف في الجهاد وفضله وفضائل الشام وبيت المقدس وغيرها من المدن الشامية ، سمة من سمات هذا العصر واتجاها علميا مطلوبا لحالة الصراع التي كانت تعيشها بلاد الشام ، حيث توالت الحملات الصليبية ، ودخل الصليبيون بيت المقدس وسيطروا عليه فكان من واجب العلماء التأليف في فضل الجهاد ووجوبه، وما يدل عليه من الآيات والأحاديث ، وفضائل بيت المقدس وبلاد الشام ، بهدف حث الناس على الجهاد في سبيل الله ، ولا شك أن هذه الكتب كانت متداولة بين طلاب العلم من خلال المجالس العلمية التي تقام في المساجد والمدارس ، فكان لها الأثر البالغ في نشر الوعي بين المتعلمين وعامة المسلمين عن أهمية الجهاد وفضله .

وقد أسهم علماء دمشق في فترة البحث في تأليف عدد من تلك الكتب ، فقد صنف القاضي بهاء الدين بن شداد (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) كتابا في الجهاد ، ألفه للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، جمع فيه آداب الجهاد وكل الآيات التي نزلت فيه والأحاديث الواردة في فضله وشرح غريبه ثم قدمه إليه [١] .

كما صنف الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) كتابا في الجهاد سماه : (تحفة الطالبين في الجهاد والمجاهدين) وهو عشرة أجزاء[٢] .

وألف المحدث قاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) كتابا في الجهاد في مجلدين [٣] سمعه منه السلطان صلاح الدين الأيوبي كله سنة ست وسبعين وخمسمائة قال : فدعوت في أوله وآخره بفتح

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص (١٦،١٧) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص٨٤،٨٧،٨٨،٨٩)

(٢) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٢ ص١٨ ، توجد من كتاب تحفة الطالبين نسخة بالمكتبة الظاهرية بدمشق ضمن مجموع رقمه ٩٥ ، انظر المنتخب من مخطوطات الحديث للألباني ص٣٥٣ .

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٣٣٦،٣٣٧) ن تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص (٣٥٢،٣٥٣) ، الأسنوي : طبقات الشافعية ص ٢٩٧ ، السيوطي : عبد الرحمن بن أبي بكر ، طبقات الحفاظ ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ١٤١٤هـ ص (٤٧٦،٤٨٧) .

بيت المقدس ، فاستجاب الله ذلك وفتح بيت المقدس وأنا حاضر فتحه [(١)] وأفرد الشيخ الفقيه موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) في مصنفه (المغني) في الفقه كتابا خاصا بالجهاد وأحكامه [(٢)] وكتب الشيخ احمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي المعروف بالبخاري (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) كتابا سماه (فضل الجهاد والمجاهدين) [(٣)] .

أما الشيخ عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الأنصاري (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) فقد صنف كتابا سماه (الإنجاد في الجهاد) [(٤)] وألف الحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) كتابا سماه (فضائل الجهاد) [(٥)] .

ومنها كتاب (سبل الرشاد في فضل الجهاد) للشيخ سعد الدين أبي العوالي مرتفع بن جزيل بن قوايكن المقرئ (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) ألفه للملك الكامل محمد بن العادل ، وفرغ من تأليفه في ربيع الأول سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) [(٦)] ، ومنها كتاب الشيخ العز بن عبد السلام (٦٦٠هـ/١٢٦١م) سماه (أحكام الجهاد وفضله) ، وهو كتاب موجز لطيف ، جعله مؤلفه في اثنين وخمسين فصلا ، جمع فيه الآيات ، والأحاديث بدون ذكر للأسانيد ، ثم علق عليها تعليقات موجزة تبين ما فيها من دلائل وأحكام وما يتضمنها من المعاني والآداب [(٧)] .

وكان التأليف في فضائل الشام وبيت المقدس ، لتذكير الناس بفضل تلك الأماكن المباركة وأهميتها ومكانتها بالنسبة للمسلمين ، تحريضا لهم للدفاع عنها ، وأن الجهاد في سبيل استنقاذها واجب شرعي علي عامة المسلمين .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١ ص٤١١

(٢) المغنى : ج١٠ ص(٣٥٩،٥٥٦)

(٣) يوجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٨٠٩ ، انظر المنتخب من مخطوطات الحديث للألباني ص٢٣٠ .

(٤) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص (١٩٣،٢٠٠) ، الزركلي : الأعلام ج٣ ص٣٤٠

(٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٢ ص ٢٧

(٦) جاجي خليفة : كشف الظنون ج٢ ص٢٧

(٧) العز بن عبد السلام : احكام الجهاد وفضله ، طبع بتحقيق نزيه حماد ، الطبعة الأولى ، دار الوفاء للنشر والتوزيع ، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ص٤٠.

وللعلماء في هذا الباب كتب منها : كتاب للشيخ حسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصري الدمشقي (٥٨٦هـ/١١٩٠م) سماه (فضائل بيت المقدس)[١] ومنها كتاب (الجامع المستقصى في فضائل المسجد الأقصى) للشيخ قاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) [٢] ومن تلك المصنفات كتاب (الأنس في فضائل القدس) للشيخ أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله الملقب بتاج الأمناء بن عساكر (٦١٠هـ/١٢١٣م) [٣] .

ومنها كتاب (مفتاح المقاصد ومصباح المراصد في زيارة بيت المقدس) للشيخ عبد الرحيم بن علي بن الحسن القرشي (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) [٤] أما كتاب (فضائل بيت المقدس) للحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي فهو من أجل الكتب في هذا الباب (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) قسمه مؤلفه إلى ستة عشر بابا وسلك فيه طريقة المحدثين في سرد الأحاديث والروايات والحكم عليها [٥] .

وصنف المحدث الرحالة محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن البغدادي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) كتابا سماه (روضة الأولياء في مسجد إيلياء)[٦]، ومنها كتاب (تاريخ القدس) للشيخ أحمد بن عبد الدايم بن أحمد بن محمد المقدسي الحنبلي (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) [٧] .

---

[١] السيوطي : طبقات الحفاظ ص٤٨٤

[٢] نفسه ص(٤٧٦،٤٨٧) ، والأسنوي : طبقات الشافعية ص٢٩٧ ، يوجد منه قطعة مخطوطة في مكتبة الأزهر كتبت سنة ٩٦٦هـ برقم ٣٩٧١ تاريخ أباظه .

[٣] الزركلي : الأعلام ج١ ص٢١٧

[٤] منه نسخة خطية في معهد التراث العلمي العربي بحلب (راجع الفهارس)

[٥] الضياء المقدس : فضائل بيت المقدسي ص(٢٥،٢٦،٢٧) وهو مطبوع بتحقيق محمد مطيع الحافظ ، دار الفكر ن دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ

[٦] الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص١٤٢٩

[٧] جاجي خليفة : كشف الظنون ج٥ ص٨٢

ومن اشهر ما صنف في فضائل الشام كتاب العز بن عبد السلام (ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام) ذكر ما ورد من الأحاديث في فضائل الشام وأهله ، وما جاء من الأحاديث في فضائل دمشق على الخصوص [١] .

وكان العلماء يدركون أن من أسس بناء وحدة الأمة الإسلامية وعوامل تماسكها أن تكون السياسة الشرعية في الدولة الإسلامية وفق نظام الحكم الإسلامي، لهذا اتجه العلماء في هذا العصر إلى التأليف في نظم الحكم لتكون مصادر شرعية يعود إليها السلاطين في حكمهم للأمة .

ومن أشهر ما كتب في ذلك كتاب (المنهج المسلوك في سياسة الملوك) للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن الشيزري (٥٨٩هـ/١١٩٣م) الذي اتصل بصلاح الدين وولي القضاء في أيامه ، وصنف له هذا الكتاب وأهداه إليه ، ليحثه على وجوب امتثال أحكام الإسلام في سياسة البلاد ووفق الأصول الشرعية [٢] يقول في أوله : « ولما كان المولى الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي .. ممن يرى الأدب وفضله ، ويؤثر العلم وأهله ، جمعت لخزانة علومه هذا الكتاب ، وهو يحتوي على ظرائف من الحكمة ، وجواهر من الأدب ، وأصول في السياسة وتدبير الرعية ومعرفة أركان المملكة وقواعد التدبير ... وكنت في إيداعه خزانة علومه كمهدي التمر إلى هجر ... ولكني قصدت بذلك إيصال الحكمة أهلها ، وأن أضعها محلها .. » [٣] .

وقد قسم الكتاب إلى عشرين بابا ن ليشتمل على جملة من القواعد والآداب والنصائح التي ينبغي على الحاكم التزامها وتقرير قواعدها [٤] .

أما كتاب (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) فهو من الكتب المهمة والمشهورة في نظام الحسبة ، وقد قسمه إلى أربعين بابا ، وضمنه كل ما له علاقة

---

(١) العز بن عبد السلام : ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام ص(٣٩،٤٧)

(٢) الشيزري : المنهج المسلوك في سياسة الملوك ، ص٨٥ ، المقدمة

(٣) المنهج المسلوك ص (١٥٤،١٥٦،١٥٧،١٥٨،١٥٩،١٦٠)

(٤) نفسه ص (١٦١،١٦٢)

بأمور الحسبة والاحتساب [١] وهو مما يساعد على انضباط أمر الحكم وقضاء مصالح الرعية . ومن تلك المصنفات كتاب (تهذيب ذهن الواعي في إصلاح الرعية والراعي) للشيخ الفقيه شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة القناوي (٥٩٨هـ/١٢٠١م) صنفه للسلطان صلاح الدين الأيوبي [٢] ومع أن هذا الكتاب لا يزال مفقودا إلا ان عنوانه يوحي بمضمونه .ومنها كتاب (كنز الملوك في كيفية السلوك) ليوسف بن قزواغلي بن عبد الله المعروف سبط بن الجوزي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) [٣] ومنها كتاب (لمع القوانين المضيئة في دواوين الديار المصرية) للشيخ عثمان بن إبراهيم النابلسي (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) صنفه للملك الصالح نجم الدين أيوب مناصحة له للنظر في الدواوين وطرق حفظ الأموال ، وقد قسم كتابه إلى مقدمة وخمسة أبواب ، والباب الأول : فيما يجب من حفظ أموال بيت المال .

والثاني : في ذكر الولاية واقسامها .

والثالث : في ذكر ترتيب الدواوين .

والرابع : في ما أهمله نظار الديوان .

والخامس : في خيانة المستخدمين . [٤]

ومن المصنفات في هذا الموضوع كتاب للشيخ محمد بن طلحة بن محمد بن الحسن القرشي النصيبي الشافعي (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) بعنوان : (نفائس العناصر لمجالس الملك الناصر) ألفه بطلب من السلطان صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي ، وجعله على مقدمة وأربعة قواعد ، القاعدة

---

[١] نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت ١٤٠١هـ ، تحقيق : السيد الباز العريني ، ص (٣،٤،٥،٦،٧)

[٢] ابن فرحون : الديباج المذهب ص(٢٠٨،٢٠٩) ، القفطي : علي بن يوسف ، أنباه الرواة على أنباه النحاة ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج٢ ص ٧٣ ، الكتبي : فوات الوفيات ج٢ ص ١٠٨ ، الزركلي : الأعلام ج٣ ص١٨١

[٣] الزركلي : الأعلام ج٨ ص ٢٤٦

[٤] النابلسي : عثمان بن إبراهيم ، لمع القوانين المضيئة في دواووين الديار المصرية ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ص (٦،٧،٨)

الأولى في الأخلاق ، والثانية في السلطنة ، والثالثة في الشريعة ، والرابعة في تكملة المطلوب . [١]

[١] حاجي خليفة : كشف الظنون ج٢ ص٧٦٧

الفصل الثالث

مظاهر الاهتمام بالنشاط
العلمي بدمشق في العصر الأيوبي

المبحث الأول : اهتمام السلاطين بالحركة العلمية .

المبحث الثاني : اهتمام الوزراء والأعيان بالحركة العلمية .

المبحث الثالث : الوراقة والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية .

المبحث الرابع : خزائن الكتب .

شهدت مدينة دمشق إبان العصر الأيوبي نهضة علمية رفيعة القدر ، شملت جميع ميادين العلم ، فقد ظهر ذلك واضحا من خلال عدد المدارس التي حفلت بها دمشق في هذا العصر ، وعدد العلماء الذين أسهموا بمؤلفاتهم ودراساتهم المتنوعة في إثراء الحياة العلمية في دمشق .

وقد نقل لنا ابن جبير في رحلته أثناء زيارته دمشق سنة (٥٨٠هـ/١١٨٤م) صورة واضحة عن الحركة العلمية النشطة فيها ، ومظاهر الاهتمام بها ، وقد دفعه ذلك لدعوة طلاب العلم بالمغرب الإسلامي للهجرة إليها لطلب العلم حيث قال : « فمن شاء الفلاح من ناشئة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها ، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد ، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويف ، ... فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك ، فادخل أيها المجتهد بسلام ، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد ...» [١] .

ولا ريب أن ما أشار إليه ابن جبير يؤكد ازدهار الحركة العلمية وما لقيته من اهتمام واسع وعناية كبيرة ؛ فقد ظهر ذلك على جميع فئات المجتمع على اختلاف منازلهم ، حيث تنافس الملوك والسلاطين والعلماء والوزراء والأعيان في العناية بمراكز العلم وتشييدها والانفاق عليها ؛ مما كان له أكبر الأثر في تنشيط الحركة العلمية ، والذي ظهر واضحا في عدد العلماء الذين غصت بهم كتب التراجم ممن دخل دمشق لطلب العلم .

وسوف يتناول الفصل فيما يلي أهم مظاهر الإهتمام بالنشاط العلمي في دمشق في هذا العصر **عدة مباحث هي** :

---

(١)ابن جبير : رحلة ابن جبير ص٢٥٨

المبحث الأول : اهتمام السلاطين بتنشيط الحركة العلمية :

إن الازدهار العلمي الذي شهدته دمشق في عهد الدولة الأيوبية لم يكن إلا ثمرة العهد الذي سبقه ؛ ومن المعلوم أن الحركة العلمية والفكرية ما هي إلا سلسلة متصلة الحلقات، وكل حلقة تعتمد على الحلقة التي قبلها وتؤسس للتي تأتي بعدها.[١]

وقد سبق العهد الأيوبي عهد الدولة الأتابكية الزنكية ، التي أولت العلم عناية كبيرة ، ولقي العلماء في بلاط سلاطينها من الرعاية والتشريف الشيء الكثير ؛ فالسلطان نور الدين محمود بن زنكي يعد نموذجاً فريداً لسلاطين الدولة الإسلامية [٢] ، والذي رعى العلم وأهله ، وهو قدوة يحتذى به في ذلك . يقول العماد الأصفهاني عنه : « هو الذي أعاد رونق الإسلام في بلاد الشام ، وأشاع بها شعار الشرع ، ... وأحيا معالم الدين الدوارس ، وبنى للأئمة المدارس ...» ، [٣] فكانت بلاد الشام خالية من العلم وأهله ، وفي زمنه صارت موئل العلماء والفقهاء.[٤]

أما عن طلبه للعلم وحبه له ، فقد كان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ، وسمع الحديث وأسمعه ، [٥] وكان ذا خط حسن ، كثير القراءة في كتب العلم وبخاصة الشرعية منها ، [٦] وكانت مجالسه تغص بالعلماء والفقهاء ، وتقام فيها المناظرات العلمية ، وكان الحافظ أبو القاسم ، علي بن الحسن بن عساكر

---

[١] العريني : الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين (ص١٤) .

[٢] يقول ابن الأثير : (طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه ...) . التاريخ الباهر ص (١٦٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب (٢٦٤/١) ، خليل : عماد الدين ، نور الدين محمود الرجل والتجربة ، دمشق ١٤٠٠هـ .

[٣] سنا البرق الشامي ص ٥٥ .

[٤] ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ص٣٥ ، الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، الأمصار ذوات الآثار ، الطبعة الأولى ، دار البشائر الإسلامية ، تحقيق : قاسم علي سعد ، ص١٦٠ .

[٥] ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٦٥ ، الكامل ص(١٢٥،٩) ، أبو شامة : الروضتين (١٤/١) ، ابن كثير : البداية والنهاية (٢٩٧/٦) ، ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ص٣٧ .

[٦] ابن كثير : البداية والنهاية (٢٩٧/٦) .

(٥٧١هـ /١١٧٥م) من أخص جلسائه وبالجملة فقد كانت مجالسه مجالس علـــم ودين . [١] ألف نور الدين كتاباً سماه (الفخر النـــوري) فيـــه أحـــاديث العـــدل، والجهاد، والمواعظ ، وكتاباً آخر في الجهاد ، ألفهما بدمشق . [٢] ، وكان العلمـــاء يفدون إليه من أقطار العالم الإسلامي ، [٣] فممن وفد عليه مـــن العلمـــاء الفقيـــه مسعود بن محمد بن طاهر النيسابوري (٥٧٨هـ/١١٨٢م) الذي بالغ في إكرامـــه والإحسان إليه . [٤]، وعندما دخل دمشق شرع في بناء مراكز العلـــم، واســـتدعى العلماء، وأنفق عليهم، وأكرمهم ، فبنى المدارس للأحناف والشـــافعية ، [٥] وبنـــى لطلاب الحديث بدمشق دارا تسمى دار الحديث النورية ، وجعل بها خزانة كتـــب ، وأوقف عليها الأوقاف الحسنة . [٦]

وبنى المساجد ومكاتب الأيتام ، وجعل معلمين يعلمون بها القرآن الكريـــم، وأوقف عليه الأوقاف الكثيرة . [٧]

كما أنشأ البيمارستانات العظيمة في بلاد الشام ، ومن أحســـنها بيمارســـتان دمشق ، الذي أحسن عمارته ، وجعله على الفقراء والمســـاكين وعامـــة العلمـــاء وجعل فيه الأطباء والمعالجين . [٨]

وقد نهج السلطان صلاح الدين نهج سلفه نور الدين محمود فـــي الجـــهاد ، والاهتمام بالعلم والعلماء ، فكان شغفه بالعلم يعدل شغفه بالجهاد .

ورغم انشغال السلطان صلاح الدين بالجهاد، وتأمين الجبهـــة الإســـلامية، وتوحيدها في مواجهة الخطر الصليبي ، إلا أن ذلك لم يصرفه عن طلب العلـــم ،

---

[١] ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٧١ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان (٣٠٦/٨) .

[٢] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٣١٣ .

[٣] ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٧١ .

[٤] ابن واصل : مفرج الكروب (٢٨٣/١)

[٥] ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٧١ ، ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ص٣٥ .

[٦] ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٧٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية (٣٠٣/٦) ، ابن قاضي شهبة : الكواكب الدرية ص٣٧ .

[٧] ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٧٢ ، أبو شامة : عيون الروضتين (٣٤٩/١،٣٥٠،٣٥١) ، ابن قـــاضي شهبة : الكواكب الدرية ص٣٥ ، الصفدي : تحفة ذوي الألباب ج٢ ص(٧٣،٧٤،٧٥) .

[٨] أبو شامة : عيون الروضتين (٣٦٩/١) .

والحرص عليه والأخذ عن العلماء والسير إليهم ، إدراكا منه بأهمية العلـــم ودوره في حياة المسلمين .

أما عن اشتغاله بالعلم ، فقد كانت له عنايــــة بعلـم الحديـث، وســماعه، والحرص على طلبه بل « كان يؤثر سماع الحديث بالأسانيد » [١] ، وكــان مــن شدة حرصه على سماع الحديث ، أنه كان يواظب على سماعه وهو بين الصفيــن في الجهاد ، [٢] وهو على ظهر فرسه . [٣] يقول ابن شداد في سيرته : « وكــان شديد الرغبة في سماع الحديث ، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية وكــان ممــن لا يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، وأسمع أولاده ومماليكه وأمرهم بالقعود عنـد سماعه إجلالا له ، وإن لم يكن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليـــه وسمع منه وروى عنه وتردد إليه » [٤] .

وقد أخذ العلم على كبار علماء عصره ، يأتي في مقدمتهم الحافظ المحــدث أحمد بن محمد بن أحمد السلفي (٥٧٦هـ/١١٨٠م) [٥]، قصده في الإســكندرية ومعه ولداه ، [٦] وقرأ عليه وبقي يلازمه مدة ، وسمع منه موطأ الإمام مالك بــن

---

[١] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٤٢٦،٤٢٧،٤٢٨)، وابن واصل : مفرج الكروب ج٢ص٤٣٨

[٢] ابن شداد : النوادر السلطانية ص٥١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٥٦ ، المقريزي : الســلوك ج١ ص١١٣ .

[٣] ابن شداد : النوادر السلطانية ص٥١ ، المقريزي : السلوك ج١ ص١١٣ .

[٤] ابــن شــداد : النــوادر الســلطانية ص (١٠،١١) ، ســبط بــن الجــوزي : مــرآة الزمــان ج٨ ص (٤٢٦،٤٢٧،٤٢٨،٤٢٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٤٣٨ .

[٥] الإمام العلامة والحافظ المحدث أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد الأصبهاني الجرواني كان لسعة علمه في الحديث يتقصده العلماء من أرجاء الدنيا للسماع ، استوطن الاسكندرية وتوفى (٥٧٦هـ/١١٨٠م) ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١ ص٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص١٥٠

[٦] يقول السيوطي : (ورحل إلي الإسكندرية بولديه الأفضل والعزيز ؛ لسماع الحديث من الطاهر الســلفي ، ولم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد ، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك ؛ لسماع الموطأ)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٧م ، تحقيق : محمد أبو الفضـــل إبراهيــم (١٩/٢) .

أنس ــ رحمه الله ــ (١٧٩هـ /٧٩٥م) [١] بروايته عن الطرطوشي[٢]، وكـــان يتردد عليه في كل أسبوع ثلاثة أيام ، الخميس والجمعة والسبت . [٣]

وسمع مــن الفقيــه أبــي طــاهر[٤] إســماعيل بــن مكــي بــن عــوف (٥٨١هـ/١١٨٥م) [٥] وسمع من الإمام ابي الحسن ، علي بن إبراهيم بن مســلم الأنصاري ، ابن بنت أبي سعد والعلامة أبي محمد [٦] عبد الله بن بري النحــوي (٥٨٢هـ /١١٨٦م) ، وأبي الفتح [٧] محمود بن أحمد الصــابوني ، [٨] وذلــك بمصر، وسمع بدمشق من مسعود بن محمد النيسابوري (٥٧٨هـــ/١١٨٢م) ،[٩] والشيخ أبي القاسم عبد الرحيم بن اسماعيل النيسابوري ، والأمير أبـــي المظفــر أسامة بن منقذ الكناني (٥٨٤هـ/١١٨٨م) [١٠] وغيرهم .

---

[١] ابن واصل : مفرج الكروب (١١٢/٢) ، ابن كثير : البداية والنهاية (٣٢٩/٦) ، الذهبي : تاريخ الإســلام حوادث، حوادث (٥٦١،٥٧٠) ، ص٣٠ .

[٢] محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان الفهري الطرطوشي فقيه أندلسي مالكي نزيل الاسكندرية سمع منه أبي طاهر السلفي وغيره توفى سنة (٥٢٠هـ/ م)، صنف كتبا في الفقه والخلاف منها : كتابه في البدع والمحدثات ، وبر الوالدين ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٢ ص١١٣ ، ابن الملقن : الديباج المذهب ص٣٧١ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٥ ص١٧٥.

[٣] أبو شامة : الروضتين ج١ ص٦٨٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص (٥٥،٥٦،٥٧) ، المقريــزي : السلوك ج١ ص (٦٢،١٩٤) .

[٤] اسماعيل بن مكي بن اسماعيل بن عيسى بن عوف القرشي الاسكندري ، فقيه مالكي ، برع في المذهب وقرأ الناس عليه توفي سنة (٥٨١هـ/١٢٨٥م) ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٩ ص٢٢٨ ، ابن الملقن : الديباج المذهب ص١٥٧.

[٥] ابن شداد : النوادر السلطانية ص٣٦ ، المقريزي : السلوك ج١ ص١١٣ ، المرتضى الزبيدي : ترويــح القلوب ص٦٨ .

[٦] عبد الله بن بري بن عبد الجبار بن بري النحوي ، كان من علماء النحو واللغة المشهورين في ذلك العصر له مصنفات منها : (المسائل العشر) وكتاب (الصحاح) وغيرها ، القفطي : أنباه الرواة ج٢ ص(١١٠،١١١) ، ابن العماد : شذرات الذهب ج٤ ص٢٧٣

[٧] محمود بن أحمد بن علي المحمودي الجعفري بن الصابوني ، كان من رواة الحديث ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١ ص١٦٣ .

[٨] المقريزي : السلوك ج١ ص ١١٣ ، الزبيدي : المرتضى ، ترويح القلوب في أخبار بني أيوب ، الطبعــة الثانية ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٨٣م ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ص٦٨ .

[٩] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٧٣٥،٧٣٩) .

[١٠] المرتضى الزبيدي : ترويح القلوب ص٦٨

وعندما دخل العلامة يوسف بن رافع المعروف بابن شداد (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) إلى دمشق طلبه السلطان صلاح الدين ، وسمع عليه شيئا من الحديث ، بل كان لا يفارقه حتى في غزواته .[1]

كما كانت له عناية بعلم الفقه ؛ فقد كان يحفظ كتاب التنبيه في الفقه[2]، وذكر ابن شداد أنه قرأ عليه كتاباً مختصراً في الفقه من تصنيف الفقيه سليم الرازي[3] (٤٤٧هـ /١٠٥٥م) يشتمل على الأرباع الأربعة في الفقه[4] .

وكانت له عناية بعلوم اللغة العربية ، والأدب، ونقد الشعر؛ حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بكاملها ،[5] ومن العلماء الذين تلقى على أيديهم علوم اللغة العربية محمد بن أبي السعادات عبد الرحمن بن محمد بن مسعود البندهي المسعودي (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م)؛ فقد كان يحدد له وقتاً ليجتمع به ويتعلم منه[6] .

لقد كان ـ رحمه الله ـ شديد التمسك بأمور الدين ؛ يقال إنه كان يحفظ القرآن[7]، ويداوم على قراءته، وسماعه، وتعلمه ، وان يكون ذلك التعلم على عالم حافظ متقن .[8]

كما « كان حافظاً لأنساب العرب وخيولهم ، عالماً بعجائب الدنيا، ونوادرها؛ بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمعه من غيره » .[9]

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص (٢٧،٢٨) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٤٢٦.

(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص (٣٣٩،٣٤٠)

(٣) هو سليم بن أيوب بن سليم الرازي ، أحد أئمة المذهب الشافعي من كبار تلامذة الإمام أبي حامد الغزالي ، أرسل من بغداد إلى الشام ودرس بها توفي سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) ، ابن عساكر : تبيين كذب المفتري ص٢٦٢ ، القفطي : أنباه الرواة ج٢ ص٦٩ ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٤ ص(٣٨٨، ٣٨٩)

(٤) ابن شداد : النوادر السلطانية ص (٧،٨) ، أبو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج٢ص١٧٤.

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص (٧،٨) ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٧٣٥،٧٣٩)

(٦) البنداري : سنا البرق الشامي ص ١٨٤

(٧) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص (٣٣٩،٣٤٠) .

(٨) ابن شداد : النوادر السلطانية ص (٧،٨،١٠،١١) ، المقريزي : السلوك ج١ ص١١٣ .

(٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٤٢٦،٤٢٧،٤٢٨،٤٢٩) ، وابن شداد : النوادر السلطانية ص (٢٧،٢٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٤٣٨ ،وانظر واحداً من مجالسه مع جملة من علماء=

وكان رحمه الله حريصاً على تربية أولاده وتنشئتهم التنشئة الصالحة مما جعله يقرأ عقيدة مسعود بن محمد النيسابوري (٥٧٨هـ /١١٨٢م) يعلمها أولاده الصغار لترسخ في أذهانهم ، [١] وكان يأخذهم معه لسماع الحديث ، ليحصل لهم سماع الحديث ، وتعمهم بذلك بركته . [٢]

أما الملك الأفضل علي بن يوسف بن نجم الدين أيوب فقد نشأ نشأة علمية يأخذ العلم على كبار العلماء في عهد والده ، حيث سمع الحديث بالاسكندرية من الحافظ أحمد بن محمد بن أحمد السلفي (٥٧٦هـ /١١٨٠م) [٣]، والفقيه أبي طاهر إسماعيل بن مكي بن عوف (٥٨١هـ ١١٨٥م) [٤]، ومن العلامة أبي محمد بن عبد الله بن بري النحوي (٥٨٢هـ / ١١٨٦م) ، ومحمد بن علي بن صدقة الحراني ، وذلك بمصر والشام [٥] .

ومما يدل على تقدمه في علم الحديث أنه حاز إجازة فيه من شيوخ عصره يأتي في مقدمة هؤلاء: أبو الحسن أحمد بن حمزة بن علي السلمي ، وأبو القاسم هبة الله بن علي بن مسعود البوصيري (٥٩٨هـ ١٢٠١م) . [٦]

ومن شيوخه في علم العربية الذين كان يتردد عليهم : العلامة تاج الدين الكندي (٦١٣هـ/١٢١٦م) [٧]، والفقيه اللغوي محمد بن أبي السعادات عبد

=الأنساب ، امثال الشريف الجواني والناصح الحنبلي ، وهو يشاركهم في الأنساب ، ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج١ ص٦٩ .

[١] ابن شداد : النوادر السلطانية ص (٢٨،٢٧) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٤٢٦

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١١٢ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص٦٨٩ .

[٣] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ١١٢ ، أبو شامة : الروضتين ج١ ص٦٨٩ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث، (٥٦١،٥٧٠) ، ص ٣٠

[٤] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٤١٩،٤٢٠) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث، (٦٢١،٦٣٠) ، ص (١١٢،١١٣) .

[٥] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٤١٩،٤٢٠) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث، (٦٢١،٦٣٠) ، ص (١١٢،١١٣) .

[٦] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٤١٩،٤٢٠)

[٧] أبو شامة : الذيل ص (٩٥،٩٦،٩٧،٩٨) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (٧٨،٧٩) .

الرحمن بن محمد بن مسعود البندهي (٥٨٤هـ/١١٨٨م) [١] ، ومع اهتمام الملك الأفضل بعلوم الحديث وعلو كعبه في ذلك ، فقد وصف بحبه للشعر، والأدب ، [٢] وذكر له في ذلك قصائد حسنة [٣] .

أما السلطان العادل أبو بكر بن نجم الدين أيوب ، فقد كان عفيفاً ديناً ، [٤] حسن العقيدة ، ميالاً إلى أهل العلم ، [٥] تلقى علوم الحديث على الحافظ أحمد بن محمد بن أحمد السلفي (٥٧٦هـ/١١٨٠م) [٦] وغيره ، وروى عنه ابنه الملك

---

[١] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص (٣٩٠،٣٩١) ، ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٥ ص (٣٥٢،٣٥٣) .

[٢] أبو شامه : الذيل ص ١٤٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص ١٥٥ .

[٣] يقول الذهبي : (وقيل : كان فيه تشيع) ، ووافقه ابن كثير ، ومنشأ هذه التهمة القصيدة المنسوبة إليه التي يقال إنه أرسلها إلى الخليفة الناصر لدين الله ، عندما أخرجه عمه العادل من دمشق ومنها :

ذي سنة بين الأنام قديمة	أبداً ابو بكر يجور على عليّ
مولاى إن أبا بكر وصاحبه	عثمان ، قد غضبا بالسيف حق علي
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقي	فيه الأواخر ما لاقى من الأول

ولنا عند هذا القول وقفة ، إذ إنه لا يعقل وولده صلاح الدين الذي سقطت على يده دولة الشيعة وكان حريصاً على محو آثارها من مصر والشام ، وقد رباه على علماء كلهم من أهل السنة ، وهذا يستلزم أن يتأثر هذا بشيوخه ، إضافة إلى ذلك أن هذا لم يذكره عنه من عاصره من المؤرخين أمثال : العماد الأصفهاني ، وابن الأثير وغيرهم ، وقد ذكر سبط بن الجوزي أن هذه القصيدة منسوبة إليه ، وقال : ((بلغني أنه كان ينكر هذا الشعر انه له)) ، ولعل قول الصفدي : ((وكان صحيح العقيدة)) إنما هو دفاع عنه ، وذلك يؤكد ما يراه الباحث .

انظر سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٣٧،٦٣٨) ، أبو شامة : الذيل ص١٤٥ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٤١٩،٤٢٠،٤٢١) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦٢١/٦٣٠) ، ص ١١٣ ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣٥٦ ، الصفدي : تحفة ذوي الألباب ج٢ ص ١٠١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ص (١١٦،١١٧) .

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١١١ ، ابن الحنبلي : شفاء القلوب ص١٩٩ .

[٥] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦١١،٦٢٠) ، ص (٢٤٧،٢٥٦) .

[٦] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٧٧٩،٧٩٢) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦١١/٦٢٠) ، ص (٢٤٧،٢٥٦) ، المقريزي : السلوك ج١ ص ١٩٤ .

الصالح إسماعيل ، والفقيه إسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن القوصي (٦٥٣هـ/١٢٦٤م) ، وأبو بكر بن السني .[١]

وكذلك الملك المعظم عيسى بن العادل أبو بكر ، فقد كانت همته عالية في طلب العلم ، [٢] وبرع في علوم عدة ، في الفقه ، والحديث ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، وصنف فيها ، وحفظ المتون ، وجالس العلماء ، وأخذ عنهم ، فمنهم الفقيه محمود بن أحمد الحصيري (٦٣٦هـ/١٢٣٨م) أخذ عنه مذهب أبي حنيفة[٣]، (وصار من المتميزين فيه) [٤] ، وسمع مسند الإمام أحمد على حنبل بن عبد الله بن الفرج بن سعادة الرصافي (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) [٥] بالكلاسة في الجامع الأموي بدمشق ، [٦] وسمعه على المحدث محمد بن عبد الغني المقدسي (٦١٣هـ/١٢١٦م) عندما استحضره من الصالحية ليقرأ عليه الحديث [٧]، وسمع على ابن طبرزد (٦٠٧هـ/١٢١٠م) [٨] أشياء من مسموعاته [٩] .

---

(١) ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٧٨٩،٧٩٢) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦١١،٦٢٠) ، ص (٢٤٧،٢٥٦) ، المقريزي : السلوك ج١ ص ١٩٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٤٩٤ .

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٤٩٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج١ ص ٣٧٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ص (١٣٠،١٣١)

(٥) حنبل بن عبد الله بن فرح بن سعادة الواسطي ثم البغدادي الرصافي راوي (المسند) وكان يكبر بجامع الرصافة ، حدث عنه عدد كبير من العلماء وسمعوا منه المسند ، توفى سنة (٦٠٤هـ/١٢٠٩م) ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١ ص(٤٣١،٤٣٢) ، ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص١٢

(٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٢ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧) ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٤٧٤ ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص٦٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٥٥

(٧) ابو شامة : ذيل الروضتين ص٩٩ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦١١،٦٢٠) ، ص (١٥٨،١٦٢) ، ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص (٩٠،٩١) .

(٨) أبو حفص عمر بن محمد بن معمر بن أحمد البغدادي الدارمزي المهؤدب ويعرف بابن طبرزد ، المسند الكبير سمع السنن وغيرها وسمع عليه الطلبة في بغداد والشام وغيرها توفى سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١ ص(٥٠٧،٥٠٨) ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص٧٠

(٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧) .

ومن شيوخه في السيرة النبوية على بن المحلـــي (٦٢٩هـــ/١٢٣١م) [١] حيث سمع عليه سيرة ابن هشام بمصر [٢] .

ومن شيوخه في اللغـــة والنحـــو والأدب: العلامـــة تـــاج الديـــن الكنـــدي (٦١٣هـ/١٢١٦م) قرأ عليه كتاب ســـيبويه (١٨٠هـــ /٧٩٦م) [٣] نصـــاً، [٤] وشرحه للسيرافي ، [٥] وابن درستويه [٦] (٣٤٧هـ/٩٥٨م) ، وقرأ عليه كتـــاب الحجة في القراءات والإيضـــاح فـــي اللغـــة وكلاهمـــا لأبـــي علـــي الفارســـي (٣٧٧هـ/٩٨٧م) [٧]، وكتاب اللمع لأبي الفتح بن جني (٣٧٢هـــــ/٩٨٢م) ، [٨] وديوان الحماسة لأبي تمام (٢٣١هـ/٨٤٥م) [٩] .

---

[١] الفقيه حسام بن غزي بن يونس المشهور بعلي بن المحلي ، كان أديبا شاعرا توفى (٦٢٩هـ/١٢٣١م) ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٦٠ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج١١ ص٣٤٩

[٢] نفسه : ج٨ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧)

[٣] عمرو بن عثمان بن قنبر ، أخذ النحو على الخليل بن أحمد الفراهيدي ، أحد النحاة الكبار صنف في النحو كتابه المشهور (بالكتاب) توفى سنة (١٨٠هـ/٧٩٦م) ، القفطي : أنباه الرواة ج٢ ص(٣٤٦،٣٦٠)

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص (٩٧،٩٨) .

[٥] الحسن بن عبد الله بن المرزبان أو سعيد السيرافي النحوي ، كان من أعلم النحاه بنحو البصريين ، صنف في النحو واللغة ، منها (شرح كتاب سيبويه) و(أخبار النحاه) وغيرها توفى سنة (٣٦٨هـ/٩٧٨م) ، القفطي : أنباه الرواة ج١ ص(٣٤٨،٣٤٩)

[٦] عبد الله بن جعفر بن دستويه بن المرزبان الفارسي الغسوي النحوي من مشاهير النحاه من المتشددين لمذهب البصريين ، له مصنفات كثيرة في اللغة والنحو منها (الهجاء) وشرح الفصيح و (المقصور والممدود) وغيرها توفى سنة (٣٤٧هـ/٩٥٨م) ، القفطي : أنباه الرواة ج٢ ص(١١٣،١١٤)

[٧] الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان النحوي كان من أمثال العلماء في النحو وصنف فيها كتبا لم يسبق إلى مثلها منها كتاب (التذكرة) و (الإيضاح) و (الحجة) وغيرها كثير توفى سنة (٣٧٧هـ/٩٨٧م) ، القفطي : أنباه الرواة ج١ ص٣٠٩

[٨] عثمان بن جني الموصلي النحوي اللغوي ، كان من تلامذة أبي علي الفارسي له تصانيف مشهورة منها كتاب (اللمع)و (سر الصناعة) و كتاب (الخصائص) وغيرها كثير، استوطن بغداد وعلم بها وتوفى سنة (٣٧٢هـ/٩٨٢م) ، القفطي : أنباه الرواة ج٢ ص(٣٣٥،٣٤٠)

[٩] حبيب بن أوس بن الحارث الطائي ، الشاعر المشهور ، له تصانيف منها (فحول الشعراء)، و (ديوان الحماسة) و (نقائض جرير والأخطل)، وغيرها توفى سنة (٢٣١هـ/٨٤٥م) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص(١١،٢٦)

وكان لشدة شغفه بالعلم يمشي من القلعة راجلا إلى تـاج الديـن الكنـدي (٦١٣هـ/١٢١٦م) ، والكتاب تحت إبطه ، [١] وكـان يحفـظ كتـاب المفصـل للزمخشري (٩٣٨هـ/١١٤٣م) ، [٢] كما أنه عندما امر الفقهاء أن يجـردوا لـه مذهب أبي حنيفة كتبوه له في عشر مجلدات ، فكان دائم الاطلاع فيها ، ولا تفارقه سفرا ولا حضرا ؛ [٣] يقول سبط ابن الجوزي : «وكتب على ظهر كل مجلـدة : أنهاه حفظاً عيسى بن أبي بكر ، فقلت له : ربما يؤخذ هذا عليك لأن أكبر مـدرس في الشام يحفظ (القدوري) [٤] مع تفرغه ، وأنت مشغول بتدبير الممالك، وتكتب خطك على عشرة مجلدات أنك قد حفظتها ، فقال : ليس الاعتبار بالألفـاظ وإنمـا الاعتبار بالمعاني ، بسم الله فاسألوني عن جميع مسائلها ، فـإن قصـرت كـان الصحيح معكم وإلا فسلموا إلى ما قلت ... »[٥] .

وكان حريصا على سلامة معتقده ، فكان يقول : « أنا اعتقادي في الأصول ما سطره أبو جعفر الطحاوي » [٦] ، وكان لا يترك الاشتغال بالعلم حتى وهو فـي الغزو والجهاد ، [٧] كثير الاهتمام بتربية أولاده تربية علمية سليمة ، فكان الملـك الناصر لا يفارقه في مجالسه العلمية . [٨]

---

[١] ابو شامة : ذيل الروضتين ص (٩٧،٩٨)

[٢] محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي النحوي اللغوي المتكلم ، كان بارعا في الأدب والنحو واللغة من أشهر مصنفاته (كتاب الكشاف) و (أسرار البلاغة) توفى سنة (٥٣٨هـ/١١٤٣م) ، السمعاني : الانساب ج٣ ص١٦٣ ، القفطي : أنباه الرواة ج٣ ص٢٦٥

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧) .

[٤] أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر الإمام المشهور بالقدوري كتبه عدة في المذهب الحنفي منها (المختصر) و (الهداية) توفى سنة (٤٢٨هـ/١٠٣٦م) ، القرشي : الجواهر المضيئة ج١ ص(٢٤٧،٢٥٠)

[٥] اليافعي : جامع التواريخ المصرية ورقة ١٨ (أ)

[٦] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣٧٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (١٣٠،١٣١) ، ابـن خلكـان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٤٩٤،٤٩٥،٤٩٦) ، الذهبي : العبر ج٣ ص ١٩٤ .

[٧] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٦،٦٤٧) ، ابن تغري بردي : النجـوم الزاهـرة ج٦ ص ٢٣٧

[٨] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٣٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص ١٤١ .

وله العديد من المصنفات منها كتاب (السهم المصيب في الرد على الخطيب) رد فيه على الخطيب البغدادي (٤٧٣هـ/١٠٧٠م) [١] فيما تكلم به في حق أبي حنيفة في تاريخ بغداد ، [٢] وكتاب (شرح الجامع الكبير) للشيباني (١٨٧هـ/٨٠٢م) [٣] ، وله كتاب في (العروض) ، [٤] وكان ينظم الشعر وله فيه ديوان ، يقول سبط بن الجوزي : إنه ما كان يقيم وزن الشعر في بعض الأوقات ، [٥] وبهذا يظهر تفرده من بين الملوك بالجمع بين مواظبة الغزو والاشتغال بأنواع العلوم [٦] .

ولا ننسى الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ، الذي نشأ في حياة والده ملازماً للاشتغال بالعلوم ، وكان والده يحرص عليه ويحثه على طلبه ، فكان لا يفارق مجالسه العلمية ، [٧] سمع من شيوخ الشام والعراق ، منهم محمد بن أحمد القطيعي وأجاز له أبو الحسن المؤيد بن محمد الطوسي .[٨]

ومع اهتمامه بالحديث وسماعه ، فقد كانت له مشاركات في العلوم العقلية ، وكان من شيوخه الذين قرأ عليهم في ذلك شمس الدين عبد الحميد الخسروشاهي

---

[١] هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد المعروف بالخطيب البغدادي ، صاحب كتاب (تاريخ بغداد) كان من العلماء الكبار والمتبحرين في العلم توفى سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص(٩٢،٩٣)

[٢] سبط بن الجوزي : مرئة الزمان ج٨ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧) ، المقريزي : السلوك ج١ ص ٢٢٤ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٣٧ .

[٣] هو الإمام محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني ، من أئمة المذهب الحنفي الأوائل صاحب كتاب (الجامع الصغير والجامع الكبير) في المذهب ، توفى سنة (١٨٧هـ/٨٠٢م) ، القرشي : الجواهر المضيئة ج٣ ص(١٢٢،١٢٦)

[٤] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧) ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٣٧ .

[٥] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٢٦،٦٤٥،٦٤٧) .

[٦] ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٥٢

[٧] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص٣٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص ١٤١ .

[٨] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (١٢٧،١٢٨) .

(٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) ، وبقي يلازمه مدة . [١] يقول ابن العبري : « كان الناصر داود يتردد إلى شمس الدين الخسروشاهي يقرأ عليه كتاب عيون الحكمة للشيخ أبي على بن سينا » [٢] .

وقد كانت مجالسه لا تخلو من العلماء والأدباء والشعراء ، [٣] يأخذ عنهم العلوم ويشاركهم فيها .

وعندما خرج الناصر إلى بغداد ، حضر في المدرسة المستنصرية ، [٤] وفيها الفقهاء من المذاهب الأربعة ، فبحث معهم في المسائل العلمية واستدل وناظر، واعترض؛ [٥] مما يشهد له بتضلعه في الفقه .

وصف بالنظم والنثر [٦] وجودة الشعر ، فمن شعره قوله :

عيون عن السحر المبين تبين ... لها عند تحريك القلوب سكون
تصول ببيض وهي سود فرندها ... ذبول فتور والجفون جفون

---

[١] ابن أبي أصيبعه : عيون الأنباء ص (٦٤٨،٦٤٩) ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (١٤٨،١٥٣) ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص (١٩٢،١٩٣) .

[٢] تاريخ مختصر الدول ، نشرة الأب انطوان صالحاني اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٨٩٠م ص ٢٥٤ .

[٣] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ١٤٥ .

[٤] هي أشهر المدارس الإسلامية في العراق تنسب إلى مؤسسها الخليفة العباسي المستنصر بالله العباس ، شرع في إنشاءها سنة ٦٢٠هـ ، وهي أول مدرسة جمعت في نظام التدريس بها بين المذاهب الأربعة الحنفي ، والشافعي ، والمالكي والحنبلي ، ناجي معروف : تاريخ المدرسة المستنصرية ج١ ص(١،٣٠)

[٥] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (١٤٨،١٤٩،١٥٠،١٥١،١٥٢،١٥٣) ، يذكر ابن واصل أن الملك الناصر في تلك الرحلة وبينما كان حاضرا في المدرسة المستنصرية وكان الخليفة يطل عليهم من روشن، حضر رجل من الفقهاء ومدح الخليفة بقصيدة منها :

لو كنت في يوم السقيفة حاضراً ... كنت المقدم والإمام الأروعا

فغضب الناصر داود من قول الفقيه ذلك لأنه أساء الأدب مع أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والمهاجرين، والأنصار رضي الله عنهم الذين كانوا يوم السقيفة ، وجعل الخليفة المستنصر مقدما عليهم ، فقال الملك الناصر للفقيه : (أخطأت فيما قلت كان ذلك اليوم جد سيدنا ومولانا الامام المستنصر بالله العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضراً ولم يكن المقدم والإمام الأروع إلا أبابكر الصديق رضي الله عنه فأصدر الخليفة أمره بنفي الفقيه من بغداد فنفي ، مفرج الكروب ج٥ ص (١٠٧،١٠٨) .

[٦] ذكر اليونيني أن له رسائل فيها أشياء حسنة ومعاني جيدة .

إذا ما رأت قلباً خلياً من الهوى تقول له كن مُغرماً فيكون [١]

وكذلك الملك الأشرف ، موسى بن العادل أبو بكر بن أيوب ، كان ممن وصف بحبه للعلماء والعناية بأماكن التعليم ، أخذ العلم على كبار شيوخ عصره ، وطلب الحديث ، ومن شيوخه فيه المحدث ابن الزبيدي الحسين أبي بكر (٦٣١هـ/١٢٣٣م) سمع عليه صحيح البخاري في قلعة دمشق ، [٢] والفقيه المحدث محمد بن أحمد بن عبد الله اليونيني (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) ، [٣] أما شيوخه في الفقه: فمنهم العلامة سبط ابن الجوزي يوسف بن قزواغلي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) ، والفقيه عبد العزيز بن عبد السلام ، الذي كان يقرأ عليه كتابه (مقاصد الصلاة) في اليوم ثلاث مرات . [٤]

أما الملك الكامل ، محمد بن أبي بكر بن أيوب فقد كان ممن أظهر اهتمامه بالعلم والعلماء ، وكان يؤثر مجالستهم ، ويؤكد هذا الإهتمام شغفه بعلم الحديث ، فقد حدث بالإجازة عن أبي محمد عبد الله بن بري النحوي (٥٨٢هـ/١١٨٦م) ، وأبي القاسم هبة الله بن مسعود البوصيري (٥٩٨هـ/١٢٠١م) [٥].

ومما يدل على تضلعه في العلم أنه كان يدعو العلماء ويمتحنهم بمسائل في الفقه والنحو ، [٦] ومن شيوخه الذين سمع عليهم الفقيه المحدث محمد بن أحمد بن عبد الله اليونيني (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) ، حيث استدعاه للحضور من بعلبك إلى دمشق فنزل عنده ، وتعلم واستفاد منه كثيرا ، وتذاكر معه مسائل في العلم . [٧]

وكانت القلعة عنده بمصر تغص بالعلماء ، أمثال الجمال اليمني النحوي ، والفقيه عبد القادر عبد الظاهر الحراني الحنبلي (٦٣٤هـ/١٢٣٨م) وأبي

---

[١] ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص (١٩٢،١٩٣) .

[٢] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٨٤٥،٨٤٦) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦٣١/٦٤٠) ص ٤٦،٤٩،٥٠ .

[٣] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص (٢٧٠،٢٧١) .

[٤] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص ٢٣٩

[٥] المقريزي : السلوك ج١ ص (٢٥٨،٢٥٩) ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٢٠١

[٦] نفسه ج١ ص (٢٥٨،٢٥٩)

[٧] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص (٢٦٩،٢٧١)

الخطاب عمر بن حسان بن علي بن دحية (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) وغيرهم ، [١] ومن مصنفاته في علم الحديث: (مختصر صحيح مسلم) في خمسة مجلدات . [٢]

وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد غازي بن أيوب ممن وصف بحبه للعلماء وإكرامهم ، لقي الشعراء في دولته أعظم مكانة [٣] طلب العلم على أشهر علماء عصره ، لكن المصادر لم تمدنا بذكر أسماء العلماء الذين أخذ عنهم سوى ذكر بعضهم من الذين كانوا في خدمته . [٤] ولعل الأدب كان من أهم العلوم التي نالت منه العناية والإهتمام ؛ [٥] لذلك كان الشعراء لا يغادرون مجالسه ، وكان ينظم الشعر وله فيه قصائد حسنة ، [٦] فمن شعره المخمس :

أقول وقد غنت بباب لعلع مُطوقة ما نوحها من تفجع

وقد أحرقت في القلب نار التوجع حمامةُ غُصن البان إن كنت تدَّعي

فراق حبيب بان من غير مرجع

فهلا أذبتَ الجسم من بُعْده عني لها بالحزن عن ذا الغنى غنى

أورقاء إن كانَ الهوى منك ينتسي فأين البُكا والوجدُ والشوق والضنا؟

ولون مُحب مستهام موجع؟ [٧]

ومما يسترعي انتباه الباحث كثرة العلماء المجتمعين في دمشق في هذا العصر والوافدين غليها ، الأمر الذي يعكس لنا الصورة المشرقة للازدهار العلمي والفكري الذي تعيشه دمشق ؛ حيث اجتمع فيها جمهرة من العلماء، والأدباء والمفكرين ما لم نره في عصر من العصور ، ويمكن أن نعلل ذلك بما يلي :

---

[١] المقريزي : السلوك ج١ ص (٢٥٨،٢٥٩)

[٢] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص ٢٧١

[٣] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٨٧٩،٨٨٠) ، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنبـاء ص٦٣٧ ، الصفدي : تحفة ذوي الألباب ج٢ ص ١٤٦ .

[٤] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٦٣٧ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص (١٠،١١،١٢،١٣)

[٥] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٤٦٤ ، الصفدي : تحفة ذوي الألباب ج٢ ص ١٤٦ ، اليافعي : مرآة الجنان ج٤ ص (١٥١،١٥٢)

[٦] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص٤٦٦

[٧] نفسه ج١ ص (٤٦٧،٤٦٨)

ـ رغبة سلاطين بني أيوب في طلب العلم ، والاشتغال به ، وأخذه عن كبار حملته في أرجاء العالم الإسلامي .

ـ كثرة المراكز، والمعاهد العلمية التي ساهم السلاطين، وأفراد المجتمع في إنشائها ؛ مما كان له أكبر الأثر في استقطاب كثير من العلماء إلى دمشق .

ـ الإنفاق بسخاء على مرافق التعليم ، وعلى العلماء وتشجيعهم ؛ حيث لقوا الحظوة والاهتمام البالغ ؛ وذلك من أكبر العوامل التي دفعتهم إلى التفرغ للعلم والتصنيف .

ـ ومما يلفت نظر الباحث اجتماع نخبة من كبار العلماء على المذاهب الأربعة الأمر الذي أدى إلى إثراء الدراسات الفقهية ، فعقدت المناظرات ، وكثرت المجالس العلمية ، ونشطت الدراسات الشرعية ، وشجع ذلك على التنافس، والتأليف، والبحث كل في مذهبه .

ـ ومن جانب آخر زخرت دمشق بعدد كبير من الأطباء والحكماء والمفكرين الذين صنفوا في كافة العلوم الحكمية من طب ، وصيدلة ، ورياضة ، وعلوم طبيعية ، ولقي هؤلاء من السلاطين والمجتمع بعامة المكانة الرفيعة .

ـ كما أثّرت الوحدة الإسلامية التي سعى صلاح الدين إلى إكمالها ، وساهم العلماء في نجاحها ، وأدى ذلك إلى وجود وحدة فكرية وثقافية بين أقاليم الدولة الإسلامية ، وذلك أمر مهم جداً لاستكمال عملية الإصلاح في كل شئون الحياة .

ولعله لاغرابة أن ينال العلم والعلماء هذا الاهتمام من سلاطين الدولة الأيوبية ، فقد كانوا بأنفسهم طلبة للعلم ، ولا يعرف حق العلماء إلا من عرف قدر العلم ، وما لحملته من أثر قوي على بناء الأمة ومستقبلها .

فقد سعى سلاطين بني أيوب ممن حكموا دمشق إلى العناية بالعلماء، وتعظيمهم، وتقريبهم، وتشجيعهم على البحث والتأليف ، حتى وفد عليهم العلماء من بلدان العالم الإسلامي ، عندما ترامى إلى مسامعهم ذلك التكريم ، يقول الخطيب البغدادي : « لما دخلت دمشق ، وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الإحسان الصلاحي جمعا كثيرا » [1] ؛ ولا عجب من قول الخطيب

---

[1] ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ص ٦٨٦ .

البغدادي فقد لقي العلماء في بلاط صلاح الدين حظوة وعناية كبيرة ، فمن أولئك العلماء الذين احتفى بهم صلاح الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري (٥٧٢هـ/١١٧٦م) [١] ، فكان موقفه معه عندما دخل دمشق خير دليل على مدى حبه وتقديره للعلماء ، وتغليب حقهم على مصلحة النفس والهوى ، [٢] ، فقد كان القاضي كمال الدين يخالف رأيه بتحريه الأحكام الشرعية ، عندما كان السلطان صلاح الدين يتولى الشحنكية بدمشق [٣] ، ولكن عندما دخل دمشق بعد توليه الملك، [٤] أكرمه غاية الإكرام ، ومشى إلى داره ، [٥] وعيَّنه على قضاء دمشق[٦]، وولاه بناء أسوار دمشق ومدارسها ، والبيمارستان . [٧]

ومنهم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهاني (٥٩٧هـ/١٢٠٠م) عندما دخل دمشق لقي نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه ، وكان له بهم معرفة في تكريت [٨] فكرماه [٩]، وكان صلاح الدين يكرمه، ويجله ، وجعله كاتباً له ينوب عن القاضي الفاضل ، [١٠] وكان لا يفارقه حضراً ولا سفراً حتى في أرض الجهاد [١١]، وقد خصه بجامكية[١]

---

[١] البنداري : سنا البرق الشامي ص (١٠٧،١٠٨،١٠٩)

[٢] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٣٢٧

[٣] الشحنه : هي لفظة عربية من شحن بمعنى ملك ، وقد استخدمت في أول الأمر للدلالة على الرابطة من الخيل في البلد لضبط أهله ثم استخدمت لتدل على وظيفة من ينوب عن الحاكم أو السلطان في المدن التابعة له ، وكان يسمى صاحبها رئيس الشحنة : حسن الباشا : الفنون والوظائف على الآثار العربية ج٢ ص٦٢٣ ، دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص(٩٦،٩٧)

[٤] أبو شامة : الروضتين ج١ ص (٦٧١،٦٧٣) .

[٥] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٣٢٧

[٦] أبو شامة : الروضتين ج١ ص (٦٧١،٦٧٣)

[٧] نفسه ج١ ص (٦٧١، ٦٧٣)

[٨] بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص(٣٨،٣٩)

[٩] النبداري : سنا البرق الشامي ص ٢١

[١٠] نفسه ص (٨٩،٩٠)

[١١] ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص ٣٧١

تكفيه ، وأخذ له من الثياب أغلاها وعمامة ونفقة ، سوى ما قرره للعيد من نفقة وكسوة . [٢]

أيضا هناك الفقيه مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري (٥٧٨هـ/١١٨٢م) كان من شيوخه في الحديث ، [٣] جمع له كتابا في العقيدة تجمع ما يحتاج إليه في أمور دينه [٤] .

أما شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة بن الحاج (٥٩٨هـ/١٢٠١م) فقد اتصل بصلاح الدين ، وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، وكان صلاح الدين يحترمه ويجله ، [٥] وصنف باسمه كتاباً أهداه إليه سماه (تهذيب ذهن الواعي في إصلاح الرعية والراعي) [٦] .

أما العلامة الفقيه بهاء الدين بن شداد (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) ، فقد كان من المقربين إليه ، ولقي منه التقدير والتعظيم ، وألف له كتاباً في الجهاد ، [٧] يقول ابن شداد : « وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه ، يحثه على الجهاد، أو يذكر له شيئا من أخبار الجهاد » [٨] .

ومنهم الفقيه محمد بن أبي الحسن بن علي بن الزكي (٥٩٨هـ/١٢٠١م) كانت له منزلة عالية عند السلطان صلاح الدين ، وكان خطيبه يوم فتح بيت المقدس [٩] .

---

(١) جمعها جوامك : هي ما يرتب من مال ومطعم وملبس وغير ذلك ويقال لمن يستحقها أصحاب الجوامك ، الصفدي : تحفة ذوي الألباب ج٢ ص١٤٠ حاشية رقم ٢

(٢) النبداري : سنا البرق الشامي ص ١٠١

(٣) ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٧٣٥،٧٣٩)

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص(١٩٦،١٩٧)

(٥) القفطي : أنباه الرواة ج٢ ص(٧٣،٧٤) ، الأدفوي : جعفر بن ثعلب ، الطالع السعيد الجامع أسماء نبجاء الصعيد ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م ، تحقيق : سعد محمد حسن ص (٢٦٢،٢٦٣،٢٦٤)

(٦) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج٢ ص(٤١١،٤١٢) ، ابن فرحون : الديباج المذهب ص٢٠٨

(٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٥٤

(٨) نفسه ص٥٤

(٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص (٢٢٩،٢٣٤)

وكذلك الفقيه عبد الرحمن بن نصر الشيزري [١] (٥٨٩هـ/١١٩٣م) كان ممن لقي عنده الخطوة البالغة ، وألف كتابا سماه (المنهج المسلوك في سياسة الملوك) يقول فيه عن السلطان صلاح الدين : « كان ممن يرى الأدب وفضله ، ويؤثر العلم وأهله ، جمعت لخزانته هذا الكتاب » [٢] .

ومن بين هؤلاء العلماء الأمير أسامة بن منقذ (٥٨٤هـ /١١٨٨م) يقول عن نفسه : « فناداني إليه مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ... فغمرني بغرائب الرغائب ، وأنهيني من إنعامه أهنى المواهب ، حتى رعى لي بفائض الكرم ... فعطاياه تطرقني وأنا راقد ...» [٣]، وكان السلطان صلاح الدين يأخذه في غزواته ويشاوره فيها . [٤]

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ، وأرباب العلم، والفضل؛ يقول ابن شداد : « كان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين ، حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه » [٥] .

وصل إلى دمشق بعد فتح بيت المقدس الفقيه كمال الدين الشاشي قاضي أرز الروم [٦] فدخل على السلطان فدار مجلس علم ومناظرة ، [٧] ثم أعطاه السلطان بعض سيوفه وملابسه التي كانت معه في حروبه ضد الفرنج ، [٨] وعاد بها إلى بلده .

كما كان للأطباء رعاية وحظوة واهتمام بالغ لدى السلطان صلاح الدين ، نذكر منهم: عبد المنعم بن عمر بن عبد الله الغساني الأندلسي (٦٠٢هـ/١٢٠٧م) الذي

---

[١] الشيزري : المنهج المسلوك ص ١٥٤

[٢] نفسه ص ١٥٨

[٣] أسامة بن منقذ : الاعتبار ص (١٦٤،١٦٥) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص (١٩٦،١٩٧) ، ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٢ ص (١٠٠،١٢٨) .

[٤] البنداري : سنا البرق الشامي ص (١١٠،١١١)

[٥] ابن شداد : النوادر السلطانية ص (٢٥،٢٦)

[٦] هي آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق في شرقها وشمالها منبع الفرات ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص٣٨٤ ، يقول ياقوت الحموي : هي بلدة من بلاد أرمينية ، معجم البلدان ج١ ص١٥٠

[٧] البنداري : سنا البرق الشامي ص ٣٢٥

[٨] نفسه ص ٣٢٥

دخل دمشق أيام السلطان صلاح الدين ، فأكرمه، وأحسن إليه ، [١] وصنف له كتباً منها (منادح الممادح وروضة المآثر، والمفاخر في خصائص الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب) وهي ، منظومة تشتمل على وصف الحروب والفتوح الجارية على يد السلطان صلاح الدين [٢].

والطبيب يوسف بن حيدرة بن الحسن الرحبي (٦٣١هـ/١٢٣٣م) فكان من أطباء السلطان صلاح الدين ، [٣] وقد أحسن إليه وأكرمه ، وجعل له ثلاثين دينارا كل شهر . [٤]

وكذلك الطبيب مهذب الدين بن الحاجب (٥٩١هـ/١٢٩٤م) خدم السلطان صلاح الدين بالطب وجعل له ثلاثين دينارا [٥] .

والطبيب أسعد بن أبي الفتح بن جرجس بن المطران (٥٨٧هـ/١١٩١م) كان نصرانياً فأسلم على يد السلطان صلاح الدين ، وخدمه بالطب ، وألف له كتاب (المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية) [٦] .

كما كانت عنايته بالأدباء ، والشعراء لا تقل بحال عن عنايته بعلماء الشريعة والطب ، فكانوا معه في أسفاره ، [٧] يصلهم بالعطايا السخية ، والأموال الجزيلة ، فيتسابقون إلى نظم القصائد في مدحه ، ولا سيما ميادين الجهاد [٨] ، فمن هؤلاء الأثير الأخسيكي ، كان من أشهر شعراء عصره ، مدحه بستة أبيات من شعره فجاد له بستة آلاف دينار وقال : لو زادني زدته [٩].

---

[١] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص (٦٣٥،٦٣٠)

[٢] نفسه ص ٦٣٥

[٣] نفسه ص (٦٧٣،٦٧٢)

[٤] نفسه ص (٦٧٣،٦٧٢)

[٥] تبين من تقدير صلاح الدين ثلاثين دينارا للطبيب كل شهر مقدار ما يأخذه الطبيب من الرواتب في ذلك العصر ، على أن المعظم عيسى جعل للطبيب في عصره خمسة عشر دينارا .

[٦] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص (٦٥٨،٦٥١)

[٧] البنداري : سنا البرق الشامي ص (١٣٨،١٣٧)

[٨] المقريزي : السلوك ج١ ص ١١٣

[٩] البنداري : سنا البرق الشامي ص ٣٢٧

ومما تذكره المصادر أن شاباً وصل إلى المعسكر ، وكان أديباً ظريفاً مع ضيق ذات اليد ، وعندما سمعه الناس أعجبوا به وأدخلوه على السلطان ، فوجده صاحب أدب وظرف ، فنظم له قصيدة بالفارسية فأجازه بألف دينار ، فطار بها فرحا [١].

ومنهم الفقيه الشاعر محمد بن إسماعيل بن حمدان (٦١٥هـ/١٢١٨م) مدحه بقصيدة وهو في حصاره على الموصل ، فأجازه بثلاثمائة دينار وفرس وخلعة [٢] .

وعضد الدين أبو الفوارس مرهفا (٦١٣هـ/١٢١٦م) الذي كان جليس السلطان وأنيسه ، كتب له ديوان والده أسامة بن منقذ ، وكان السلطان يفضله على سائر الدواوين [٣] .

ومنهم كذلك الشاعر الرشيد بن البوشنجي (٥٨٥هـ/١١٨٩م) ، اتصل بصلاح الدين وعلا شأنه عنده ، وبعثه رسولا إلى الخليفة في بغداد . [٤]

وقد سار الملك الأفضل علي بن صلاح الدين على سيرة والده ، في تعظيم العلماء ، وإكرامهم ، واحترامهم ، [٥] منهم العلامة المقرئ تاج الدين الكندي كان يعظمه ، ويتردد إليه في منزله طلبا للعلم [٦].

والقاضي الفقيه بهاء الدين شداد (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) الذي اعتمد عليه الأفضل بعد وفاة والده واحترمه غاية الاحترام ، كان يشاوره في مهمات الأمور ودقيقها ، حتى طلبه منه صاحب حلب فصار إليه [٧].

---

[١] ابن ابي اصيبعه : عيون الانباء ص ٣٢٧

[٢] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادثج(٦١١،٦٢٠) ص٢٤٠

[٣] البنداري : سنا البرق الشامي ص (١٠٠،١١١)

[٤] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث (٥٨١/٥٩٠) ص ٢١٦

[٥] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٤١٩،٤٢٠)

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين ص (٩٥،٩٦،٩٧،٩٨) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ص (٧٨،٧٩)

[٧] ابن واصل : مفرج الكروب (٣/٨)

ومنهم القاضي ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) ، ترسل له إلى الديوان العزيزي في بغداد [١].

والأديب نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الكاتب (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) ، فقد علا شأنه عنده ، وكان من وزرائه ، [٢] الذين اعتمد عليهم في إدارة الكثير من أموره بدمشق ، وإن كان المؤرخون لا يثنون عليه ويؤكدون أنه كان سبباً في فساد إدارته وذهاب ملكه ، [٣] حيث زين له إبعاد الأمراء والعلماء ، أمثال القاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني وغيرهما [٤].

أما السلطان العادل أبو بكر بن نجم الدين أيوب ، فقد كانت عنايته بالعلماء عظيمة القدر ، [٥] فكان من العلماء الذين قربهم القاضي يونس بن بدران ابن فيروز القرشي (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) فقد عظم شأنه عنده ، [٦] وكانت له المكانة الرفيعة .

وكان إذا دخل عليه العالم أقبل عليه ، وأكرمه ، ورفع قدره ، فالمصادر تذكر أن العلامة القاضي عبد الصمد جمال الدين الحرستاني (٦١٤هـ/١٢١٧م) حين دخل عليه أكرمه ، واعتنى به ، وأسند إليه القضاء ، والتدريس في إحدى مدارس دمشق ، وكان يجلس بين يديه [٧]

---

[١] ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص (٨،٧) ، شرف الدين الأنصاري : قضاة دمشق من خلال كتاب نزهة الخاطر وبهجة الناظر ص(٢٨٢،٢٨١)

[٢] القفطي : بغية الوعاة ج١ ص٣١٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ص (٣٨٩، ٣٩٠،٣٩١،٣٩٢)

[٣] ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص(١٠،١١،٢٧،٤٠،٥٥) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٨١/٥٩٠) ص(٩٨،٩٩) ، المقريزي : السلوك ج١ ص (١١٥،١١٦،١١٨،١١٩) .

[٤] ابن واصل : مفرج الكروب ج٣ ص (١٢،١٣،١٤)

[٥] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦١١/٦٢٠) ص (٢٤٧،٢٥٦) ، المقريزي : السلوك ج١ ص ١٩٤

[٦] ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٢ ص (٩٧،٩٨)

[٧] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٥٨٩،٥٩٠،٥٩١) ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص(١٠٦،١٠٧) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث، (٦١١/٦٢٠) ص(١٩٣،١٩٧) .

وكذلك الطبيب عبد العزيز بن عبد الجبار بن أبي محمد السلمي(٦٠٤هـ/١٢٠٧م) خدمه بالطب وكان له مكانة عنده، وجعل له الجامكية الحسنة [١] .

وعلي بن خليفة بن يونس بن القاسم بن خليفة (٦١٦هـ/١٢١٧م) الذي كان من كبار الأطباء عنده ، وكان له الحظوة والمكانة العالية [٢].

ولم يقتصر إكرامه للعلماء على أهل الشام فقط ، بل امتد أيضاً إلى مشاهيرهم في العالم الإسلامي ، فهذا العلامة محمد بن عمر بن الحسين الرازي المعروف بابن خطيب الري (٦٠٦هـ/١٢٠٩م) [٣] صنف له كتاباً ، وبعث به إليه من بلاد خراسان [٤] وذكر اسمه في خطبة الكتاب ، [٥] فقال : « فإني وإن كنت ساكناً في أقاصي بلاد المشرق إلا أني سمعت أهل المشرق والمغرب مطبقين ومتفقين على أن السلطان المعظم العالم العادل المجاهد سيف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أفضل سلاطين الحق واليقين ، أبا بكر بن أيوب ، لا زالت راياته في تقوية الحق ، والمذهب الحق متصاعدة إلى عنان السماء ... فأردت أن أتحفه بتحفة سنية ، وهدية مرضية فأتحفته بهذا الكتاب الذي سميته : أساس التقديس على بعد الدار وتباين الأمصار » [٦] ، فأجازه عليه بألف دينار. [٧]

---

[١] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص٦٧١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص(٦٠،٦١،٦٢)

[٢] ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ص (٧٣٦،٧٣٨)

[٣] هو فخر الدين الرازي العلامة المشهور صاحب التصانيف ، شافعي أشعري ، من أشهر مصنفاته (كتابه في التفسير) و (المحصول) في أصول الفقه وغيرها كثير ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ ص(٢٤٨،٢٥٩)

[٤] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦١١/٦٢٠) ص(٢٤٧،٢٥٦) ، المقريزي : السلوك ج١ص١٩٤ .

[٥] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص (٧٤،٧٥،٧٦،٧٨)

[٦] أساس التقديس ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الكتاب الثقافية ١٤١٥هـ ، ص (١٣،١٤)

[٧] الصفدي : تحفة ذوي الألباب ج٢ ص ١٠٥

أما السلطان المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، فقد احتل العلماء عنده مكانة عظمى ، وبالغ في إكرامهم ، وكان عنده جماعة لا يفارقونه سفراً ولا حضراً [١]، وكان سخاؤه وكرمه داعيين لاجتذاب العلماء ، والطلاب من أنحاء العالم الإسلامي [٢]

وكان له اهتمام بالغ وعناية فائقة بعلوم اللغة العربية ونشرها ، والحث على التأليف فيها ، وحفظ متونها ، وبذل الجوائز ، لذلك نشطت الدراسات النحوية في زمنه ، وتنافس رجال النحو على وضع المصنفات في هذا العلم؛ [٣] فكان يقول : من حفظ (الإيضاح) لأبي علي الفارسي في النحو أعطيته مائتي دينار ، [٤] ومن حفظ (المفصل) للزمخشري أعطيته ثلاثين دينارا ، [٥] فحفظ ذلك جماعة من الطلاب فوفى لهم بشرطه [٦].

ويتجلى اهتمامه بعلم اللغة ، أنه أمر أن يجمع له كتاباً جامعاً يشتمل على (صحاح الجوهري)[٧]، ويضاف إليه ما فات الصحاح من(التمهيد) للأزهري [٨]، و (الجمهرة) لابن دريد [٩] .

---

[١] ابن واصل : مفرج الكروب ج٤ ص٢١٤

[٢] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص (٣٧٥،٣٧٤) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٤٩٤ .

[٣] انظر الفصل الخامس الدراسات النحوية واللغوية .

[٤] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٧،٦٤٥،٦٤٤) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٤٩٦،٤٩٥،٤٩٤) ، الذهبي : العبر ج٣ ص ١٩٤ .

[٥] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (١٣١،١٣٠) ، الذهبي : العبر ج٣ ص ١٩٤

[٦] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٧،٦٤٥،٦٤٤) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٤٩٦،٤٩٥،٤٩٤) ، ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج١ ص ٢٢٤ .

[٧] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٤٩٦،٤٩٥،٤٩٤) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص(١٣١،١٣٠)

[٨] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص (٣٧٥،٣٧٤) ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٧،٦٤٥،٦٤٤)

[٩] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (١٣١،١٣٠) ، الذهبي : العبر ج٣ ص ١٩٣

ومن علماء اللغة الذين احتفى بـــهم ، اللغــوي النحــوي تــاج الديــن الكنــدي (٦١٣هـ/١٢١٦م) كان من شيوخه في علم اللغة ، [١] وأبي الحسن يحيى بن عبد المعطي المغربي (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) ، أكرمه وولاه النظر في مصالح المساجد[٢]

إلى جانب ازدهار علوم اللغة العربية في عصره فإن علمي الفقه والحديــث قد حظيا أيضا باهتمامه ورعايته ، فكان يحــب الفقــهاء والمحدثيــن ، ويحثــهم ويشجعهم على الاشتغال [٣] والبحث ، وكان يقول : من حفظ (الجــامع الكبــير) للشيباني أعطيته مائة دينار ، [٤] كما أنه أمر الفقهاء أن يجردوا له مذهــب أبــي حنيفة على الخصوص ، فجردوه له في عشرة مجلدات وسماه (التذكرة) [٥] .

واهتم بعلماء الحديث غاية الاهتمام ، [٦] وكان يجالسهم ويكرمهم ، وأمرهم أن يرتبوا له مسند الإمام أحمد على أبواب الفقه ، [٧] ويردوا كل حديث إلى بابــه الذي يخصه ؛ بمعنى أن تجمع أحاديث الطهارة ، وكذلك يفعل بالصلاة والرقائق ، والتفسير ، والغزوات ، فيكون كتاباً جامعا ، [٨] فقعد العلماء في الكلاسة لــه ، [٩] وتولى ذلك المحدث عبد الله بن عبد الغني المقدسي (٦٢٩هـ/١٢٩١م) ، ومعــه جماعة من المحدثين منهم الشرف الأربلي (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) [١٠] وغيره .

ومن علماء الحديث الذين نالوا الحظوة والإكرام لــدى الســلطان المعظــم عيسى ، العالم المحدث الحسن بــن محمــد البكــري النيســابوري

---

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧)

(٢) ابن معطي : أبي الحسن يحيى بن عبد المعطي ، الفصول الخمسون ، مطبعــة عيســى البــابي الحلبــي وشركاؤه ، تحقيق : محمود محمد الطناحي ص١٤ ، مقدمة المحقــق ، والقفطــي : أنبــاه الــرواه ج٤ ص (٤٤،٤٥) ، اليافعي : مرآة الجنان ج٤ ص٦٦ .

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧) ، ابن خلكــان : وفيــات الأعيــان ج٣ ص (٤٩٤،٤٩٥،٤٩٦) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص (١٣٠،١٣١)

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧) ، الذهبي : العبر ج٣ ص١٩٤

(٥) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧)

(٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص٣٨

(٧) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ج٨ ص(٦٤٣،٦٤٤)،ابن كثير:البداية والنهاية ج٧ ص(١٣٠،١٣١)

(٨) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٣٧٤

(٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٣،٦٤٤)

(١٠) نفسه ج٨ ص (٦٤٣،٦٤٤)

(٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ، كان يذهب له في سفارات إلى الملوك ، وعظم شأنه عنده،[١] ومن هؤلاء العلماء المحدث حنبل بن عبد الله بن أبي الفرج بن سعادة الرصافي(٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م)،استدعاه من بغداد وسمع عليه الحديث وكان يكرمه وله عنده المنزلة العالية،[٢]أما الفقيه سبط بن الجوزي ، فكان من المقربين لديه ، وكان يحترمه ويجله حتى إنه كان يحضر درسه في جامع دمشق مع العامة .[٣]

وشجع المعظم عيسى حركة التأليف والترجمة ؛ فقد رتب له الحسن بن غريب بن عمران الجرشي مدرجا ـ في نسب بني أيوب ، وقدمه إليه وسمعه منه هو، وولده الملك الناصر [٤] بدمشق .

وعندما قدم عليه الأديب الفتح بن علي البنداري الأصفهاني (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) وقدم له كتاب (الشاهنامة) للفردوسي [٥] أمره بترجمته [٦] يقول في مقدمة الترجمة : « ... حتى صارت أيامه مواسم تجلب إليها بضائع العلوم، والآداب من كل مرمى سحيق ، وتضرب إليها أكباد المطيّ من كل فج عميق ... فأمر مملوكه الفتح بن علي بن محمد الفتح النبداري الأصبهاني أن يترجمه فيحل حكاياته المنظومة ، وينزع عن معاطفها أطمار اللغات العجمية ، ويفيض عليها فضفاض وشائع الألفاظ العربية ، ويكسوها رونق اللسان الذي هو أشرف الألسن المنزل به أفضل الكتب ، والمتناطق به خير البشر ، وخلصان الأمم ... فتصدى المملوك لما ندب له امتثالا للأوامر العالية ... » [٧].

---

[١] الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص (١٤٤٤،١٤٤٥)

[٢] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٤٤،٦٤٥،٦٤٧) ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٤٧٤ ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص٦٢ .

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٦٤٣،٦٤٤) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص١٩٤، الذهبي : العبر ج٣ ص١٩٤

[٤] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص١٤١ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص٣٨

[٥] أبو القاسم منصور بن مولانا فخر الدين أحمد بن فرخ الفردوسي المتوفي سنة (٤١١هـ/١٠٧٠م) تقريبا ، وانظر ترجمة وافية عنه في مقدمة محقق كتاب الشاهنامة ج١ المدخل .

[٦] الفردوسي : الشاهنامة ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م ، تحقيق : عبد الوهاب عزام ج١ ص ٩٨ ، مقدمة المحقق .

[٧] الفردوسي : الشاهنامة ج١ ص (٢،٣)

ومن جانب آخر خدم السلطان المعظم عيسى نخبة من الأطباء الذين نالوا منه العناية، والإكرام فمنهم: مهذب الدين أبو سعيد بن أبي سليمان بن المنى (٦١٣هـ/١٢١٦م) ، [١] ومنهم: أبو المنصور بن أبي الفضل بن علي الصوري (٦٣٩هـ/١٢٤١م) خدمه بالطب ، وكان لا يفارقه حتى في جهاده ضد الفرنج ، حضر معه يوم دمياط ، وألف له كتاب (الأدوية المفردة). [٢]

ومنهم: أبو العباس أحمد بن الخليل بن سعادة الخوي (٦٣٧هـ/١٢٣٩م) استحضره، وسمع كلامه، وأكرمه، وقربه ، وأجرى له جامكية ، وأمره بالإقامة بدمشق لينتفع الناس بعلمه ، وولاه منصب قاضي القضاة . [٣]

وكذلك رضوان بن محمد بن رستم الخراساني الساعاتي (٦١٨هـ/١٢٢١م) ، خدم المعظم وعلت منزلته عنده حتى تولى الوزارة في دولته [٤] كما ونال الشعراء والأدباء منه الإكرام والعطايا ؛ فالشاعر محمد بن نصر المشهور بابن عنين الأنصاري الدمشقي (٦٤٠هـ/١٢٣٢م) كان له المكانة العالية ؛ حتى إنه تولى الوزارة في آخر أيامه [٥]، وعندما مرض كتب إليه بيتين يقول فيهما :

انظر إليّ بعين مولى لم يزل ... يولي الندى وتلاف قبل تلافي

أنا كالذي احتاج ما تحتاجه ... فاغنم ثوابي والثناء الوافي

فجاء المعظم بنفسه إليه يعوده ومعه صرة فيها ثلثمائة دينار [٦].

وكتب له الأديب محمد بن نصر الله بن الأثير (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) مجموعا من شعره ، وجعله ، مع رسائل والده ، وقدمها له . [٧]

---

[١] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص٥٨٩

[٢] نفسه ص (٦٩٩،٧٠٠،٧٠٣)

[٣] نفسه ص (٦٩٩،٧٠٠،٧٠٣)

[٤] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص (٦٦١،٦٦٢)

[٥] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص (١٤،١٥،١٨)

[٦] نفسه ج٣ ص(٤٩٤،٤٩٦) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (١٣٠،١٣١) ، الذهبي : العبر ج٣ ص١٩٤

[٧] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص ٣٩٧

وكان يجيز الشعراء بالجوائز السنية ؛ فعندما قدم عليه شرف الدين راجح الحلي ، ومدحه بعدة قصائد أجازه عليها بأربعين ألف درهم ، بل قد أجازه على قصيدة واحدة بألف دينار مصرية [١].

أما الملك الناصر داود فقد كان ملكا جوادا كريما ، قرب الصالحين، والعلماء، والأدباء ، [٢] ورتب لهم الرواتب الحسنة [٣] من بين هؤلاء العلماء الذين نالوا منه الإكرام، والإنعام: الشيخ الفقيه محمد بن عبد الله اليونيني (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) استدعاه إلى دمشق، وحضر دروسه في زاويته بالصالحية ، وعندما عاد الشيخ إلى بعلبك ، جهزه في محفة عظيمة ، وأرسل معه البغال والأموال [٤].

ومنهم: المحدث جعفر بن علي بن أبي البركات الهمذاني (٦٣٦هـ/١٢٣٨م) استدعاه الملك الناصر إلى دمشق ، فدرس بها، وانتفع الناس به ، وكان يكرمه ويعظمه ، [٥] ومن الأطباء عبد المجيد بن عيسى الخسروشاهي (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) ، كان يلقى منه الحفاوة والإكرام [٦].

ومن الأطباء كذلك الذين لقوا الحظوة عنده: علي بن خليفة بن يونس بن أبي القاسم بن خليفة(٦١٦هـ/١٢١٩م)[٧]خدمه بالطب،وجعل له جامكية ، وأبو المنصور بن أبي الفضل بن علي الصوري (٦٣٩هـ/١٢٤١م) خدمه بالطب، واجرى له جامكية [٨].

---

[١] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ١٤٥

[٢] نفسه ج٢ ص (١٤١،١٤٢،١٤٣) ، ابن تغري بردي: أبي المحاسن يوسف ، الدليل الشافي على المنهل الصافي ، مطبوعات مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى ، مكتبة الخانجي ، تحقيق : فهيم شلتوت ، ج١ص٢٩٦ ، المقريزي : السلوك ج٢ ص ٤١٢ .

[٣] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٤٥

[٤] نفسه ج٢ ص (١٤١،١٤٢،١٤٣) ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص (١٤٣٩،١٤٤٠)

[٥] ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٦٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦٤

[٦] ابن ابي أصيبعة:عيون الأنباء ص(٦٤٨،٦٤٩) ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (١٤٨،١٥٣)

[٧] ابن ابي أصيبعة : عيون الأنباء ص (٧٣٦،٧٣٨)

[٨] نفسه ص (٦٩٩،٧٠٠،٧٠٣)

أما الملك الأشرف موسى بن أبي بكر نجم الدين أيوب (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) فقد لقي العلماء المكانة الرفيعة فكان يكرمهم،[١] وينفق عليهم، ويصلهم بالعطايا،[٢] يأتي في مقدمتهم المحدث الحسين بن أبي بكر الزبيدي (٦٣١هـ/١٢٣٣م) الذي استدعاه من بغداد وسمع عليه الحديث ، وكان يحسن إليه، ويكرمه، ويعظمه.[٣]

أما الفقيه المؤرخ يوسف قزواغلي المعروف بسبط ابن الجوزي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) فقد أحسن إليه وبذل له الأموال ، وكان يحضر مجالس وعظه بدمشق ، [٤] أما الشيخ الفقيه عبد العزيز بن عبد السلام فكان من جلساء السلطان وكان له التقدير والتبجيل [٥].

ومنهم الطبيب إبراهيم بن عبد العزيز بن عبد الجبار السلمي (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) كانت له منزلة عالية عنده وأجرى له جامكية حسنة ، [٦] و محمود بن عمر بن محمد بن إبراهيم الشيباني بن رقيقة (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) خدمه بالطب ، وكان الأشرف يكرمه ويحترمه ، وصنف للسلطان كتابا اسمه (الفريدة الشاهية والقصيدة الباهية)، وشرحها شرحاً بليغاً [٧]

وكان يحث العلماء على التأليف والبحث ؛ فحين أرسل الخليفة كتلب (روح العارفين) هدية إلى الملك الأشرف عرضه على العلماء ليشرحوه فشرحه له الفقيه المؤرخ سبط بن الجوزي [٨].

أما الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) فقد كان ممن أظهر اهتمامه بالعلم والعلماء ، ولقي الأدباء والشعراء في بلاطه كل عناية

---

(١) ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٨٤٥،٨٤٦) ، البداية والنهاية ج١٣ ص١٤٦ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦٣١/٦٤٠) ص (٤٦،٤٩،٥٠)

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧١٤

(٣) ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٨٤٥،٨٤٦) ، البداية والنهاية ج٧ ص ١٤٦ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦٣١/٦٤٠) ص (٤٦،٤٩،٥٠)

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧١٤

(٥) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص ٢٣٩

(٦) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص (٦٧١،٦٧٢)

(٧) نفسه ص (٧٠٣،٧١٧)

(٨) أبو شامة : ذيل الروضتين ص٩٣

ورعاية [١] وأجرى لهم الرواتب ، [٢] وإذا مات أحدهم أجرى ذلك في ذريته ، [٣] ومن هؤلاء: الطبيب يحيى بن إسماعيل الأندلسي البياسي أجرى له رواتب يأخذها إلى وفاته . [٤]

وقد صنف له العلامة صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسن البصري (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) [٥] كتاب (الحماسة البصرية)، وأرسله إليه ، قال عنه السلطان : « من تأمل الحماسة وجد جامعها غواص بحر ، فياض بر ، نور له توفيقه في ظلمات بحره ، وسهل عليه مستوعر بره ... » ، وقد أهدى منه نسخة إلى المستعصم أخر خلفاء بني العباس [٦]، وصنف له الشيخ محمد بن طلحة النصيبي (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) كتاب (نفائس العرائس لمجالس الملك الناصر) ، ذكر أن السلطان طلب منه ذلك [٧].

اتصل به الشعراء فأكرمهم ونالوا منه العطايا الحسنة ، [٨] كالشاعر المشهور البهاء زهير (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) الذي اتصل به بعد وفاة والده الملك الصالح إسماعيل وكان له قصائد يمدحه فيها.[٩]ومن هؤلاء الشعراء يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله الذهبي(٦٨٠هـ/١٢٨١م) الذي كان من شعراء بلاطه،[١٠] وكذلك الأديب الشاعر محمد بن محمد بن رستم الأسعردي(٦٥٦هـ/١٢٥٨م)كان من جلسائه فأكرمه وخلع عليه وقربه [١١].

---

[١] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ١٤٢ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٨٧٩،٨٨٠)

[٢] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ١٤٢

[٣] نفسه ج١ ص ١٤٢

[٤] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص٦٣٧

[٥] صدر الدين البصري : الحماسة البصرية ج٢ ص (٩،١)، المقدمة .

[٦] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٤٦٤

[٧] حاجي خليفة : كشف الظنون ج٢ ص ٧٦٧

[٨] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ١٤٢

[٩] نفسه ج١ ص ١٨٧ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٣ ص ٢٧٦

[١٠] نفسه ج٤ ص (١٣٤،١٣٥،١٣٦)

[١١] ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٣ ص ٢٨٤

وإن من مظاهر العناية بالنشاط العلمي ، ما ميز عصر الدولة الأيوبية عن غيره ، كثرة مراكز العلم والإنفاق عليها ، تجلى ذلك في عناية السلاطين من أبناء البيت الأيوبي بإنشاء المدارس ودور العلم بدمشق ، وبذل الأموال لها ، فكثرت الأوقاف على المساجد ، والمدارس ومرافق التعليم مما ساهم في جذب العلماء وطلاب العلم إليها ، يقول ابن جبير : « حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه ، وكل مسجد يستحدث بناؤه، أو مدرسة، أو خانقاة يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها » [١] .

ولنا هنا أن نبرز دور السلاطين في اهتمامهم بمراكز التعليم والعناية بها ، نتناولها على النحو التالي :

أولا : العناية بالمساجد :

حظيت المساجد في دمشق بعظيم العناية من قبل سلاطينها فعلى عهد نور الدين محمود بن زنكي تذكر المصادر أنه طلب إحصاء مساجد دمشق وأعمالها ، فأنافت عن مئة مسجد ؛ فأمر بعمارة ذلك كله [٢]، وعلى ذلك سار السلطان صلاح الدين في العناية بعمارة المساجد وترميمها ، [٣] فمن ذلك: ترميم الجامع الأموي؛ حيث رمم منه دائرة قبة النسر ، والرفوف المستديرة عليها ، والفص المذهب ، والطاقات ، تولى له ذلك قاضي القضاة بالشام محي الدين محمد بن علي بن محي الدين بن يحيى القرشي (٥٩٨هـ/١٢٠١م) [٤] .

كما قام بتجديد عمارة الكلاسة بالجامع نفسه سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م) وساق فيه الماء مضافا إلى ما كان فيه [٥].

---

[١] ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٨

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص٢٨١ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص٣١٢، المنجد : الوهراني ورفقته عن مساجد دمشق ، مجلد المجمع العلمي العربي المجلد الأربعون شعبان ١٣٨٤هـ

[٣] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج١ ص (٧٦،٧٧،٧٨)

[٤] نفسه ج٢ ص (٧٦،٧٧،٧٨)

[٥] نفسه : ج٢ ص (٧٦،٧٧،٧٨) ، النعيمي : الدارس ج١ ص٤٤٧ ، بدران : منادمة الأطلال ص (١٤٤،١٤٥)

وأوقف السلطان صلاح الدين بعض القرى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة ، أو من يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسي (٤٩٠هـ/١٠٩٦م) ــ رحمه الله ــ وعلى من هو شيخهم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعي وجعل النظر فيه لقطب الدين النيسابوري ، [١] يقول أبو شامة : « رأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة وعليه علامة السلطان ــ رحمه الله ــ (الحمد لله وبه توفيقي) » . [٢]

وكان يجري على الطلاب فيه من الأرزاق كل يوم ما يكفيهم ويسد حاجتهم، إذ يبلغ عدد المجتمعين فيه ما يزيد على خمسمائة طالب ، [٣] يتفرغون بعدها لطلب العلم ، كما جعل فيه للمدرسين رواتب وجرايات واسعة ، [٤] وللصبيان الذين يتعلمون القرآن الكريم بالجامع رواتب معلومة وثابتة . [٥]

وأمر السلطان صلاح الدين أن يجدد عمارة مسجدين بدمشق أحدهما بسويقة باب الصغير ، والآخر بالباب الشرقي من دمشق ، يعرف بمسجد النخلة [٦] .

وعندما أعزه الله بالنصر على الصليبيين وفتح بيت المقدس ، طهره من كل الأرجاس والمنكرات التي جعلها الفرنج فيه ، فعمر المسجد الأقصى ، وترتب فيه الأئمة والخطباء والعلماء وجعل لهم رواتب ، وأوقف لهم الأوقاف (دارا ، وأرضا ، وبستانا) وحمل إليه المصاحف والختمات [٧] .

أما السلطان العادل أبو بكر بن أيوب (٦١٥هـ/١٢١٨م) ففي أيامه تم تبليط الصحن الخارجي للجامع الأموي ، تولى ذلك الوزير الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، وذلك في سنة (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، وتم تبليط الأروقة الداخلية للجامع سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م)

---

[١] ابو شامة : الروضتين ج١ ص ٦٧٥

[٢] نفسه ج١ ص ٦٧٥

[٣] ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٤

[٤] نفسه : ص ٢٤٥

[٥] نفسه ص ٢٤٥

[٦] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج٢ ص (٧٦،٧٧،٧٨)

[٧] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص (٢٢٩،٢٣٠) .

تولى ذلك الوزير جمال الدين الإسكندري المعروف بابن فارس [١] . وفي سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) تم إكمال تبليط الأروقة الداخلية للجامع ، وكان ذلك بتولي المعتمد مبارز الدين إبراهيم ، وجاء هذا فوضع آخر بلاطة منه بيده عند باب الزيادة فرحا لذلك [٢] .

وفي سنة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) قام العادل ببناء جامع المصلى ، واهتم بعمارته غاية الاهتمام ، [٣] فجعل له أربعة جدر مشرفة ، وجعل له أبوابا ، صونا له من الميتات ونزول القوافل ، وجعل في قبلته محراباً من حجارة ومنبراً من حجارة ، وعقد فوق ذلك قبة ، [٤] وفي سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م) عمل في قبلته رواقان،وعمل له منبر من خشب،[٥]ورتب له خطيباً وإماماً راتبان[٦].

وقام السلطان المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب ، في سنة (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) بتجديد المقصورة التاجية من الجامع الأموي (مقصورة بن سنان) وهي للأحناف ، وجدد بعض جدرانه وكساها بالرخام . [٧]

أما السلطان الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) ، فإنه قام ببناء الجوامع وترميمها والعناية بها ، فمن ذلك بناؤه مسجد أبي الدرداء ــ رضي الله عنه ــ بالقلعة ، وجامع بيت الآبار ، [٨] وجامع التوبة ، وجامع الجراح ، وأوقف عليها الأوقاف الحسنة ، [٩] وتذكر

---

[١] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٧٢

[٢] نفسه ج٧ ص٧٢

[٣] نفسه : البداية والنهاية ج١٣ ص (٧٧،٦٣)

[٤] النعيمي : الدارس ج٢ ص٤١٩

[٥] نفسه : ج٢ ص ٤١٩

[٦] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (٧٧،٦٣)

[٧] ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ج٢ ص (٧٨،٧٧،٧٦)

[٨] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٢ ص ٧١٤ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٨٤٥،٨٤٦)

[٩] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٢ ص ٧١٤ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج٢ ص (٨٨،٨٧)

المصادر أنه أوقف على جامع الجراح ، قرية من أعمال دمشق تعرف بالزعيفنية، وشرط فيها للخطيب بالجامع في كل شهر خمسين درهما ، ولعشرة نفر من القـواء في كل شهر، لكل منهم عشرة دراهم [١].

وكان ينفق على العلماء وتصل عطاياه إلى الجوامع والزوايا والربط ، بـــل وقد تجاوز بها إلى أعمال دمشق المزة ، وبيت الآبار والصالحية [٢]

---

[١] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج٢ ص ٨٨ ، النعيمي : الدارس ج٢ ص ٤٢٠

[٢] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٢ ص ٧١٤

ثانيا : العناية ببناء المدارس :

كثر بناء المدارس في العصر الأيوبي ، مما يشير إلى شدة عنايتهم بـها ، وكان سلاطين الدولة يهدفون من وراء إنشاء المدارس ، والتوسع فيـها بمصر والشام ، إحياء مذهب أهل السنة ، ونشر العلم ومحاربة المذهـب الشـيعي ، [١] فالسلطان صلاح الدين ركز جهده في إنشاء المدارس على مصر لانتشار المذهب الشيعي بها، ولكن لم يقتصر بناؤه للمدارس على مصر وحدها ، بل شمل بلاد الشام أيضا، إذ تذكر المصادر أنه بنى مدرسة في بيت المقدس ، وأوقف عليها أوقافا كثيرة ،[٢] أما دمشق فلم يكن له بها من المدارس إلا المدارس التي بناها نور الدين محمود بن زنكي ، ثم نسبت إليه ،[٣] ربما لأنه قد زاد فيها ، وأوسع أوقافها ، [٤] ولعل السبب في قلة مدارسه بدمشق ، انشغاله بأمر الجهاد ، أو لأن الغاية من بنائها إنما تحققه مدارس مصر ، وكان ينفق على فقهاء المدارس ويكرمهم ويأمر لهم بالأعطيات .

وأما السلطان الأفضل علي ، فإنه بنى مدرسة بدمشق بناها لوالده ولم يتمها وأتمها له أخوه السلطان العزيز عثمان ، [٥] كما تنسب إليه المدرسة ، والأفضلية بالقدس أوقفها على الفقهاء المالكية [٦].

وأنشأ السلطان العادل أبو بكر بن أيوب ، المدرسة العادلية الكبرى ، وتوفى قبل أن يتم بناءها ، فأتمها ابنه المعظم عيسى بن العادل ، وأوقف عليها أوقافا كثيرة ، منها قرية الدريج ، وقرية ركيس ، وقرية بنطا . [٧]

---

[١] ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١١٠

[٢] ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص٢٣٠ ، العليمي : الأنس الجليل ج١ ص٣٤١ ، النعيمي : الدارس ج١ ص (٣٣٢،٣٣١) ،عبد المهدي : عبد الجليل حسن ، المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي ، مكتبة الأقصى عمان ١٩٨١م ج١ ص (١٨٢،١٨١)

[٣] النعيمي : الدارس ج٢ ص ٣٨٢

[٤] العلبي : أكرم حسن ، خطط دمشق ، الطبعة الأولى ، دار الطباع ، دمشق ١٤١٠هـ ص ١٣٢

[٥] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص ٢٠٧

[٦] النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٨٢

[٧] العليمي : الأنس الجليل ج٢ ص ٤٦ ، كرد علي : محمد كرد ، خطط الشام ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النوري بدمشق ١٤٠٣هـ ج٦ ص ١٢٢

وللسلطان المعظم عيسى بن العادل (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) مدرسة بالصالحية تعرف بالمعظمية بناها سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) ، [١] وللسلطان الأشرف موسى بن العادل (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) داره للحديث بدمشق تعرف بدار الحديث الأشرفية ، وقد أوقف عليها الأوقاف ، [٢] ورتب فيها العلماء الكبار في الحديث ، [٣] وبنى دارا أخرى في الصالحية للعلماء الحنابلة ، وجعل لشيخها رواتب [٤] ، كما عمر السلطان الصالح إسماعيل بن العادل (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) مدرسة تعرف بالصالحية، [٥] وبنى السلطان صلاح الدين بن يوسف (الثاني) (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) المدرسة الناصرية داخل دمشق ، [٦] وأخرى بالصالحية هي دار الحديث الناصرية [٧]

وقد شارك بعض أبناء البيت الأيوبي في بناء المدارس ، وتنشيط الحركة العلمية ، نذكر منهم : الأمير اسد الدين شيركوه فقد أنشأ مدرسة جعلها مشتركة بين الشافعية والأحناف [٨] أما فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب فهو من أهل العلم والفضل ، كان شاعراً فصيحاً ، [٩] بنى مدرسة له بدمشق . [١٠] ومنهم الملك الظاهري غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف فإنه بنى مدرسة بمحلة المنيبع خارج دمشق ، ومدرسة أخرى داخل دمشق ، [١١] وأنشأ فلك الدين سليمان

---

[١] النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٥٩

[٢] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ٢١٩ ، النعيمي : الدراس ج١ ص٥٧٩

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٧٦،٦٧٧) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٤٦ ، ابن رجب الحنبلي : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص (١٨٥،١٨٦) .

[٤] النعمي : الدارس ج١ ص ١٩

[٥] نفسه ج١ ص (٤٧،٤٨) ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص (١٥٥،١٦٤)

[٦] النعيمي : الدارس ج١ ص ٤٥٩

[٧] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص (١٤٦،١٤٧)

[٨] أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٤٣٨ ، النعيمي : الدارس ج١ ص (١٥٢،٤٧٣)

[٩] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٣٧٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص (١٢٥،١٢٦) ، الذهبي : العبر ج٣ ص ٧٦

[١٠] ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٣٢ ، الذهبي : العبر ج٣ ص٧٦

[١١] النعيمي : الدارس ج١ ص (٣٤٠،٣٤١)

أخو الملك العادل أبي بكر لأمه ، مدرسة بدمشق، وأوقف عليـــها قريـــة الجمـــان بكاملها [١].

ومن مظاهر الاهتمام والعناية بالمدارس ، أنه إذا فرغ من عمارتها يقام لها افتتاح رسمي ، يحضره السلطان والعلماء والقضاة ، جرى ذلـــك عندمـــا أكمـــل السلطان المعظم عيسى بناء مدرسة والده (العادلية الكبرى) [٢] ، وعندما أكمـــل الشيخ عبد الله بن محمد بن الحسن البادرائي مدرسته بدمشـــــق ، حضـــر الملـــك الناصر صلاح الدين بن يوسف (الثاني) ، وســـــائر أربـــاب الدولـــة والعلمـــاء والقضاة،[٣] ودار خلالها المناظرات العلمية بين العلماء . [٤]

وساهم نساء البيت الأيوبي في بناء المدارس ودور العلم ، وأوقفوا عليـــــها الأوقاف الحسنة ، إذ يذكر ذلك ابن جبير فيقول : « من النســـــاء الخواتيـــن ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة ، وتنفق عليها الأموال الواســـعة وتعين لها من مالها الأوقاف » [٥] ، فمنهن عصمة خاتون بنت معين الدين أنـــر ، زوجة السلطان صلاح الدين الأيوبي كانت من أعف النســـاء وأكرمـــهن ، ولـــها صدقات وبر عظيم ، بنت مدرسة بدمشق، أوقفتـــها علـــى الأحنـــاف ، [٦] ولـــها المدرسة الخاتونية داخل دمشق ، [٧] كما أوقفت رباطاً للصوفية ، وجعلت علـــى ذلك كله أوقافاً كثيرة ، [٨] كما أقامت زمرد خاتون بنت جـــاولي ، أخـــت الملـــك

---

[١] النعيمي : الدارس ج١ ص (٢١٦،٢١٧)

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٣٢ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث، (٦١١،٦٢٠) ص٥٨

[٣] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ٧١ ، ج٢ ص ١٤٢

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٢

[٥] ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٨

[٦] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٣٨٥

[٧] ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص ٣٣٩

[٨] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٣٨٥ ، الذهبي : العبر ج٣ ص ٨٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٩٢

دقماق لأمه ، مدرسة خارج دمشق على القنوات بمحملة صنعاء الشام ، يعرف مكانها بتل الثعالب ، [١] كانت ذات علم ودين ، سمعت الحديث من أبي الحسن علي بن قيس، واستنسخت الكتب ، وحفظت القرآن ، [٢] وقامت ست الشام بنت أيوب ، أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي ببناء مدرسة داخل دمشق وأوقفت عليها أوقافا كثيرة ، [٣] بل كانت تعمل في كل سنة في دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وتفرقه على الناس [٤] .

ومن نساء البيت الأيوبي اللاتي عملن على العناية بالعلم وأهله، وعمارة منشآته ربيعة خاتون بنت أيوب؛ حيث بنت مدرسة أوقفها على الحنابلة بالصالحية، وأجرت عليها اوقافاً عظيمة ، [٥] منها البستان بجسر البط ، والعيطة ، ذكر ناظر وقفها أنها محصورة في عشرين طالباً ، [٦] وأنشأت الست عذراء بنت شاهنشاه ابن أيوب مدرسة بدمشق تعرف بالعذراوية ، [٧] كما بنت أم الملك الصالح إسماعيل مدرسة بالعقيبة تسمى الشامية البرانية أوقفتها على الشافعية [٨]، وأنشأت زهرة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب وهي التي أثر عنها عنايتها بأماكن التعليم والإنفاق عليها المدرسة العادلية الصغرى [٩] ، وأوقفت عليها أوقافا كثيرة وجعلت بها سكنا لنازليها [١٠].

---

[١] ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص ٣٣٩ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٢٤٣،٢٤٤) ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص ١٧١

[٢] النعيمي : الدارس ج١ ص (٥٠٢،٥٠٣)

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٠٤،٦٠٥،٦٠٦) ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص١١٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (١٥٣،١٥٤)

[٤] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٩٢ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٠١

[٥] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٦٥،٦٦٦) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص ٣٣٩ ، ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص ١٩٣

[٦] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص ١٤٢

[٧] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١١ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٥٢٨ ، النعيمي : الدارس ج١ ص (٣٧٣،٣٧٤)

[٨] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٦٥،٦٦٦) ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٢٧٧

[٩] النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٦٨

[١٠] نفسه ج١ ص ٣٦٨

ولبنت الملك المعظم عيسى بن العادل مدرسة بدمشق [١] أوقفت عليها قـوى وضياعاً وبساتين جاء ذلك في نص الوقف الذي كتب على عتبة باب المدرسة ،[٢] وأنشأت عزيزة الدين بنت ماردين زوجة الملك المعظم عيسى المدرسة الماردانية، وأوقفت عليها الأوقاف الحسنة ، منها ثلاثة حوانيت وبستانان أحدهما جوار الجسر الأبيض والآخر إلى جوار المدرسة نفسها [٣] .

---

[١] النعيمي : الدارس ج١ ص ٥٧٦

[٢] نفسه : ج١ ص ٥٧٦ ، الهامش رقم (١)

[٣] النعيمي : الدارس ج١ ص ٥٩٢

المبحث الثاني : اهتمام الوزراء والأعيان بالحركة العلمية :

تمثلت جهود الوزراء، والأعيان في تنشيط الحركة العلمية في بناء المدارس وإنشاء دور العلم ، ووقف الأوقاف التي تقوم بكفايتها ، ورعاية العلماء وإكرامهم، والمشاركة في التأليف وإقامة المجالس العلمية التي تقام فيها المناظرات العلمية والأدبية .

ومن الملاحظ كثرة من تولى الوزارة بدمشق من العلماء ، إذ برز نشاطهم في الحركة العلمية من خلال بناء المدارس ، والإنفاق عليها ، طلبا للأجر والثواب، وتخليد الذكر بعد الممات .

فمن هؤلاء: القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي بن الحسن البيساني (٥٩٦هـ/١١٩٩م) صاحب الفصاحة والبلاغة ، [١] وكاتب صلاح الدين ووزيره ومستشاره بذل ماله في سبيل بناء المدارس، ودور الأيتام ، وشراء الكتب ، بنى مدرستين بمصر ودمشق ، وأوقف عليها الأوقاف ، وكان يفتتح الدرس فيها بنفسه،[٢] ولعل العلاقة الحميمة التي كانت تربط بالعماد الأصفهاني أن جعلت الأخير فيها يطلب منه تعريب كتاب (كيمياء السعادة) للإمام أبي حامد الغزالي فعربه له ، [٣] وجاء ولده أحمد بن عبد الرحيم بن علي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) الذي تولى الوزارة للعادل أبي بكر بن أيوب وبعد وفاة العادل عرضت عليه الوزارة فلم يقبل بها ، وأقبل على طلب الحديث، وسماعه، والتفقه، والتدريس بمدرسة أبيه ، كان كثير الإحسان إلى المحدثين ، أوقف عليهم دار الحديث الفاضلية بالجامع الأموي ، وعين فيها قارئا وعشرة محدثين وشرط أن يكون من الشافعية ، وأوقف فيها خزانة كتب نفيسة . [٤]

ومن الوزراء في الدولة الأيوبية ممن أسهم بدرجة كبيرة في تنشيط الحركة العلمية ، والمشاركة فيها والقيام على صيانة أماكن التعليم ،كا الوزير عبد الله ابن

---

[١] ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص (٣٠،٣١) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص (١٥٨،١٦٢)

[٢] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص (١٥٨،١٦٢)

[٣] البنداري : سنا البرق الشامي ص ١٨٣ ، ابو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٠

[٤] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص ٨٥٣ .

علي المعروف بصفي الدين بن شكر (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) تولى الوزارة للعادل أبي بكر بن أيوب ، ثم تركها ، [١] يقول سبط بن الجوزي : (والمدارس في أيامه عامرة، والأوقاف عليها ظاهرة ، والعلم نافق السوق وأحواله جارية على أحسن نظام) [٢] ، وكانت تقام في مجلسه المناظرات العلمية بين العلماء ، [٣] صنف كتاباً سماه (البصائر) [٤] في الفقه على مذهب الإمام مالك ، [٥] وكانت عنايته مصروفة إلى العلماء والفقهاء والفضلاء والأدباء ، [٦]

وكان القاضي جمال الدين يونس بن بدران (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) يلقى منه كل عناية واهتمام ؛ حيث فوض إليه التدريس في المدرسة الإمينية ، وجعله وكيلا على بيت المال بدمشق ، [٧] والشيخ إسماعيل بن حامد بن أبي القاسم الأنصاري (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) اتصل به وتقدم عنده وأنفذه رسولا إلى الأمصار ، وولاه وكالة بيت المال بدمشق ، [٨] واسهم الوزير مجد الدين البهنسي ، وزير الملك الأشرف موسى ، في بناء المدارس وأوقف الأوقاف الدارة عليها وجعل بها خزانة كتب نفيسة . [٩]

ومن الوزراء الذين شاركوا بنصيب وافر في الحركة العلمية والعناية بالكتب: الوزير الصاحب أمين الدولة أبو الحسن بن غزال بن أبي سعيد (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) كان سامريا ثم أسلم، واشتغل بالوزارة للملك الصلاح إسماعيل بن أبي بكر بن أيوب كانت له همة عالية في جمع الكتب وتحصيلها ،اقتنى كتباً كثيرة فاخرة في سائر العلوم ، [١٠] وكانت بينه وبين الطبيب أحمد بن أبي أصيبعة

---

[١] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٧٧

[٢] نفسه ج٨ ص ٦٧٧

[٣] ابو شامة : ذيل الروضتين ص٦٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٥٦

[٤] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٧٧

[٥] ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٣٣

[٦] نفسه ج٨ ص ٦٧٧

[٧] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٤٨

[٨] الأسنوي : طبقات الشافعية ص ٣٤٢ ، الأدفوي : الطالع السعيد ص ٨١

[٩] النعيمي : الدارس ج١ ص ٢١٥

[١٠] ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ص (٧٢٣،٧٢٨)

(٦٨٨هـ/١٢٨٩م) مراسلات حيث أرسل إليه مرة يطلب منه كتابه(عيون الأنباء في طبقات الأطباء) فأرسله إليه فأعجب به كثيراً ،[١] وقد شارك بمصنفات تعد من أهم المصنفات في علم الطب.[٢]

ومن الأمراء الذين شاركوا في تنشيط الحركة العلميـــة وبنـــاء مرافقـــها: الأمير صارم الدين قيماز بن عبد الله النجمي(٥٩٥هـ/١٢٩٥م) كان مـــن كبـــار أمراء الدولة الصالحية، وكان عند السلطان صلاح الدين بمنزلة الأستاذ،[٣] اوقـــف المدرسة القيمازية بدمشق وهي تنسب إليه [٤]

والأمير ركن الدين منكورس الفلكي(٦٣١هـ/٦٣٣م)،[٥] غلام فلك الديـــن أبي منصور بن سرور بن جلدك(٥٩٩هـ/١٢٠٢م) أخو الملك العادل لأمـــه،[٦] كان من خيار الأمراء،[٧] بنى بالصالحية مدرسة وأوقـــف عليـــها أوقافـــاً تكفـــي لتموينها[٨]،وله المدرسة الركنية أوقفها على الأحناف،[٩] وأنشأ الأمير فخر الديـــن جهاركس أحد أمراء الدولة الصلاحية مدرسة مشتركة بين الحنفية والشافعية،[١٠] .

أما الأمير ناصر الدين الحسن بن عبد العزيز بن أبي الفـــوارس القمـــيري الكردي (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) فكان من أعظم الأمراء مكانة عند الملـــوك أوقـــف المدرسة القميرية قرب الجامع الأموي ، وعمل ببابها الساعات التي لم يسبق إلـــى مثلها،[١١] وأوقف أيضا البيمارستان القميري[١٢].

---

[١] نفسه ص (٧٢٨،٧٢٣)

[٢] نفسه ص (٧٢٨،٧٢٣)

[٣] موضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب والحاشية والغلمان وهو الذي يمشي بطلب السلطان ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢١

[٤] ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٦ ، النعيمي : الدارس ج١ ص (٣٢٧،٣٢٦)

[٥] نفسه ج٧ ص ١٥٢ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٥١٩

[٦] نفسه ج٧ ص ٢٥ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ج٢ ص ١١٧

[٧] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث ج(٦٣١/٦٤٠) ص (٧٤،٧٣)

[٨] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٩٢ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٥١٩

[٩] النعيمي : الدارس ج١ ص (٥١٩،٢٤٣،٢٤٢)

[١٠] نفسه : ج١ ص (٤٩٧،٤٩٦)

[١١] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٢٦٤ ، النعيمي : الدارس ج١ ص (٤٤٢،٤٤١)

[١٢] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (٤٥،٤٤،٤٣) ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص٨٨٧

ومنهم الأمير أقوش بن عبد الله التجيبي الصالحي النجمي (٦٧٧هـ/١٢٧٩م) كان نائباً على دمشق وأعمالها ، وكان محباً للعلماء يكرمهم ويقبل عليهم ، [١] حسن الاعتقاد ، متغاليا في السنة ومحبة الصحابة وبغض الروافض ، [٢] أوقف مدرسة بدمشق على الشافعية ، وجعل عليها أوقافاً واسعة تقوم بكفايتها .[٣]

وأنشأ الأمير بدر الدين حسن بن الداية مدرسة حولت إلى جامع تقام فيه الجمعة أوقف عليها أوقافاً حسنة ذكر ذلك على عتبة بابها ، [٤] وبنى الأمير جمال الدين يغمور الياروقي (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) مدرسة بالصالحية ، [٥] وأوقف المدرسة الطومانية بدمشق الأمير طومان بن ملاعب بن عبد الله الأنصاري الجزري النوري (٥٨٥هـ/١١٨٩م) كان ميالاً إلى العلماء والفقهاء جوادا محباً للخير ، [٦] وأوقف الأمير جمال الدولة إقبال عتيق ست الشام بنت أيوب ، [٧] داريه بدمشق مدرستين إحداهما للشافعية وهي الكبرى ، والأخرى للحنفية وهي الصغرى ، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة حسنة ، [٨] أما الأمير عز الدين الزنجيلي (٥٨٣هـ/١١٨٧م) نائب عدن ، فقد كان له المدرسة الزنجارية بدمشق ، [٩] وله أوقاف وصدقات بمكة واليمن ودمشق ، [١٠] وأنشأ الأمير فخر الدين سرور الناصري العادلي مدرسة بدمشق .[١١]

---

[١] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص ٩٠٣

[٢] النعيمي : الدارس ج١ ص (٤٩٦،٤٩٧)

[٣] نفسه ج١ ص (٤٦٨،٤٦٩،٤٧٠) ، الذهبي : العبر ج٢ ص ٣٣٥

[٤] نفسه ج١ ص ٤٧٧

[٥] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص (٢١٣)

[٦] النعيمي : الدارس ج١ ص (٥٤٢،٥٤٣)

[٧] نفسه : ج١ ص ٤٧٤

[٨] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٥٩ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث (٦٠١،٦١٠) ص١٢٧

[٩] النعيمي : الدارس ج١ ص (٥٢٦،٥٢٧)

[١٠] با مخرمة : الطيب بن عبد الله بن أحمد ، تاريخ ثغر عدن ، الطبعة الثانية ، دار الجيل بيروت ١٤٠٨هـ ص (١٦٣،١٦٤)

[١١] النعيمي : الدارس ج١ ص(٤٥٥،٤٥٦)

أما الأعيان فمنهم محمد بن عروة الموصلي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) الذي ينسب إليه المشهد بالجامع الأموي ، جعل به داراً للحديث، وأوقف عليه خزانة كتب نفيسة [١] وشبل الدولة كافور الحسامي (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) سمع الحديث على تاج الدين الكندي وغيره ، وأنشأ المدرسة الشبلية التي بطريق الصالحية ، على الأحناف ، وأوقف عليها الأوقاف التي تفي بنفقاتها [٢]

ومنهم ركن الدين أبو القاسم هبة الله المعروف بابن رواحة من كبار العدول من اصحاب الأموال ، أنشأ مدرستين للشافعية ، واحدة بحلب ، وأخرى بدمشق ، وجلب للتي بدمشق خزانة كتب ، وأوقف عليها أوقافا تسد حاجتها ، [٣]

ومن هؤلاء الأعيان أيضاً صدر الدين أسعد بن المنجا بن بركات التنوخي المغربي الدمشقي المعدل، كان من الأغنياء ، أوقف مدرسة بدمشق على الحنابلة،[٤]، وجعل عليها الأوقاف الحسنة ، [٥] أما جمال الدين ، محمد بن عقيل بن كروس (٦٤١هـ/١٢٤٢م) ، محتسب دمشق فإنه جعل داره مدرسة ، وبنى دار حديث[٦].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا كيف كان اعتناء الأمراء والأغنياء بالعلم والعلماء ، كيف كانوا ينفقون الأموال في سبيل ترقي العلم ، [٧] ونتيجة لهذا

---

[١] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦١١/٦٢٠)ص٤٦٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٧٢

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٢٥ ، النعيمي : الدارس ج١ ص (٥٣٠،٥٣١)

[٣] ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٤٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٢٥ ، طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص ٨٢٤ ، النعيمي : الدارس ج١ ص (٢٢٥،٥٤٣)

[٤] ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٧٥ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٤٤٦

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٠٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٢٩

[٦] النعيمي : الدارس ج١ ص (٨٦،٨٧)

[٧] بدران : منادمة الأطلال ص ٩٤

الاهتمام البالغ بإنشاء المدارس، والانفاق عليها نشطت الحركة العلميـــــة بدمشـــق وكثر إنتاجها وراج سوقها ، وقصدها الطــــلاب والعلمــاء مـــن أرجـــاء الدولـــة الإسلامية.

المبحث الثالث : الوراقة والوراقون ودورهم في تنشيط الحركة العلمية :

تعد حرفة الوراقة وثيقة الصلة بالحركة العلمية تأثراً وتأثيراً ، فإذا نشطت الحركة العلمية وكثر التأليف ، زاد الطلب وكثر الوراقون والنساخون ، إذ تعد الوراقة عاملاً مساعداً على النشاط العلمي وتقدمه [١].

عرفّت الوراقة بأنها : « اسم لمن يكتب المصاحف والكتب وكتب الحديث وغيرها ، وقد يقال لمن يبيع الورق ــ الكاغد ــ وراق » [٢] وعرفها ابن خلدون فقال : « وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية » [٣].

والوراقة مهنة شريفة القدر لها قيمتها، وأهميتها ، يقول السبكي : « وهي من أجود الصنائع لما فيها من الإعانة على كتابة المصاحف ، وكتب العلم » [٤] وقد ذكر لها العلماء جملة من الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها الوراق : من التحري في بيع الورق ، وطرق النسخ وأساليبه ، والهيئة التي يكون عليها الناسخ من الدين والأمانة ، والدقة في النسخ إلى غير ذلك [٥]

---

[١] محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ص٢٤٠

[٢] السمعاني : عبد الكريم بن محمد بن منصور ، الأنساب ، الطبعة الأولى ، دار الجنان ١٤٠٨هـ ، تحقيق : عبد الله عمر البارودي ج٥ ص ٥٨٤

[٣] المقدمة ص٣٩٢

[٤] تاج الدين السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي ، معيد النعم ومبيد النقم ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي بمصر ١٣٦٧هـ ، تحقيق : محمد علي النجار وغيره ،ص١٣٢ ، ابن الحاج : محمد بن محمد بن محمد العبدري ، المدخل ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥هـ ج٢ص٢٩٥ ، ابن طولون : شمس الدين محمد ، نقد الطالب لزغل المناصب ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر بيروت ، حققه : محمد أحمد دهمان ،ص١٧٩

[٥] ابن جماعة : بدر الدين بن جماعة ، تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، دار الكتب العلمية ، ص (١٧٣،١٧٤،١٧٥،١٧٦،١٧٧،١٧٨،١٧٩،١٨٠) ، ابن الحاج : المدخل : ج٢ ص (٢٩٥،٢٩٦،٢٩٧،٢٩٨،٢٩٩،٣٠٠،٣٠١،٣٠٢،٣٠٣،٣٠٤) ، ابن طولون : نقد الطالب لزغل المناصب ص١٧٨ .

وقد نالت الوراقة والوراقون وتاريخها في الحضارة الإسلامية عناية بعض الدارسين المعاصرين [١]؛ وليس هدفنا هنا التأريخ لها ولكن إبراز دور الوراقة والوراقين وأثرهم على الحركة العلمية في دمشق في فترة البحث ؛ حيث تميزت دمشق، بمعامل الورق الجيد، واشتهرت به [٢] وقد مدح المؤرخون ورقها ، يقول ابن طولون : « ومن محاسن الصالحية صنع الورق ولا يصنع إلا بها ، ومنها يجلب إلى سائر الدنيا » [٣]، ويقول أبو البقاء البدري : « وفيها تعمل صناعة القراطيس بحسن صقالة ونقي وأصالة » [٤]، وذكر القلقشندي الورق الشامي وأن منه الأبيض، والأحمر وهو أجودها ولكثرته استغنى به أهل الشام عن غيره ، [٥] ولذلك ازدهرت الوراقة من خلال المراكز العلمية النشطة التي شهدتها دمشق في فترة البحث من خلال كثرة المدارس والعلماء وطلاب العلم،[٦]فكان هناك سوق للوراقين عند باب البريد بالجامع الأموي[٧] يبيعون الكاغد

---

[١] انظر على سبيل المثال : حبيب الزيات : الوراقة والوراقون في الإسلام ، مجلة المشرق ، السنة الحادية والأربعون ١٩٤٧م ص (٣٠٥،٣٥٠) ، لطف الله قارئ : الوراقة والوراقون في التاريخ الإسلامي ، منشورات دار الرفاعي للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ، علي بن إبراهيم النملة : الوراقة وأشهر أعلام الوراقين ، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، الرياض ١٤١٥هـ ، ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام ، نشأتها وتطورها ومصائرها ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ كوركيس عواد : الورق والكاغد ، صناعته في العصنور الإسلامية ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الثالث والعشرين ، الجزء الأول ، سنة ١٣٦٧هـ ص (٤٠٩،٤٣٨) ، محمد طه الحاجري : الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثاني عشر ١٣٨٤هـ ص(١١٦،١٣٨) ، والمجلد الثالث عشر ١٣٨٥هـ ص(٦٣،٨٨) ، سيد أحمد الناصري : الوراقون والناسخون ودورهم في الحضارة العربية الإسلامية ، مجلة الدارة ، الرياض ، العدد الثالث ، السنة الرابعة عشرة ١٤٠٩هـ ص(١٧٨،١٩٥) .

[٢] محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية ص٣٩

[٣] القلائد الجوهرية ج٢ ص ٥٠٨

[٤] نزهة الأنام في محاسن الشام ص٢١٤ ، زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ، الطبعة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت ١٤١٣هـ ص(٣٨٩،٣٩٠)

[٥] صبح الأعشى ج٨ ص (٥٦،١٧٢)

[٦] محمد مؤنس عوض : الأسواق التجارية في عهد الدولة النورية ، مجلة الدارة ، العدد الثالث السنة السادسة عشرة ١٤١١هـ ص٤٤ .

[٧] ابن المبرد : رسائل دمشقية ، نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق ص٧٤ ، رنا سعد الحمود : حرف وصناعات بلاد الشام في العصر المملوكي ، ص (٤٥،٤٦) .

والأقلام والمداد ، [١] وسوق آخر يبيع الكتب بباب البريد [٢] أيضا [٣] ، تجلب إليه الكتب من بلدان الدولة الإسلامية لتباع فيه . [٤]

وكان تجار الكتب يفدون إلى دمشق لبيع كتبهم في سوقها ؛ ففي سنة (٦١٣هـ/١٢١٦م) مر ياقوت الحموي على أحد أسواق دمشق قادماً من حلب ومعه كتبه التي يتاجر بها ، ودارت مناظرة بينه وبين بعض أهل دمشق اضطرته للخروج من دمشق هارباً ، [٥] كما وصل إلى دمشق تاجر كتب من بلاد العجم ، ومعه نسخة من شرح ابن أبي صادق لكتاب (منافع الأعضاء في الطب لجالينوس) ، وهي في غاية الحسن ، وبخط مصنفها ، وهي أول نسخة من هذا الكتاب تدخل بلاد الشام ، فنسخ الطبيب عز الدين السويدي نسخة لنفسه في غاية الحسن وجودة الخط ،[٦] ودخل دمشق أعجمي آخر يبيع الكتب وكان معه كتاب للإمام فخر الدين الرازي ، فأخذه أحد تلامذته بدمشق ، عبد المجيد بن عيسى الخسرو شاهي (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) وقبله ووضعه على رأسه وقال : هذا خط الإمام [٧].

ومما ساعد على ارتفاع شأن الناسخين في هذه الفترة نشاط حركة التأليف بالإضافة إلى إقبال العلماء، وهواة جمع الكتب على اقتنائها ، [٨] وقد كان

---

[١] ابن بطوطة : تحفة النظار ص١٠٨

[٢] كان سوق الوراقين والكتبيين ينقل من مكان لآخر ، وذلك لكثرة الحوادث الجارية عليه من حريق أو تخريب متكرر خلال العصر النوري والأيوبي والمملوكي ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص٢٧٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٨٩ ، البصروي : تاريخ البصروي ص٩١ ، بدران : منادمة الأطلال ص (٣٦٢،٣٦١) .

[٣] النعيمي : الدارس ج٢ ص ٤٠١ ، ابن المبرد : رسائل دمشقية ، نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق ص٧٤

[٤] ابن حجر العسقلاني : أحمد بن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، دار الكتب الحديثة ، تحقيق : محمد سيد جاد الحق ، ج٣ ص٧٦ ، ج٤ ص (٣٠٠،٢٩٩) .

[٥] القفطي : أنباه الرواة ج٤ ص (٨٥،٨٠)

[٦] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص (٧٦١،٧٥٩)

[٧] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص (١٦٢،١٦١)

[٨] عسيري : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص (١٨٤،١٨٣)

الصاحب امين الدولة غزال بن ابي سعيد (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) ذا همة عالية في جمع الكتب ، فكان له نساخ يكتبون له الكتب؛ حتى إنه أراد مرة نسخة من كتاب (تاريخ دمشق) للحافظ ابن عساكر ، وهو بخط دقيق في ثمانين مجلدا فقال : هذا يحتاج إلى وقت إذا كتبه ناسخ واحد ، ففرقه على عشرة نساخ كل واحد منهم ثمان مجلدات ، فكتبوه في سنتين ، [١] وكان موفق الدين أسعد بن أبي الفتح بن المطران (٥٨٧هـ/١١٩١م) الطبيب له عناية بالكتب، واستنساخها، وتحريرها ، وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له على الدوام ، [٢] وكانت له طريقة في انتساخ الكتب بحيث يعمد إلى الكتب، والمقالات الصغار المتفرقة في الطب ، وهي في العادة تكون ضمن مجلدة واحدة ، فيقوم بنسخ كل جزء على حدة ؛ ليسهل عليه حمله ، فكان لا يفارق كمه منها مجلد يطالع فيه [٣].

واشتهر بدمشق نساخ امتهنوا الوراقة واتخذوها حرفة يتكسبون منها فكان محمد بن الضياء المعروف بأجير البهاء (٦٦١هـ/١٢٦٢م) ناسخاً ماهراً ، وكاتباً للشروط ، يُحَصِّلُ من ذلك مالاً كثيراً يصل إلى مئة درهم في اليوم الواحد، أو أكثر من ذلك ، [٤] ولبراعته في النسخ كان الفقيه العز بن عبد السلام يفضله على كتاب عصره ، [٥] وكان الشريف الناسخ شمس الدين محمد بن الحسيني من أفضل النساخ ، وخطه منسوب في نهاية الجودة ، وكان ابن أبي أصيبعة يعتمد عليه في نسخ الكتب ، [٦] والناسخ جمال الدين بن الجمالة كان من أشهر النساخ وأحسنهم خطاً اختصه موفق الدين بن المطران هو وجماعة معه ليكتبوا له ولهم على ذلك الجراية والجامكية ، [٧] ومن النساخ كذلك: سرايا بن خزرج مملوك

---

[١] ابن ابي اصيبعة : عيون الأنباء ص(٧٢٣،٧٢٨)

[٢] نفسه : ص٦٥٥

[٣] نفسه ص ٦٥٥

[٤] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (٥٤٤،٥٤٥)

[٥] ابو شامة : ذيل الروضتين ص٢٢٧

[٦] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص (٧٢٣،٧٢٨)

[٧] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص ٦٥٥

السلطان المعظم عيسى ، كان يكتب له كتب العلم ؛ كتب له كتاب: (التذكرة) في الفقه الحنفي ، [١] وكان لثناء الشيخ سبط بن الجوزي على كتاب (مقاصد الصلاة) للشيخ العز بن عبد السلام في بعض مجالسه أن استنسخ من الكتاب أعداداً كبيرة جدا ، [٢] مما يدل على وفرة النساخ وكثرتهم .

كما وجد من يعلّم النسخ بأجر ، فكان محمد بن أحمد بن بريك البرفطي (٦٢٥هـ/١٢٢٧م) يعلم الناس مهنة النسخ وقد حصل من ذلك مالًا كثيراً ، [٣] وكان بعض النساخ يضيفون التذهيب إلى ما ينسخونه من الكتب ، فيزيد ذلك من قيمة الكتاب ، [٤] من هؤلاء مظفر بن محاسن بن علي الموصلي الدمشقي ، كان كاتبا مذهبا [٥].

ووجد من العلماء وطلاب العلم من يشتري الكتب ثم يقوم بنسخها وبيعها ، حرصاً على كسب المال الحلال الذي لا شبهة فيه ؛ [٦] فكان أسعد بن محمد بن خلف بن أحمد العجلي (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) « يورق ويبيع ما يتقوت به » [٧]، أما أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي الصالحي (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) الكاتب المحدث فكان صاحب خط حسن، وسريع كتب أعداداً كثيرة من كتب الحديث، والفقه لنفسه وبأجرة ، حتى كان يكتب في اليوم الواحد تسعة كراريس أو أكثر ، والكراستين، والثلاث مع انشغاله في يومه وليلته ؛ فكتب (الخرقي) في ليلة واحدة ، وكتب (تاريخ الشام) لابن عساكر مرتين ، و(المغني) لابن قدامة عدة مرات ، وذكر أنه كتب ألفي مجلدة ، [٨] ولازم الكتابة

---

[١] حاجي خليفة : كشف الظنون ج١ ص٣٣١

[٢] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية ج٨ ص ٢٣٩

[٣] ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٥ ص (١٨٨،١٨٩)

[٤] البشري : سعد عبد الله صالح ، الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس ، مطبوعات معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى ١٤١٧هـ ص١٣٤

[٥] ابن تغري بردي: الدليل الشافي ج١ ص (٧٣٥،٧٣٦)

[٦] لطف الله قارئ : الوراقة والوراقون ص٣٣

[٧] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص (٢٠٨،٢٠٩)

[٨] ذكر ذلك في أبيات له ، يقول : =

خمسين سنة [١]، ويذكر أبو شامة أن أحمد بن عبد الله بن شعيب الذهبي الكتبي (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) ممن كانت لهم همة في جمع الكتب واقتناء أصولها ، وقد نصحه ابو شامة أن يوقف شيئا من كتبه فلم يفعل [٢] وكان محمد بن عبد الجليل بن عبد الكريم أبو عبد الله الموقاني (٦٦٤هـ/١٢٦٥م) يشتري الكتب النفيسة في كل فن للانتفاع بها في العلم والتجارة ، وأهدى منها نخبة إلى والي دمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور ، [٣] وطلب منه الشيخ نجم الدين الباذرائي نسخة من كتاب (الصحاح) للجوهري وكان عنده فكتب إليه :

ما كان من كتبي نفيسا بعته ... إذا كنت أنت من النجوم المشتري

والبحر أنت وقد أتيتك قاصدا ... فاطلق بفضلك لي صحاح الجوهري [٤]

وتخصص بعض العلماء في نسخ القرآن وعلومه ، وبعضهم في نسخ كتب الحديث والفقه والأدب ، وتخصص بعضهم في كتب التاريخ والطب وغيرها؛ ولعل ذلك ساعد على خلو الكتب المنسوخة من الأخطاء أو التصحيف؛ لأن الناسخ إن كان عالماً بما يكتب فإن ذلك سيجنبه ما يقع فيه النساخ عادة من أخطاء[٥].

وقد كان الشيخ محمد بن أحمد بن قدامة (٦٠٧هـ/١٢١٠م) يكتب المصاحف وله عناية بها ، كتب الكثير لأهله وللناس احتساباً [٦] كتب تفسير

عجزت عن حمل قرطاس وعن قلم ... من بعد إلفي بالقرطاس والقلم

كتبت ألفا وألفا من مجلدة ... فيها علوم الورى من غير ما ألم

ما العلم فخر امرئ إلا لعامله ... إن لم يكن عمل فالعلم كالعدم

العلم زين وتشريف لصاحبه ... فاعمل به فهو للطلاب كالعلم

ما زلت اطلبه دهري وأكتبه ... حتى ابتليت بضعف الجسم والهرم

= وللصفدي عليه مآخذ في طريقة نسخه ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٧ ص (٣٤،٣٥،٣٦)

[١] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٢٧٢ ، ابن رجب الحنبلي : طبقات الحنابلة ج٤ ص (٢٧٨،٢٧٩)

[٢] الذيل ص ٢٣٥

[٣] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص (٣٥٥،٣٥٦)

[٤] نفسه : ج٢ ص (٣٥٥،٣٥٦) ، يشير اليونيني في نفس الصفحة أن هذا الشعر ليس له وإنما قاله استشهادا به .

[٥] العريني : الحياة العلمية في الأندلس ص١٣٠

[٦] ابو شامة : ذيل الروضتين ص٧٠ ، الضياء المقدسي : مناقب ابو عمر المقدسي ص٤٩

البغوي ، والحلية لأبي نعيم ، والإبانة لابن بطة [١] ، وإسحاق بن أحمد المغربي (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) كان ينسخ في شهر رمضان من كل سنة ختمة يوقفها على الناس [٢]، ومنهم من عني بكتب القراءات فكان ضياء الدين أبو بكر الآملي الطبري – إمام السلطان صلاح الدين – يعتني بكتب القراءات نسخاً وسماعاً [٣] وأحمد بن علي بن أبي بكر بن عتيق القرطبي المقرئ (٥٩٦هـ/١١٩٩م) اهتم بكتب القراءات ، ونسخ بخطه المغربي الكثير منها [٤] .

أما أهل الحديث فهم الفئة الغالبة في هذا الجانب لكثرة الطلاب وإقبالهم على السماع، والحفظ ، [٥] وسوف اقتصر على ذكر بعض مشاهيرهم ، منهم: علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) كتب تاريخ أبيه (تاريخ دمشق) مرتين في ثمانين مجلداً ، وكتباً أخرى كثيرة ، [٦] ومحمد بن عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي الصالحي الحنبلي (٦١٣هـ/١٢١٦م) كتب واستنسخ بخطه كثيرا من كتب الحديث ، [٧] ومنهم: المحدث أحمد بن محمود بن إبراهيم بن نبهان الدمشقي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) استنسخ من كتب الحديث عدداً كثيراً ، [٨] وعبد الجليل الأبهري الصوفي (٦٤٣٠هـ/١٢٤٥م) كانت له عناية بنسخ كتب الحديث والفقه ، [٩] وكان محمد

---

[١] ابو شامة : ذيل الروضتين ص٧٠ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٥٤٦،٥٥٣)

[٢] ابن كثير :البداية والنهاية ج٧ ص (٦٤،٦٥) ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص١٢٦ ، الأسنوي : طبقات الشافعية ص٤٩

[٣] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث (٥٩١،٦٠٠) ص ٤٨١

[٤] نفسه : تاريخ الإسلام حوادث، (٥٩١/٦٠٠) ص(٢٣٠،٢٣١) ، ابن كثير : طبقات الشافعيين ج٢ ص (٧٤٣،٧٤٤).

[٥] حبيب الزيات : الوراقة والوراقون في الإسلام ، مجلة المشرق ، السنة الحادية والأربعون ١٩٤٧م(٣٢١)

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٤٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٤٢ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص(١٣٦٧،١٣٦٨)

[٧] الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٤٠١

[٨] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص٦٩٦

[٩] الذهبي : العبر ج٣ ص٢٤٥

بن داود بن ياقوت الصارمي (٦٦٠هـ/١٢٦١م) باذلاً كتبه وخطه للمشتغلين من طلبة الحديث كتب المجلدات والأجزاء الكثيرة وهي من أصحها وأفضلها ، [١] ومنهم: أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر الموصلي الدمشقي (٦٧٥هـ/١٢٧٦م) كتب الكتب الكبار بخط جيد واضح ، [٢] ومحمد بن أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسن بن سني الدولة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) قال عنه الذهبي : ((كان موصوفاً بجودة النقل وصحته وكثرته)) [٣] ومنهم: المسلم بن محمد بن المسلم بن مكي بن خلف العيسى الدمشقي (٦٨٠هـ/١٢٨١م) جلس في آخر عمره ينسخ كتب الحديث ، فكان يكتب في اليوم الكراستين والثلاث [٤].

أما أهل الطب فمنهم على سبيل المثال: محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) وجد بخطه الكتب الستة عشر لجالينوس ، كما أنه اختصر كتاب (الأغاني الكبير لأبي الفرج الأصفهاني) ، وكتبه بخطه في عشر مجلدات ، [٥] وكان عز الدين السويدي (٦٩٠هـ/١٢٩١م) يكتب الخط المنسوب على طريقة ابن البواب [٦] ، كتب بذلك كتباً في الطب لا تحصى ، [٧] يقول ابن أبي أصيبعة : ((حكى لي أنه كتب ثلاث نسخ من كتاب ((القانون لابن سينا)) ، [٨] ومن الأطباء عبد الرحيم بن علي بن حامد مهذب الدين بن الدخوار

---

[١] ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٧٥

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٢٨٨

[٣] ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص١٤٧

[٤] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٤ ص(١٢٦،١٢٧،١٢٨)

[٥] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص(٦٦٩،٦٧٠،٦٧١)

[٦] علي بن هلال أبو الحسن الكاتب المشهور بالخط الذي لم يرزق أحمد مثله ، قرأ النحو على ابن جنى وكان لا يلحق في خطه ، من أقواله : ((ما كتبت يوم السبت مثل يوم الخميس قط) ومعنى ذلك أن الكتابة تقوي بالادمان ، وتضعف بالترك ، توفي سنة (٤١٣هـ/م) ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٢٢ ص(٢٩٠-٢٩١).

[٧] نفسه ص (٧٥٩،٧٦١)

[٨] نفسه ص(٧٥٩،٧٦١)

(٦٢٨هـ/١٢٣٠م) كان خطه في غاية الجودة ، كتب به كتباً في الطب تصل مائة مجلدة [١] .

---

[١] ابن أبي اصيبعه: عيون الأنباء ص ٧٢٨

المبحث الرابع : خزائن الكتب :

كانت دمشق تضم عدداً كبيراً من خزائن الكتب العامة والخاصة في هذا العصر ، وقبل الحديث عن تلك الخزائن يجدر بنا أن نتحدث عن مسائل وثيقة الصلة بخزائن الكتب ودورها في تنشيط الحركة العلمية .

ومن هذه المسائل: كيفية تكوين المكتبات في دمشق وطرق تزويدها ، فمن تلك الطرق: الوقف ؛ حيث يعد مصدراً مهماً ورئيساً من مصادر تزويد المكتبات بالكتب [١] فقد أسهم السلاطين، والوزراء، والعلماء في وقف الكتب على المساجد، والمدارس، والمعاهد العلمية الأخرى . [٢]

وكان شراء الكتب من المصادر الهامة في تزويد المكتبات أيضا ؛ فقد كانت دمشق سوقاً رائجاً لبيع الكتب [٣] جاء في نص وقفية دار الحديث الأشرفية ما يشير إلى ذلك « وللشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف ، أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب، والأجزاء ثم يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها »[٤].

وقام النساخ بدور عظيم في تزويد المكتبات والخزائن العامة والخاصة بأنفس الكتب ، [٥] ووجد بدار الحديث الأشرفية جملة من النساخ يقومون بنسخ الكتب للمشتغلين بعلوم الحديث، وعلوم القرآن الكريم ؛ جاء في نص الوقفية « ويصرف في شراء ورق وآلات النسخ من مركب، وأقلام، ودوي، وكراسي ونحو ذلك ما يقع به الكفاية لمن ينسخ في الإيوان الكبير ، أو قبالته ، الحديث أو شيئا من علومه ، أو القرآن العظيم، وتفسيره، ويصرف إلى من يكتب في مجالس

---

(١) ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام ص١٧٢

(٢) انظر في ذلك على سبيل المثال : سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧١٣ ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ٢١٤ وسوف يمر معنا ذكر نماذج عدة من وقف الكتب في حديثنا عن أنواع الخزائن .

(٣) انظر : مبحث الورقة والوراقون

(٤) تقي الدين السبكي : علي بن عبد الكافي ، فتاوى السبكي ، الطبعة الأولى ، دار الجيل بيروت ١٤١٢هـ ، تحقيق : حسام الدين القدسي ج٢ ص ١١١

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص(٧٢٣،٧٢٨) ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٢٧ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص (٢٠٨،٢٠٩)

الإملاء وإلى من يتخذ لنفسه كتباً أو استجازة ، ولا يعطي من ذلك إلا لمن ينسخ لنفسه لغرض الاستفادة والتحصيل دون التكسب والانتفاع بثمنه » [(١)].

ومن طرق تزويد خزائن الكتب بدمشق وضع اليد على مكتبات ثم هبتها لمن ينتفع بها من العلماء ، فمن ذلك: ما قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي،عندما وهب العماد الأصفهاني الكاتب (٥٩٨هـ/١٢٠١م) جملة من الكتب من خزائن الكتب الفاطمية بمصر [(٢)] ، يقول العماد : « ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت من القصر ، وهو ينظر في بعضها ، فبسطت يدي لقبضها ، وقال لي : كنت طلبت عينتها فهل في هذه منها ؟ فقلت : كلها ، وما استغنى عنها فأخرجتها من عنده بحمال»[(٣)] «ونقلت منها ثمانية أحمال إلىالشام»[(٤)].

وعندما دخل السلطان صلاح الدين الأيوبي حلب سنة(٥٧٧هـ/١١٨١م) أطلق للشيخ محمد بن عبد الرحمن بن مسعود البنجدهي (٥٨٤هـ/١١٨٨م) أن يأخذ من خزانة جامع حلب ما شاء من كتبها ، وأوقفها هذا على خزانة الخانقاه السيمساطية بدمشق[(٥)].

وكان لهذه الخزائن عدد من الموظفين يديرون شؤونها ، خصصت لهم رواتب تصرف لهم ضمن مصروفات الوقف[(٦)]ولم تسعف المصادر بمعلومات عن هؤلاء الموظفين سوى خازن الكتب،وهو المشرف على المكتبة والمسئول عن كتبها ، وتنظيم العمل بها وفقا للشروط التي يذكرها الواقف ، [(٧)] وقد ذكر تاج

---

(١) تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١٠

(٢) فيما يتعلق بالمكتبة الفاطمية في القاهرة وجهت تهمة تدمير الكتب إما بحرقها أو تبديدها إلى صلاح الدين الأيوبي ، ولكن لم يعثر حتى الآن على نص أو دليل يؤكد أو يدعم هذه القضية وكل ما هناك أن الكتب بيعت أو وزعت على من لهم اهتمام خاص بناحية علمية معينة. البنداري : ينا البرق الشامي ص٩٥ هامش١ تحقيق فتحية النبراوي .

(٣) نفسه ص١١٦ ، تحقيق فتحية النبراوي

(٤) نفسه ص٥٩ ، تحقيق فتحية النبراوي

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٥ ص (٣٥٢،٣٥٣) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص٣٩٠

(٦) تقي الدين السبكي : فتاوي السبكي ج٢ ص١٠٩

(٧) النشار : السيد السيد ، تاريخ المكتبات في مصر في العصر المملوكي ، الطبعة الأولى ، االدار المصرية اللبنانية ١٤١٣هـ ص (١٣٧،١٣٨)

الدين السبكي مهام الخازن وواجباته ، فقال : « وحق عليه الاحتفاظ بـــها وترميـــم شعثها ، وحبكها عند احتياجها للحبك ، والضنة بها على من ليـــس مـــن أهلـــها ، وبذلها للمحتاج إليها ، وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يضعف عليهم تحصيـــل الكتب على الأغنياء .. فليس للخازن أن يعير إلا برهن » [١]، وقد جاء في نـــص وقفية دار الحديث الأشرفية ذكر مهام الخازن بها وما يصرف له من الرواتب مـــا نصه : « ويصرف إلى خازن الكتب ثمانية عشر درهماً في كل شـــهر ، وعليـــه الاهتمام بترميم الكتب ، وإعلام الناظر ونائبه ليصرف فيه من مغل الوقف ما يفـــي بذلك ، وكذا إذا مست الحاجة إلى تصحيح كتاب ومقابلته » [٢] .

ومن أشهر من عمل في خزائن الكتب بدمشق: أبو القاسم بـــن أحمـــد بـــن الموفق اللورقي الأندلسي النحو (٦٣٢هـ/١٢٣٤م)كان يتولـــى خزانـــة الكتـــب بالجامع الأموي ، وقد أحسن الولاية فيها ، وكان الحسن بن محمد بن اسماعيل بـن أبي العز القيلوي (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) [٣] كان يتجر بالكتب ، ويسافر بها إلى الشام وبلاد الجزيرة ، وكانت له معرفة حسنة بخطوط العلماء ، حسن الخط، قال عـــن نفسه : « وكتبت ألفي مجلدة » وكان في خدمة السلطان الملك الأشرف موسى فـــي حران ودمشق ، وتولى له خزانة الكتب بها [٤].

---

[١] معيد النعم ومبيد النقم ص١١١

[٢] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١٠٩

[٣] الذهبي : العبر ج٣ ص ٢١٦

[٤] الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٢ ص٢١٨

وكانت هذه الخزائن لا تخلو من فهارس تسهل على طلاب العلم استعمال ما بها من كتب ، وليس أدل على ذلك من قول سبط بن الجوزي أنه قرأ فهرس كتب الشيخ تاج الدين الكندي ، فوجده سبعمائة وإحدى وسبعين مجلداً ، فصنفه حسب كل فن على النحو التالي :

في علوم القرآن ١٤٠ مجلدا

في علوم الحديث ١٩ مجلدا

في علوم الفقه ٣٩ مجلدا

في علوم اللغة ١٤٣ مجلدا

في علوم الشعر ١٢٢ مجلدا

في علوم النحو والتصريف ١٧٥ مجلدا

في علوم الأوائل من طب وغيره ١٢٣ مجلدا [١]

كما وجد في خزانة دار الحديث الضيائية بالصالحية فهرس شامل لمصنفات الإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا (٢٨١هـ/٨٩٤م) مرتبة على حروف المعجم [٢] ورأى سبط بن الجوزي فهرس تصانيف الشيخ عبد الرحمن بن نجم الدين الحنبلي (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) وهي بخط ابنه [٣] .

كما جعل للاستعارة بها شروطاً تضمن حفظ كتبها من التسرب والضياع ، على أن كثيراً من أهل العلم رغب في إعارة الكتب بقولهم : « وإن أول بركة العلم إعارة الكتب » [٤] ، ويقول ابن جماعة في ذلك : « وإعارة الكتب للطلبة والمشيخة

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٩٨

[٢] يوجد منه نسخة مصورة بمركز البحث العلمي ، جامعة أم القرى ، مجاميع برقم (٢٠٤/٦٤) ص (٥٩،٥٦) وحققه صلاح الدين المنجد ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٤٩ الجزء الثالث ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م ١٦ ص (٥٩٤،٥٧٩) .

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٧٠١،٧٠٠)

[٤] السمعاني :عبد الكريم محمد بن منصور ، أدب الإملاء والاستملاء ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠١هـ ص١٧٥

أمر قد استحسنه الأولون والآخرون ؛ لما فيه من نشر العلم خاصة وإفادة النـــاس عامة حتى عد من صفات العلماء المحمودة » [١]

وكان من نظام الإعارة المتعارف عليه أن الكتب لا تعار إلا برهن ، فقـــد كان نظام الإعارة في مكتبة المدرسة الضيائية يسير على هذا النحو فقد كان يكتـب على كتبها ما نصه : « وقف بالمدرسة الضيائية بدمشق على من ينتفع بـــه مـــن المسلمين لا يعار إلا برهن إلا أن يكون فقيراً صالحاً ، ويحرم على الغنى » [٢]

ودرج العلماء في هذا العصر على بذل كتبهم؛ فقد كان محمد بن داود بـــن ياقوت الصارمي (٦٦٠هـ/١٢٦١م) رجلاً صالحاً عالماً مفيداً لطلبـــة الحديـث ، وبـــاذلاً كتبـــه وخطـــه لـــهم [٣] ، وعندمـــا أراد الطبيـــب عزالديـــن الســـويدي (٦٩٠هـ/١٢٩١م) نسخة من (كتاب منافع الأعضاء) لجالينوس ، كتـــب إلـــى القاسم بن خليفة بن يونس (٦١٦هـ/١٢١٩م) قصيدة منها :

وامنن ؛ فأنت أخو المكارم والعلـــى   بكتـــاب شـــرح منـــافع الأعضـــاء
وإعارة الكتـــب الغريبـــة لـــم تـــزل   مـــن عـــادة العلمـــاء والفضـــلاء

فبعث إليه الكتاب وهو في جزأين فنقل منه نسخة في الغاية من حسن الخـط وجودة النقط والضبط [٤] وكتب محمد بـــن محـــي الديـــن محمـــد بـــن عربـــي

---

(١) تذكرة السامع ص١٦٨

(٢) ملخص تصانيف ابن أبي الدنيا ، مخطوطة مصورة من مركز البحث العلمي ، جامعة أم القرى رقم ٢٠٤ ص ٥٦

(٣) ابو شامة : ذيل الروضتين ص٢١٧ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص (١٧٩،١٨٠)

(٤) ابن ابي اصيبعة : عيون الأنباء ص٧٥٩

(٦٥٦هـ/١٢٥٨م) إلى أبي شامة المقدسي يطلب منه استعارة كتاب الروضتين في أخبار الدولتين هذه الأبيات :

بك ملة الإسلام عاد شبابها يامن بفتياه استبان صوابها
هذي ثمار الروضتين زكاتها وجبت عليك غداة تم نصابها
فأمنن علي بها لعلي أجتلي ثمرات علم راحتاك سحابها
وأنا الكفيل بحفظها وبحفظها ويكون أسرع من نداك إيابها

وعلى خلاف ذلك كان احمد بن عبد الله بن شعيب بن محمد بن عبد الله الصقلي الدمشقي (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) كان ضنينا بكتبه النفيسة على العلماء وأرباب الجاهات ، حتى احتاط ديوان الحشر [1] على تركته بعد وفاته ، وبيعت كتبه بأبخس الأثمان . [2]

وتنوعت خزائن الكتب بدمشق ، واشتملت على ما يلي :

أولا : الخزائن الملحقة بالمساجد .

ثانيا : الخزائن الملحقة بالمدارس .

ثالثا : الخزائن الملحقة بدور الحديث .

---

[1] يقصد به ديوان المواريث الحشرية ، وموضوعه التحدث على ديوان المواريث الحشرية فمن يموت ولا وارث له ، أو له وارث لا يستفرق ميراثه ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٣٣ ، وكان هذا هو السائد في العصرين الأيوبي والمملوكي حينما كان المذهب الشافعي هو المذهب القائم ، وذلك لأن المذهب الشافعي لا يورث ذوي الأرحام كما في مذهب أبي حنيفة فإذا مات الميت عن زوجة وبنت ، وضعت الحشرية يدها على المال فأعطت البنت والزوجة نصيبهما لأنهما من أصحاب الفروض ، أما باقي التركة فتضم لبيت المال ، دهمان : معجم الألفاظ التاريخية ص٦١ .

(٢) اليونيني: ذيل مرآة الزمان ج٢ ص ٣٥٠

رابعا : الخزائن الملحقة بالربط .

خامسا : الخزائن الملحقة بالبيمارستانات .

سادسا : الخزائن الملحقة بالترب .

سابعا : الخزائن الخاصة .

أولا : الخزائن الملحقة بالجامع الأموي :

١ـ خزانة مشهد بن عروة الموصلي (بالكلاسة):

أنشأها شرف الدين ، محمد بن عروة الموصلي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) [١] ونسب إليه هذا المشهد « لأنه كان مخزناً ، فيه آلات تتعلق بالجامع فعزله وبيضه وجدد في قبلته المحراب والخزانتين عن يمينه وشماله ، ووقف فيها كتبا » [٢] ومن العلماء من أوقف جملة من الكتب على هذه الخزانة ، منهم: أبو الفضل ، محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي المهندس (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) أوقف كتاب الأغاني الكبير لأبي فرج الأصفهاني بعد أن اختصره في عشر مجلدات ، فضمها إلى الكتب الموقوفة في مقصورة ابن عروة ، [٣] ووجد كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لأحمد بن أبي القاسم بن خليفة المعروف بابن أبي أصيبعة (٦٨٨هـ/١٢٨٩م) موقوفاً بمشهد ابن عروة بالجامع . [٤]

٢ـ خزانة المقصورة الفاضلية بالكلاسة(دار الحديث الفاضلية) :

تنسب إلى عبد الرحيم بن علي القاضي الفاضل (٥٩٨هـ/ ١٢٠١م)[٥]وقام ابنه أحمد بن عبد الرحيم (٦٤٣ / ١٢٤٥م) فحوط درابزيناً شمالي بركة الكلاسة شمالي الجامع ، وجعل داخله مكاناً لقراءة القرآن والسنة ، وأوقف خزانة كتبه بها،[٦]وهي كتب عظيمة [٧].

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٣٦ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٣٢

[٢] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٣٢ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦١١،٦٢٠) ص٤٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١١٠

[٣] ابن ابي أصيبعة : عيون الأنباء ص٦٧١ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٥٩١/٦٠٠) ص٤١٣

[٤] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٢٧٢

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين (ص١٩٥) .

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين (ص١٩٥) .

[٧] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين (٢ /٨٥٣) .

ومن العلماء من أوقف كتبه بها منهم الحافظ المحدث ابن بركات هبـــه الله بن محفوظ بن حسن بن محمد بن الحسن مصري (٥٨٦ /١١٩٠م)[١] ومنهم تقـــي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني (٦٥٥ /١٢٥٧م) وأوقـــف أكـــثر كتبـــه ومجاميعه التي بخطه في خزانتها ، [٢] وكان تقي الدين هذا شيخا صالحا من أهل الحديث سمعه وكتب الكثير منه .[٣] وخرب ذلك كله وأضيف إلى الجامع لما بنيت التربة الأشرفية ، وبقي يقرأ فيه الحديث وبه خزائن الكتب [٤].

٣ــ خزانة كتب محراب الحنابلة بالجامع :

كان أمام محراب الحنابلة خزانتان [٥] وهي من جملة الخزائن التي نقلت إلى مشهد عــروة بــأمر الســلطان المعظــم عيســى [٦]، ثــم أعيــدت إلــى مكانـــــها، وجعلت عن يمين المحراب ويساره [٧] .

٤ــ تنســب للملــك المحســن أحمــد بــن صــلاح الديــن الأيوبــي

(٦٣٤هــ/١٢٣٦م) كان من طلبة العلم وعني بالحديث ، وكتب واستنســخ وقــرأ على الشيوخ ، وحصل كتبا نفيسة وأصولا مليحة حسنة [٨] ومن الكتب الموقوفـــة بها ، كتب الحافظ المحدث أبو طاهر إســماعيل بــن عبــد المحســن الأنمــاطي (٦١٨هــ/١٢٢١م) [٩] يقول أبو شامة : « وكانت كتبه تكون فـــي البيــت فـــي الكلاسة التي بيد الملك المحسن احمد بن صلاح الدين » [١٠] .

---

[١] الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١ / ص٢٦٥ .

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية (٢١٠/٧) ، النعيمي : الدارس (٩٣/١) .

[٣] ابن كثير : البداية والنهاية (٢١٠/٧) .

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين (ص١٩٥) .

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين (ص١٠٤،١٠٥،١٠٦) .

[٦] نفسه (ص١٠٤،١٠٥،١٠٦) .

[٧] نفسه (ص١٠٤،١٠٥،١٠٦) .

[٨] ابن الحنبلي : شفاء القلوب ص (٢٣٣،٢٣٤)

[٩] ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٠٤

[١٠] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٣١

٥ـ خزانة الشيخ تاج الدين الكندي :

ومكانها في مقصورة ابن سنان المجاورة لمشهد علي بن زين العابدين [١] ، أوقف تاج الدين كتبه بها [٢] يقول سبط بن الجوزي : « قرأت بخطه فهرس كتبه التي أوقفها على فتاه ياقوت [٣] ثم على ولده ، ثم على العلماء ، فوجدتها سبعمائة وإحدى وستين مجلدة : في علوم القرآن مائة وأربعون ، والحديث تسع عشرة ، والفقه تسعة وثلاثون ، واللغة مائة وثلاث وأربعون ، والشعر مائة واثنان وعشرون ، والنحو والتصريف مائة وخمس وسبعون ، وعلوم الأوائل من طب وغيره مائة وثلاث وعشرون ، وكان معتقه نجيب الدين قد هيأ لها خزانة كبيرة بمقصورة ابن سنان الحنفية المجاورة لمشهد زين العابدين بجامع دمشق ، ونقل إليها جملة من هذه الكتب » [٤] .

وكان تاج الدين الكندي قد حصل كتبا من رحلته إلى مصر برفقة الأمير عز الدين فروخ شاه ابن أخي السلطان صلاح الدين ، واقتنى من خزائن كتبها كل نفيس [٥] على قلة ما ابتاعه منها [٦] ، ولكن هذه الكتب تفرقت وعدمت وبيعت سرا وجهرا [٧]ولم يبق بالخزانة إلا القليل الرث [٨] .

٦ـ جمع خزائن الجامع الأموي في خزانة واحدة :

كانت هذه الخزائن متفرقة في أرجاء الجامع الأموي ، فأمر السلطان المعظم عيسى بن العادل أن تجمع في مكان واحد [٩] ، وسبب ذلك أن قاضي دمشق جمال

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٧٩

(٢) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٧ ص (٣٥٦،٣٥٣) ، السيوطي : بغية الوعاة ج١ ص (٥٧٣،٥٧٢،٥٧١،٥٧٠) .

(٣) هو : نجيب الدين ، ياقوت مولي الشيخ تاج الدين الكندي ، كان من الفضلاء ، وله مشاركات في الأدب والشعر ، توفى (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٢٦ .

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين ص٩٨

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص ٣٤٥

(٦) القفطي : أنباه الرواة ج٢ ص (١١،١٠)

(٧) ابو شامة : ذيل الروضتين ص (٩٨،٩٧)

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٧٩

(٩) أبو شامة : ذيل الروضتين ص (١٠٦،١٠٥،١٠٤)

الدين بن يونس بن بدران (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) حسن للسلطان المعظم عيسى أن يجمع الخزائن التي في الجامع في مشهد ابن عروة ، فنقلت الخزائن من الزاوية الغربية، ومن الكلاسة ، ومن أروقة الجامع والخزانتان اللتان بحلقة الحنابلة [١] وبنى لها السلطان خزائن في مشهد عروة في شرقه وغربه [٢] .

٧ـ خزانة الفخر بن المالكي الشافعي :

هو محمد بن عمر بن عبد الكريم الحموي الدمشقي الشافعي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) طلب الحديث على كبار علماء عصره ، وكتب الأجزاء وكان ذو خط حسن ، له خزانة كتب تجاه محراب الصحابة بالجامع [٣] .

٨ـ خزانة التربة الأشرفية بالجامع :

تقع بجوار الكلاسة في الجانب الشمالي من الجامع الأموي [٤] بناها السلطان الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب (٦٣٥هـ/١٢٣٧م)، ووضع فيها الكتب النفيسة من كل كتاب عدة نسخ [٥] ، رأى ابن خلكان ديوان الفقيه الشاعرأبو الحسن محمد بن علي بن الحسن المعروف بابن أبي الصقر الواسطي(٤٩٦هـ/١١٠٣م) وهو في مجلد واحد داخل هذه الخزانة [٦] ، ووجد أيضا ديوان الشاعر أسعد بن يحيى موسى أبو السعادات المعروف بالبهاء السنجاري(٦٢٢هـ/١٢٢٥م) وهو في مجلد كبير [٧] .

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص (١٠٤،١٠٥،١٠٦)

[٢] نفسه ص ١٣٦

[٣] الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ ص ٢٦١

[٤] النعيمي : الدارس ج٢ ص (٢٩١،٢٩٢)

[٥] الصفدي : تحفة ذوي الألباب ج٢ ص ١٢٧

[٦] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص ٤٥٠

[٧] نفسه ج١ ص٢١٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١١٩

٩ـ خزانة مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه :

تقع في الركن الشرقي من المقصورة الحديثة في المحراب ، داخل خزانة كبيرة وهو المصحف الذي بعث به الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أهل الشام [١] ، وممن تولى خزانة هذا المصحف الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن مناقب الدمشقي (٦٩٥هـ/١٢٩٥م) .

ثانيا : الخزائن الملحقة بالمدارس :

١ـ خزانة المدرسة العادلية :

أول من أسس هذه المدرسة السلطان نور الدين محمود بن زنكي (٥٦٩هـ/١٢٧٣م) وتوفي قبل أن يتم بناءها [٢] ، ونسبت إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب لأنه هو الذي أعاد بناءها [٣] ، وعندما توفى الشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري (٥٧٨هـ/١١٨٢م) أوقف كتبه على طلبة العلم [٤]، ثم نقلت كتبه إلى خزانة المدرسة العادلية [٥] ، وكانت هذه المدرسة قد أنشئت له على أيام نور الدين محمود بن زنكي ، فأدركه الأجل قبل تمامها [٦] ، يقول أبو شامة : « فما فاتها ثمرته إذ فاتها مباشرته ـ رحمه الله ـ » [٧] وزار هذه المدرسة ابن خلكان سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) ، يقول : « رأيت في خزانة كتب المدرسة العادلية بدمشق المحروسة كتاب (التقريب) في ست مجلدات ، وهي من حساب عشر مجلدات ، وكتب عليه بأنه تصنيف أبي القاسم بن بكر القفال الشاشي ، وقد كانت النسخة المذكورة للشيخ قطب الدين مسعود النيسابوري ، وعليها خطه بأنه وقفها » [٨] .

---

[١] ابن جبير : الرحلة ص ٢٤٢

[٢] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص ٢٤٠

[٣] النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٥٩

[٤] أبو شامة : الروضتين ج١ ص ٥٤٥ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٦١

[٥] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية ج١٣ ص ٢٩٨

[٦] أبوشامة : ذيل الروضتين ج١ ص ٥٤٥

[٧] أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٤٩

[٨] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص (٢٠٠،٢٠١)

ومن العلماء من أوقف كتبه بها ؛ فقد أوقف العلامة أبو شامة المقدسي كتبه بخزانة المدرسة « وشرط ألا تخرج منها ، فاحترقت بجملتها » [١] .

ومن العلماء من أوقف كتبه على طلبة العلم ، ولم تحدد المصادر المكان الذي أوقف كتبه عليه؛ فقد ذكر أبو شامة أن الفقيه كمال الدين أحمد بن كاتب الزماري (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) قد وقف جميع كتبه ولم يحدد المكان الذي أوقفها فيه[٢].

٢ــ خزانة المدرسة الشبلية :

باني المدرسة كافور بن عبد الله الحسامي ، شبل الدولة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) هي للأحناف ، [٣] وأوقف عليها الأوقاف ونقل إليها الكتب الكثيرة ، [٤] ومن الكتب التي كانت في خزانة هذه المدرسة كتاب (البدائع) للامام أبي بكر بن مسعود الكلساني الحنفي (٥٨٧هـ/١١٩١م) وهو في سبع مجلدات ومنها (حلية الأولياء) لأبي نعيم الأصفهاني أوقفه كافور بن عبد الله الحسامي باني المدرسة ، جاء في كتاب وقفه : « وقفه العبد الفقير إلى رحمة القدير كافور بن عبد الله الحر الحسامي على جميع طوائف المسلمين ، وجعل مستقره بمدرسته التي أنشأها بجبل قاسيون ، وجعل شرطه على ما يقتضيه كتاب وقف الكتب ، وذلك ثالث وعشرين ربيع الآخرة ، سنة إحدى وعشرين وستمائة » [٥].

٣ــ خزانة المدرسة البادرائية :

تنسب للشيخ عبد الله بن أبي الوفاء ، محمد بن الحسن بن عبد الله البادرائي البغدادي (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ، جاء إلى دمشق وبنى المدرسة للفقهاء الشافعية [٦]، وأوقف عليها أوقافا حسنة وجعل بها خزانة كتب جيدة ، ثم عاد إلى بغداد وتوفى بها [٧] ، ومن الكتب الموقوفة بهذه

---

[١] شذرات الذهب ص٣١٩

[٢] ذيل الروضتين ص١٧٥

[٣] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٢٥ ، النعيمي : الدراس ج١ ص (٥٣١،٥٣٠)

[٤] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٤٢

[٥] فهرس مخطوطات الظاهرية ص٢٨٠

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨

[٧] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٢٠٩

الخزانة: كتاب (الحاوي) للإمام الماوردي [١].

٤ـ خزانة المدرسة البهنسية :

تنسب إلى مجد الدين أبي الأشباب الحارث أبي مهلب (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) ، وزير الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر ، وجعل كتبه بها وقفا [٢]

٥ـ خزانة المدرسة الرواحية :

باني المدرسة زكي الدين أبو القاسم هبة الله المعروف بابن رواحة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) [٣] ، وأوقف عليها أوقافاً حسنة ، وكان يسكن بها ، وأوقف عليها خزانة كتب جليلة جعلها في الجانب الغربي من إيوان المدرسة [٤] ، وأوقف الشيخ البرهان السويدي (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) كتبه بها [٥] .

ثالثا : **خزائن دور الحديث** :

١ـ خزانة دار الحديث الأشرفية :

أنشأها الملك الأشرف ، موسى بن العادل (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) [٦] ونقل إليها كتباً كثيرة نفيسة [٧] .

ونمت خزانة هذه المكتبة بما ساهم به العلماء من وقف الكتب عليها ؛ فقد أوقف شيخ الدار المحدث تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) كتبه وقد بلغت مجلدات كثيرة بخزانتها [٨] ، وضم المحدث

---

(١) ابن أبي الوفاء : الجواهر المضيئة ج٣ ص ٥٣٢

(٢) النعيمي : الدارس ج١ ص٢١٥

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٢٥

(٤) نفسه ص١٤٩

(٥) نفسه ص ١٩٩

(٦) النعيمي : الدارس ج١ ص١٩ ، العلبي : خطط دمشق ص (٧٥،٧٦)

(٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧٦٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٥٩

(٨) الأسنوي : طبقات الشافعية ص (٢٦١،٢٦٢)

أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الجبار الحلبي (٦٨١هـ/١٢٨٢م) كتبه التي كتبها إلى خزانة دار الحديث الأشرفية [١] ، وأوقف محمد بن عبد الخالق بن مزهر الأنصاري الدمشقي المقري (٦٩٠هـ/١٢٩١م) كتبه بها [٢] ، وعمر بن يحيى بن حمد الكرخي (٦٩٠هـ/١٢٩١م) له مجاميع أوقفها على خزانة الدار[٣]، وأوقف الشيخ سبط بن الجوزي (٦٥٤هـ/م) كتاب (روح العارفين) بعد شرحه[٤]، ومن بين الكتب الموقوفة: كتاب (سلوة العارفين وأنيس المشتاقين) لمحمد بن عبد الملك بن خلف السلمي (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) أوقفه الملك الأشرف ، موسى على خزانة مدرسته [٥] ، وكتاب (مناقب الشافعي) لإسماعيل بن إبراهيم بن محمد الهروي (٤١٤هـ/١٠٢٣م) ، وهو كتاب حافل في مجلدين [٦] . من الكتب الموقوفة على هذه الخزانة أيضا كتاب (شرح السنة) وكتاب (معالم التنزيل) [٧] .

٢ـ خزانة دار الحديث الضيائية :

أنشأها الفقيه ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي [٨] ، وأوقف عليها كتبا عظيمة [٩] ، منها بخطه على أصحابهم من أهل الحديث والفقهاء [١٠]

وساهم في إثراء هذه المكتبة بوقف الكتب مجموعة من العلماء ، منهم : موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) ، وعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) ، وعثمان بن عمر بن الحاجب

---

(١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٤ ص ١٦٥

(٢) الذهبي : معرفة القراء الكبار ص٣٧٨

(٣) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص ٣٤٤

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين ص٩٣

(٥) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٤ ص ١٨٠ ، وعند أبي شامة هو كتاب (روح العارفين) ، ذيل الروضتين ص٦٣

(٦) نفسه ص ٢٦٦

(٧) الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦٢١،٦٣٠) ص١٢٠

(٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص٧٧١ ، النعيمي : الدارس ج٢ ص٩١

(٩) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٨١

(١٠) ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٣١ ، ابن كنان : المروج السندسية ص٣٧

(٦٤٦هـ/١٢٤٨م) ، والبهاء عبد الرحمن إبراهيم بن أحمد المقدسي (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) ، والمحدث عمر بن محمد بن منصور الأميني الدمشقي المعروف بابن الحاجب (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) [١]، والشيخ علي بن مسعود الموصلي بن نفيس بن عبد الله الموصلي الحافظ (٧٠٤هـ/١٣٠٤م) [٢] ، ومحمد بن عبد المنعم بن هامل بن موهوب الحراني أوقف كتبه وأجزاءه بالضيائية [٣] ، وكذلك محمد بن الحسن بن سالم بن سلام ، المحدث أوقف أجزاءه بالمدرسة الضيائية أيضا [٤] .

يقول ابن عبد الهادي في وصف عظمة هذه المكتبة : « وكان بهذه المدرسة كتب الدنيا والأجزاء الحديثية ، حتى يقال إنه كان بها خط الأئمة الأربعة ، حتى يقال إنه فيها التوراة والإنجيل » [٥] .

---

(١) المنذري : التكملة ج٣ ص ٣٤٦

(٢) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج٣ص٤٢٧ ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٣٢

(٣) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص (٢٨١،٢٨٢) ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٣٤

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث، حوادث (٦٢١،٦٣٠)ص٣٨١ ، المنذري : التكملة ج٣ ص٣٤٦

(٥) ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص ١٣٨

رابعا : خزائن الربط :

خزائن الربط السميساطية :

من أشهر الأربطة بدمشق [١] ، وكانت له خزانة عامرة بالكتب الموقوفة [٢] ومن اوقف عليها كتبه: الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود البندهي (٥٨٤هـ/١١٨٨م) [٣] وهي خمسة كتب التي حصلها من خزانة جامع حلب التي أباح له السلطان صلاح الدين أن يأخذ منها ما شاء [٤] ، يقول القفطي : « رأيته وهو يحشوها في عدل » [٥] ، وحصل في ذلك من كتب اللغة والأدب كل جميل ومما حصله كتاب (المحكم) في اللغة لابن سيده الأندلسي ، وهو كتاب كبير في عدة مجلدات يقارب العشرين [٦].

ومن الكتب الموقوفة به كتاب (شرح الحماسة) للتبريزي في ست مجلدات أوقفه المجلد البهنسي (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) وزير الملك الأشرف موسى بن العادل بن أبي بكر بن أيوب [٧] وأوقف محمد بن إسرائيل بن عبد الله السلمي الدمشقي المقرئ كتابه (المغنى والاستبصار في القراءات والكتابات) في خزانتها

---

[١] العلبي : خطط دمشق ص٣٩٨

[٢] العش : يوسف ، دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر لبنان ١٤١١ هـ ص(٢٦٣،٢٦٤)

[٣] ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج٥ ص (٣٥٢،٣٥٣) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص ٣٩٠

[٤] نفسه ج٥ ص (٣٥٢،٣٥٣) ، العبادي : ذيل طبقات الفقهاء الشافعيين ، مكتبة الثقافة الدينية ، تحقيق أحمد عمر هاشم وزميله ص٥٢

[٥] أنباه الرواة ج٣ ص (١٦٦،١٦٧) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادثحوادث(٥٨١،٥٩٠) ص(١٩٣،١٩٥)

[٦] القفطي : أنباه الرواة ج٣ ص (١٦٦،١٦٧) .

[٧] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٧١

خامسا : خزائن البيمارستانات ومدارس الطب :

١ــ خزانة البيمارستان النوري :

أوقف السلطان نور الدين محمود بن زنكي (٥٦٩هـ/١٢٧٣م) على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية [١] ؛ وكانت في الخزانتين اللتين في صدر الإيوان [٢].

٢ــ خزانة المدرسة الدخوارية الطبية :

كان مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد الدخوار الطبيب (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) قد جمع من كتب الطب وغيره تبلغ أكثر من مئة مجلد [٣]، وقد أوصى أن تكون في المدرسة على المشتغلين بالطب والأطباء [٤] .

سادسا: خزائن الترب :

١ــ خزانة التربة [٥] البهنسية :

قد أوصى المجد البهنسي وزير الملك الأشرف موسى (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) أن تكون كتبه بالتربة التي أنشأها في جبل قاسيون [٦] .

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ص٦٢٨ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ ص ٢٤

(٢) النعيمي : الدارس ج٢ ص ١٣٨

(٣) ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ص٧٢٨

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٧٢

(٥) الترب هي : التربة الخاصة التي بناها أناس ليدفنوا بها ، وجعلوا لها جهات بر وصدقات ، عبد القادر بدران : منادمة الأطلال ص٣١٧ .

ويرى احد الباحثين أن لفظ التربة ماخوذ من الطربال الذي خفف بحذف آخره فصار طربا ، وتداولته الألسن فنطق بعد ذلك تربة للشبه القريب بين طربا وتربة في اللفظ والمعنى ... ومنذ القرن الخامس الهجري اخذت الترب ترتدي ثوبا علميا ، وتنطبع بطابع ثقافي ، فكان يضاف إلى التربة مدرسة علم ، او مكتبة مطالعة ، أو مكتب لتعليم الأيتام والأطفال ، او مسجد للصلاة يكون فيه درس علم او قراءة قرآن ، دهمان : في رحاب دمشق ، مقال الترب والمدافن الخاصة في الإسلام ص ٢٧٤ ، وفي نظر الباحث أن الأمر يحتاج إلى مزيد بحث .

(٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٧١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٤٠ ، بدران : منادمة الأطلال ص٣٢٨

سابعا : الخزائن الخاصة :

١ــ خزانة الطبيب موفق الدين بن المطران :

يقول ابن أبي أصيبعة : « كان له همة عالية في تحصيل الكتب؛ حتى إنــه مات وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلداً خارجــــاً عما استنسخه » [١] .

٢ــ خزانة القاضي زكي الدين الطاهر كان للقاضي زكي الدين الطاهر قاضي دمشق، خزانة كتب نفيسة اضطر إلى بيعها في دين عليه بلغ عشرين ألف دينار[٢]

٣ــ خزانة الملك الناصر داوود :.

وكان للملك الناصر داود بن المعظم عيسى خزانة خاصة للكتب جمع فيـــها نفيس الكتب ذهبت بعد وفاته [٣]

---

[١] عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص (٦٥١،٦٥٩)

[٢] ابو شامة : ذيل الروضتين ص (١١١،١١٢)

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص ١٤٥

الفصل الرابع

أماكن التعليم ونظمه ووسائله

المبحث الأول : المسجد

المبحث الثاني : الكتاتيب

المبحث الثالث : دور القرآن الكريم

المبحث الرابع : دور الحديث الشريف

المبحث الخامس : المدارس

المبحث السادس : الربط والزوايا والخوانق

المبحث السابع : الرحلة في طلب العلم

المبحث الثامن : الاجازات العلمية

المبحث الأول : المسجد :

يحتل المسجد مكانة عظمى في نفوس المسلمين ، فهو أحد أسس بناء المجتمع المسلم ومن ضروريات الحياة الإسلامية [١] ، يقول الله تعالى : (**ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم**)[٢]، فبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم انتشر الصحابة في الأمصار معلمين ، وساروا على خطاه والتزموا هديه ، فأنشأوا المساجد لإقامة شعائر الدين ولتعليم الناس ونشر علوم الكتاب والسنة [٣] ، فأصبح المسجد مركز للتعليم والتوجيه والتفقه في الدين ، وقد ترجم الإمام البخاري لبعض أبواب كتاب العلم بقوله : « باب ذكر العلم والفتيا في المسجد » [٤] .

وكانت دمشق إحدى المدن التي دخلها الصحابة ، فكان مسجدها الجامع هو المكان الذي يلتقي فيه أهل الشام لتدارس العلوم [٥].

أما العصر الأيوبي فقد امتاز بكثرة مساجده ، حيث أحصى ابن عساكر ما كان بها من المساجد في عهده فبلغت مائتين وإثنين وأربعين مسجدا ، هذا ما كان بداخلها ، أما التي في أرباضها فقد كانت مائة وثمانية وسبعون مسجدا [٦] ، وذكر ابن شداد أسماء ستمائة وخمسة وستين مسجدا [٧] ، أي أن العدد قد زاد عن عصر ابن عساكر بسبب نشوء مناطق جديدة كالصالحية وغيرها [٨] ، وعلى كثرة المساجد التي ذكرها ابن عساكر وابن شداد ، إلا أنه لم تبرز الحركة العلمية إلا

---

[١] الوشلي : عبد الله قاسم ، المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الكتب الثقافية ١٤١٠هـ ص٢٧

[٢] سورة البقرة : آية ١١٤

[٣] شواط : الحسين بن محمد ، مدرسة الحديث في القيروان ، الطبعة الأولى ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ١٤١١هـ ج١ ص١٣٠

[٤] البخاري : صحيح البخاري ج١ ص٦١

[٥] الزرو : خليل داوود ، الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة ، الطبعة الأولى ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ص١٨

[٦] ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص٧٨ بتهذيب بدران

[٧] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص(٨٦،١٦٦)

[٨] العلبي : خطط دمشق ص٢٨١

في عدد قليل منها ، ولعل السبب في انحصار دور المسجد العلمي بدمشق ــ عــدا الجامع الأموي ــ يعود إلى كثرة المدارس والمعاهد العلمية التي شهدتها دمشق في هذا العصر ، والتي نافست بدورها التعليمي دور المسجد [١] .

وسوف يكون حديثنا هنا عن المساجد التي برز دورها التعليمي بدمشق فــي الفترة المعنية بالبحث .

أولاً : الجامع الأموي :

أنشئ هذا الجامع في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، يقول ابــن عساكر : « وكان موضع مسجد دمشق كنيسة من كنائس العجم ، فلما كــان فتــح دمشق كان المسلمون يصلون في ناحية منها ، والنصارى في ناحية ، فلم يزالــوا كذلك حتى ولي الوليد الخلافة ، عندها بعث إلى النصارى قائلا لــهم : أعطونــا نصف الكنيسة الذي بأيديكم ، ونحن نبني لكم كنيسة حيث شئتم من دمشق ، فــأبوا عليه ، فقال : ائتونا بالعهد فأتوه به فقال : إنا أخذنا كنيسة توما عنــوة والكنيســة الداخلية صلحا ، فأنا أهدم كنيسة توما ، وكانت أكبر من هذه الداخلية فرضوا بهدم تلك الكنيسة يعني نصف الكنيسة التي كانت بأيديهم وأدخلها في المســجد ، وكــان بابها قبلة المسجد فوضع المحراب الذي يصلى فيه اليوم » [٢].

ويصفه ابن جبير بقوله : « هو من أشهر جوامع الإسلام حســنا ، وإتقــان بناء وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين ، وشهرته المتعارفة في ذلــك تغنــي عن استغراق الوصف فيه » [٣] .

ويصف لنا الوزير صفي الدين بن شكر (٦٣٠هــ/١٢٣٢م) ما كان به مــن الحركة العلمية في فترة البحث ، وهو معاصر لها بقوله : « مضيت إلى مســجدها الجامع ، وشغفت بإدراك البصر منه إدارك المسامع ، فلما وصلت إليــه وحللــت لديه رأيت مرأى صغر الرواية وحصل من الحسن علي النهايــة ، نــورا يجلــو الأبصار ، وجمعا يفضل على جمــوع الأمصــار ، وعبــادة موصولــة علــى

---

[١] سعيد عاشور : العلم بين المسجد والمدرسة ص(١٩،٢٠) ، من مجموعة أبحاث تاريخ المدرسة الإسلامية في مصر ، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م .

[٢] ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص٢٠٠ ، تهذيب بدران

[٣] ابن جبير : الرحلة ص٢٣٥

الإستمرار ، وقرآنا يتلى آناء الليل وأطراف النهار ، ومنقطعين إليه قد أنفقوا في الاعتكاف نفائس الأعمار ، والبركات تحف بجوانبه ، والعلوم تنشر في زواياه ومحاربه ، والأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسند وتروى ، والمصاحف بين أيدي الناس تنشر فلا تطوى ، والخلق منقسمون إلى حلق قد نبذها أهلها الفلق ، والإسلام فيها فاش ، والجهل به متلاش ... وهو بيت المتقين وسوق المتصدقين ، ليله للمتعبدين ، ونهاره للعلماء والمجتهدين » [١].

وكان بالجامع أماكن وخلوات للمطالعة والعبادة يجلس بها العلماء بعد فراغهم من دروسهم للقراءة والفتوى [٢] وهي لا تخلو أن تكون بها خزانة كتب ، يقول ابن جبير : « وبالجامع المكرم عدة زوايا على الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس ، وهي من جملة مرافق المسجد » [٣].

ولقد أدى الجامع الأموي دوراً كبيراً في الحياة العلمية وتنوعت أساليب التعليم به ، بين حلقات لتعليم القرآن وعلومه ، وحلقات للفقه والحديث واللغة العربية ، إلى جانب المجالس العلمية والخطب والمواعظ ، وقل أن تجد أحدا من العلماء إلا وله حلقة بالجامع وأخرى بمدرسة من المدارس الدمشقية [٤] .

---

[١] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٦٧ ، النعيمي : الدارس ج٢ ص٤١٣

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص(١٣٦،١٣٧،١٣٨)

[٣] ابن جبير : الرحلة ص٢٣٩

[٤] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص٣٦٩ ، السيوطي : بغية الوعاة ج١ ص(٢٩٤،٢٩٥)

حلقات الجامع :

١ـ حلقات القرآن الكريم والقراءات :

كان بالجامع الأموي من الحلقات العلمية المتخصصة لقراءة القرآن العزيز وتعليمه عدد كبير ، يذكر أنها كانت مائة وعشرين حلقة ، وكان لكل مقرئ راتب يأخذه من ديوان الجامع [١] من تلك الحلقات :

(أ) حلقات السبع : [٢]

وهو أن يقرأ القرآن الكريم كله في سبعة أيام ، أي يقرأ سبعه كل يوم[٣] ويذكرابن عساكر أن أول من أحدث المدارسة بالجامع الأموي إسماعيل المخزومي لما قدم على عبد الملك بن مروان فأجلسه بعد صلاة الصبح في الجامع واستحسن ذلك من يليه من أهل المسجد فقرأوا بقراءته،وأنكر عليهم ذلك الضحاك بن عزرب أمير دمشق في عهد عمر بن عبد العزيز، قال:((ما رأيتها ولا سمعتها من قبل ، وقد أدركت صحابة النبي صلى الله عليه وسلم))[٤] .

ومن أشهر تلك الأسباع :

ــ السبع الكبير ، وعليه أوقاف كثيرة ، وعدد من فيه من القارئين ثلاثمائة وأربعة وخمسون مقرئا .

ــ سبع المتلقين من الصغار ، وعددهم ثلاثمائة وثمانية وسبعون متلقنا .

ــ سبع التاج الكندي بمقصورة الخضر ــ عليه السلام .

ــ سبع فخر الدين المالكي .

ــ سبع القاضي الفاضل .

ــ سبع المالكية .

ــ سبع الحنابلة[٥]ويكون موعد تلك الأسباع إثر صلاة الصبح من كل يوم[٦].

---

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٨٥

(٢) جاء في تذكرة السامع (أن قراءة القرآن كل سبعة أيام ورد حسن ، ورد في الحديث ، وعمل به الإمام احمد بن حنبل) ، ابن جماعة ص٢٢

(٣) العلبي : خطط دمشق ص٢٩٧

(٤) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص (٢١٤،٢١٥) تهذيب بدران

(٥) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص (٨٢،٨٣) ، النعيمي : الدارس ج٢ ص (٤١٠،٤١١) .

(٦)ابن جبير : الرحلة ص(٢٤٤،٢٤٥)

(ب) حلقة الكوثرية :

وهي قراءة القرآن من بداية سورة الكوثر إلى سورة الناس [١] ، وأصلها أن أحد ذوي اليسار توفي وأوصى بأن يدس قبره في الجامع ، وأوقف عليه وقفاً يغل مائة وخمسين دينارا في السنة برسم من لا يحفظ القرآن [٢] ، وتقع هذه الحلقة باتجاه شباك الكلاسة تحت مئذنة العروس بالجامع [٣] ، وكان يحضر هذه الحلقات والتي تكون بعد صلاة العصر من كل يوم من لا يجيد حفظ القرآن ، وهي تعين من لا يحفظ القرآن على حفظه [٤] ، ويذكر ابن شداد بأن السلطان نور الدين محمود قد أوقف حلقة الكوثرية على صبيان صغار وأيتام يقرأون في كل ليلة بعد العصر ثلاث مرات { **قل هو الله أحد** }ويهدون ثوابها للواقف [٥] ، وللمجتمعين في هذه الحلقات مرتبات يأخذونها كل يوم ، حيث يصل عددهم إلى الخمسمائة [٦] ، وكان يدور عليهم كاتب الغيبة [٧] فمن غاب منهم قطع مرتبه على قدر غيابه[٨].

وقد تصدر للإقراء بالجامع نخبة من كبار العلماء ، منهم الشيخ إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور الحنبلي(٦١٤هـ/١٢١٧م) كان من أهل الزهد والعبادة ، له حلقة للقرآن والفقه دائمة ، صبوراً على التعليم ، باذلاً ماله ونفسه للطلبة [٩]، و محمد بن عمر بن حسين زين الدين الكردي(٦٢٨هـ/١٢٣٠م) أخذ القراءات على الإمام الشاطبي[١٠]، وله حلقة إقراء بالجامع[١١]،و الشيخ علي بن

---

(١) ابن جبير :الرحلة (٢٤٤،٢٤٥)

(٢) نفسه ص ٢٦٣

(٣) النعيمي : الدارس ج١ ص٤٥١

(٤) ابن جبير : الرحلة ص(٢٤٤،٢٤٥)

(٥) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٨٥

(٦) ابن جبير : الرحلة ص(٢٤٤،٢٤٥)

(٧)هومن يكتب من يحضرالدرس من الفقهاء،وعليه أن يتحرى في كتابة من غاب،ويعذر كل من ظهر له صدقه ، تاج الدين السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ص١١٠

(٨) ابن بطوطة : تحفة النظار ص١٠٧

(٩) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٥٨٦،٥٨٧)

(١٠) الذهبي : العبر ج٣ ص١٠٢

(١١) ابن الجزري : محمد بن محمد ، غاية النهاية في طبقات القراء ، الطبعة الثالثة ، دار الكتب العلمية ١٤٠٢هـ ج٢ ص ٢١٦

عمر بن عبد الصمد علم الدين السخاوي(٦٤٣هـ/١٢٤٥م) شيخ القراءات في زمانه [١]له حلقة بالجامع عند قبر زكريا عليه السلام[٢]، وكان الناس يزدحمون عليه من أجل القراءة ، ونفع الله به خلقا كثيرا[٣]، والشيخ المنتخب بن أبي العز رشيد أبو يوسف الهمذاني نزيل دمشق ، تصدر وأفاد الطلبة[٤]، ويوسف الواسطي الأعراج كانت حلقة الإقراء التي له تحت قبة النسر [٥] بالجامع .

من هؤلاء القراء الشيخ أبو العباس أحمد بن العراقي (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) كان منقطعا بالجامع يقرأ الناس القرآن حتى توفى[٦].

(ج) حلقات العلوم الشرعية والعربية :

١ـ المدرسة الغزالية [٧] :

وهي تعرف بزاوية الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي(٤٩٠هـ/١٠٩٦م) لأنه قدم دمشق ودرس بها [٨]، وتعرف أيضا بالغزالية، وذلك لأن الإمام أبا حامد الغزالي كان يدرس بها عندما قدم إلى دمشق واشتهرت به[٩]، وتقع في الزاوية الشمالية الغربية من الجامع الأموي[١٠]، وقد جعل لها السلطان صلاح الدين الأيوبي أوقافا على المشتغلين بها[١١]، ويمكن أن يعد هو المؤسس الحقيقي لها[١٢].

---

[١] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص٨٥٩

[٢] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص٨٥٩ ، الداوودي : محمد بن علي بن أحمد ، طبقات المفسرين ، دار الكتب العلمية ، بيزوت ج١ ص(٤٢٩،٤٣٠،٤٣١،٤٣٢) ، ناقش الشيخ الألباني موضوع قبور الجامع الأموي ونفى وجودها بداخله ، تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ، الطبعة الرابعة ، المكتب الإسلامي ١٤٠٣ص(٦٢،٦٨)

[٣] سبط بن الجوزي:مرآة الزمان ج٨ ص (٧٥٨،٧٥٩) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٣٤٠،٣٤١)

[٤] الذهبي : العبر : ج٣ ص ٢٤٩ .

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨

[٦] نفسه ص٢٣٢

[٧] تسمى أكثر المصادر حلقات الجامع الأموي بالمدارس وهو ما سرت عليه هنا .

[٨] الذهبي : العبر ج٢ ص ٣٦٢

[٩] النعيمي : الدارس ج١ ص ٤١٣ ، ابن الحوراني : عثمان بن أحمد السويدي ، زيارات الشام ، الطبعة الأولى ، مكتبة الغزالي ، دمشق ١٤٠١هـ ، تحقيق : بسام الجابي ص٢١

[١٠] النعيمي : الدارس ج١ ص٤١٣

[١١] أبو شامة : الروضتين ج١ ص٦٧٥

[١٢] العلبي : خطط دمشق ص١٢٩

ومن العلماء الذين تولوا التدريس بها العلامة مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري(٥٧٨هـ/١١٨٢م)[١] قدم دمشق ودرس بها وعرفت به[٢] والشيخ الفقيه عبد الله بن محمد بن هبة الله بن علي بن أبي عصرون(٥٨٥هـ/١١٨٩م)[٣]، والفقيه ضياء الدين عبد الملك بن ياسين التغلبي الدولعي الخطيب (٥٩٨هـ/١٢٠١م) قدم دمشق واستوطنها وصار خطيب جامعها ودرس بالزاوية الغربية ـ هذه ـ مدة طويلة حتى عرفت به[٤] .

ومن العلماء الأعلام الذين تولوا التدريس بها عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم (٦٦٠هـ/١٢٦١م) حتى خرج من دمشق[٥] ، وتولاها بعد خروجه الشيخ داود بن عمر بن يوسف بن يحيى الزبيدي المقدسي(٦٣٨هـ/١٢٤٠م) ، ثم عزل عنها[٦] ، والفقيه أحمد بن أحمد بن نعمة شرف الدين النابلسي المقدسي(٦٧٤هـ/١٢٣٥م) درس بها[٧]، وكان طويل الروح على تعليم الطلبة[٨]، ثم درس بها الخطيب محي الدين محمد بن عبد الكريم بن عبد الصمد الحرستاني (٦٨٢هـ/١٢٨٣م)[٩] ، وظلت هذه الزاوية تؤدي دورها العلمي بعد ذلك عدة قرون.[١٠] .

---

[١] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص (٢٩٨،٢٩٧) ، الذهبي : العبر ج٣ ص(٧٧،٧٦)

[٢] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٢٩٤ ، الأسنوي : طبقات الشافعية ص٤١٦

[٣] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص (٥٤،٥٣) ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص(٣٠،٢٩،٢٨،٢٧)

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٣١ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٥١٢،٥١١) ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص(٣٢،٣١)

[٥] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص٢١٨

[٦] الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٣ ص (٤٨٠،٤٧٩)

[٧] ابن الملقن : عمر بن علي بن أحمد الأندلسي ، العقد المذهب في طبقات حملة المذهب ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ ، تحقيق : أيمن نصر الأزهري و سيد مهنا ص٣٧٩

[٨] السيوطي : بغية الوعاة ج١ ص (٢٩٤/٢٩٥)

[٩] النعيمي : الدارس ج١ ص(٤٢٢،٤٢٣،٤٢٤،٤٤٥،٤٤٦)

[١٠] النعيمي : الدارس ص (٤٢٤،٤٢٥،٤٢٦)

٢ـ المدرسة التاجية :

هي زاوية بالجامع ، تقع شرقي الجامع ، وتعرف بمقصورة ابن سنان ،[١] وتنسب إلى العلامة تاج الدين زيد بن الحسن (٦١٣هـ/١٢١٦م) شيخ الأحناف والقراء والنحاة بالشام[٢] أوقف بها خزانة كتبه[٣]، ويرى أحد الباحثين أن هذه الزاوية إنما أنشئت لتنافس الزاوية الغزالية التي تقابلها من الجهة الغربية ،وهي للشافعية ، و تعد معقلا علميا للتجمع الحنفي الذي كان يدعمه السلطان المعظم عيسى الحنفي المذهب[٤]، وكان من جملة الدروس التي تلقى في هذه الزاوية درس في اللغة العربية ، فقد تصدر الشيخ أحمد بن سالم أبو العباس جمال الدين المصري(٦٦٤هـ/١٦٦٥م) لإلقاء درس النحو بها[٥]، وفي المقصورة خمس نصوص منقوشة على أحجار في جدران الجامع من الداخل ، هي عبارة عن ملخصات لوقفيات المدرسة، وهي تعطينا فكرة عن بعض النواحي العلمية بهذه المقصورة ، نص الوقفية الأولى مؤرخ بسنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وفيه:«وعلى القراء الأخيار الحفاظ الحنفية يقرأ كل واحد سبعا من القرآن بكرة كل يوم في هذه المقصورة ، ويلقى الصبيان المتعلمين لكتاب الله بها على ما ذكر في كتاب الوقف المقرر لها ، وذلك في سنة تسع وثمانين وخمسمائة»[٦]، ويشير هذا النص والنص الرابع إلى أن المقصورة خاصة بالقراء الأحناف ، وأنها من الأماكن التي يلقن فيها الصبيان ويقرأ فيها السبع ، كما تشير بقية النصوص إلى حجم ما كان موقوفا على هذه المقصورة من الأراضي والبساتين والضياع ، مما يدل على كثرة الطلاب والدارسين بها وحاجاتهم إلى الطعام والكسوة ، كما نصت على ذلك الوقفية الثانية المؤرخة بسنة إحدى وستمائة [٧] .

---

[١] النعيمي : الدارس ج١ ص ٤٨٣

[٢] الذهبي : العبر ج٣ ص ١٥٣

[٣] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٩٨

[٤] دهمان : في رحاب دمشق ، مقالة المقصورة التاجية ص (١٦٩،١٧٠)

[٥] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص٣٤٩

[٦] دهمان : في رحاب دمشق ، مقالة المقصورة التاجية ص١٧٣

[٧] نفسه ص (١٧٤،١٧٥)

٣ـ دار الحديث الفاضلية :

تنسب إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي بن حسن البيساني (٥٩٦هـ/١١٩٩م) أنشأها ولده أحمد بن عبد الرحيم بن علي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، ففي سنة (٦٢٧هـ/١٢٣٩م) حوط دار بنزينا شمالي الكلاسة ، وجعله مكانا يقرأ فيه القرآن والسنة ، وجعل فيه خزانة كتبة ، وقد خرب هذا المكان عندما بنيت التربة الأشرفية ولم يبق إلا المكان الذي يقرأ فيه الحديث وخزانة الكتب [١]، يقول ابن شداد :«وفي الجامع من حلق الحديث ميعاد بالكلاسة للقاضي الفاضل »[٢]، وأول من القى بها الدروس تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم البلداني (٦٥٥هـ/١٢٥٧م)[٣] سماعا وكتابا وإسماعا [٤]، ومنهم النجم بن الشيخ العز بن عبد السلام (٦٥٧هـ/١٢٥٨م)[٥].

٤ـ دار الحديث العروية :

تقع في الجانب الشرقي من صحن الجامع الأموي[٦]، وتنسب لمحمد بن عروة الموصلي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م)[٧] الذي كان مقيما بالقدس ، ثم قدم دمشق لما خرب المعظم عيسى القدس[٨]، فقام بفتح إحدى غرف الجامع التي كانت مخزنا لآلات تتعلق بالجامع ، ونظفه وبيضه وجعل له محراب وأوقف عليه خزانة للكتب وجعله دار حديث [٩]، وكان أول من افتتح الدرس به شيخ الشافعية عبد الرحمن بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (٦٢٠هـ/١٢٢٣م)[١٠]، وتولى التدريس بعده محمد بن يوسف بن محمد بن بداس البرزالي (٦٣٦هـ/١٢٣٨م)[١١]، كذلك ولي

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٥٩ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص٨٥٣

[٢] الأعلاق الخطيرة ص٨٥

[٣] ابن كثير : البداية والنهاية ج٨ ص ٢١٠ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٦٣

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٥

[٥] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٢٣٠

[٦] النعيمي : الدارس ج١ ص ٨٢ ، العلبي : خطط دمشق ص(٨٢،٨٣)

[٧] ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٣٦

[٨] الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث (٦١١/٦٢٠) ص٤٦٠

[٩] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (١٠٩،١١٠) ، الذهبي : تاريخ الإسلام،حوادث(٦١١/٦٢٠)ص٤٦٠

[١٠] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٠٩ ، النعيمي : الدارس ج١ ص(٨٣،٨٤)

[١١] الصفدي : الوافي بالوفيات ج٢ ص٢٥٢

مشيخة هذه الدار عبد الرحمن بن يوسف البعلبكي الحنبلي الدمشقي(٦٨٨هـ/١٢٨٩م)[١].

٥ـ **المدرسة القوصية** : (**دار الحديث القوصية**) زاوية بالجامع الأموي[٢]، وأول من درس بها شهاب الدين إسماعيل بن بن حامد بن عبد الرحمن بن المرجان المرحل القوصي (٦٥٣هـ/١٢٥٥م) كان فقيهاً إخبارياً أديباً حافظاً للأشعار[٣].

٦ـ **المدرسة العزية** :

أوقفها عز الدين أيبك المعظمي على الأحناف ، وبنى مدرسة أخرى بالقدس، وشرط في وقفها أنه متى كان القدس بلد المسلمين يكون الوقف على مدرسة القدس ، وإن خرج القدس من يد المسلمين يكون الوقف على مدرسته التي بالجامع[٤] وتولى التدريس بها عدد من العلماء .

٧ـ **الزاوية المالكية** :

هي زاوية بالجامع أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي ملاصقة للمقصورة الحنفية غربي الجامع [٥]، من أشهر مدرسيها إمام المالكية بدمشق برهان الدين بن علوش بن عبد الله المغربي(٦١٦هـ/١٢١٩م) كان بارعاً في علم الأصول والعربية[٦]، والعلامة أبو عمر عثمان بن عمر بن أبي بكر بن الحاجب (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) كان من علماء القراءات والنحو والأصول[٧].

وحين خرج الشيخ أبو عمر بن الحاجب من دمشق (٦٣٨هـ/١٢٤٠م) جلس مكانه في الزاوية المالكية الضياء عبد الرحمن بن عبد الله العمادي المالكي (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)[٨].

---

[١] ابن كثير: البداية والنهاية ج٧ ص٣٣٤ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٨ ص(٣١١،٣١٢)

[٢] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٤٧ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٤٣٨

[٣] الذهبي : العبر ج٣ ص٢٧٠

[٤] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢١٧

[٥] النعيمي : الدارس ج٢ ص٣

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين ج١ ص١٩٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث(٦١٠/٦٢٠)ص٢٨١

[٧] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٦٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص(٢٤٨،٢٤٩،٢٥٠) ، السيوطي: بغية الوعاة ج٢ ص (١٣٤،١٣٥)

[٨] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٧٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٨٤ .

٨ـ حلقة المحراب (**محراب الحنابلة**) :

من اشهر العلماء الذين تولوا التدريس بها الشيخ المحدث سلامة بن إبراهيم بن سلامة الدمشقي (٥٩٤هـ/١١٩٧م) كان ثقة صالحاً فاضلاً [١] ، والحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) كان درسه في الحديث بعد صلاة الجمعة ، وكان لدرسه قبول عند الناس ، ثم تغير ميعاد درسه إلى بعد صلاة العصر من يوم الجمعة [٢] ، وجاء بعده ابنه محمد بن عبد الغني بن عبد الواحد بن علي المقدسي [٣] ، وكان لعبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الدمشقي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) حلقة يناظر فيها ويعلم ، موعدها بعد صلاة الجمعة [٤] ، وقد أمّ بهذا المحراب وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والمحدثين وأهل الخير [٥] .

٩ـ المدرسة السفينية :

هي حلقة بالجامع[٦] وهي من حلقات الأحناف كما ذكر ذلك ابن شداد[٧]، أما الأربلي فيعدها من مدارس المالكية ، ويقول أنه ليس للأحناف بالجامع إلاّ الزاوية الحلبية فقط ، والغزالية والقوصية والكلاسة للشافعية ، وللحنابلة حلقة الأوزاعي والمحراب ، أما السفينية فللمالكية[٨]، وأما النعيمي فيقول : إنها للحنابلة[٩]، وقد تعاقب على التدريس بها عدد من العلماء[١٠].

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث (٦٠٠،٥٩١) ص١٦١

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ص(٤٧،٤٦) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص(٤٣،٤٢)

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ص٩٩

(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث (٦٢٠،٦١٠) ص(٤٤٨،٤٣٤) .

(٥) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ (١٤٠،١٣٩،١٣٧،١٣٦،١٣٣)

(٦) العلبي : خطط دمشق ص١٩٩

(٧) الأعلاق الخطيرة : ص٢١٧

(٨) مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها ، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٦٦هـ ، تحقيق : محمد أحمد دهمان ، ص(١٤،١٣)

(٩) الدارس ج٢ ص١٢١

(١٠) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢١٧

١٠ـ **المدرسة الخضرية** (**الزاوية الخضراء**) :[١] وهي زاوية بالجامع [٢] يقال لها : مقصورة الخضر عليه السلام، تقع في غربي الجامع[٣]، أوقف الشيخ عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي بن عبد الواحد الأنصاري (٦١٤هـ/١٢١٧م) حلقة بها[٤] وله بها درس، وكان يقرأ على طلابه الكتب المسموعة فكان لدرسه إقبال كبير[٥]، ودرس بها كذلك عماد الدين عبد العزيز بن محمد بن الصائغ (٦٧٤هـ/٦٧٤م)[٦] ، وكان يقام بهذه المقصورة درس السبع ، وللقارئين فيه وقف معلوم[٧] .

١١ـ **حلقة قبة النسر** [٨] **بالجامع** : كان يجلس في هذا المكان الحافظ العلامة المحدث علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (٥٧١هـ/١٢٧٢م)[٩]، وبعد وفاته جلس عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر(٦٢٠هـ/١٢٢٣م) وكان موعد درسه بعد العصر من يوم الإثنين والخميس من كل أسبوع مخصصا لإسماع الحديث[١٠]، وكان يقرأ عليه كتاب (دلائل النبوة) للبيهقي[١١].

١٢ـ **حلقة قبال مقصورة الخطابة** : كان يجلس بها الشيخ الفقيه كمال الدين مودود الشاغوري الشافعي (٦٣١هـ/١٢٣٣م) كان درسه في الفقه احتسابا ، واعتمد كتاب (التنبيه) في الفقه منهجاً للدرس وله همة وصبر في تعليم وتفهيم الطلبة [١٢].

---

[١] ابن الحوراني : زيارات الشام ص٢٢

[٢] العلبي : خطط دمشق ص١٢١

[٣] النعيمي : الدارس ج١ ص٢٧٦

[٤] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص ٨٦٨ ، الأدفوي : الطالع السعيد ص٨١

[٥] سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ج٨ ص(٥٨٩،٥٩١،٥٩١)،الذهبي: تاريخ الإسلام،حوادث(٦١١،٦٢٠) ص(١٩٣،١٩٧)

[٦] النعيمي : الدارس ج١ ص٢٧٦

[٧] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٣٠٩

[٨] تشكل القبة المتصلة بالمحراب والبناء حولها منظرا رائعا يشبهه الناس بنسر طائر ، لهذا سميت قبة النسر،على الطنطاوي الجامع الأموي في دمشق ، دار المنار ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ص٥٢

[٩] أبو شامة : ذيل الروضتين ص(١٣٦،١٣٧،١٣٨)

[١٠] أبو شامة : ذيل الروضتين ص (١٣٦،١٣٧،١٣٨)

[١١] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٠٩

[١٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٧٧

١٣- حلقة ابن المنجا المفسر :

هو المنجا بن عثمان بن أسعد بن المنجا بن بركـــات التنوخـــي الدمشـــقي (٦٩٥هـ/١٢٩٥م) الفقيه المفسر ، كانت له حلقة للاشتغال والفتوى استمرت نحواً من ثلاثين سنة ، يدرس فيها احتساباً لا يأخذ شيئاً [١] .

١٤- حلقة ابن الزكي :

هو محمد بن علي بن محمد بن يحيـــى بـــن عبـــد العزيـــز بـــن الزكـــي (٥٩٨هـ/١٢٠١م) كان له درس في التفسير بالكلاسة تجاه تربة السلطان صـــلاح الدين الأيوبي [٢].

١٥- حلقة ابن مالك النحوي :

تصدر بالجامع وانتفع الناس به وبدروسه في القراءات وعلوم العربية [٣]

١٦- حلقة ابن طاووس :

تقع شرقي البرادة وقبالة حلقة ابن الشهرزوري [٤] ، ومن أشهر من جلـــس لتعليم القراءات واللغة العربية ، إمام الحنفية في زمنه [٥] ، إبراهيم بن يوسف بـــن محمد المغربي المعروف بالوجيه البوني (٦١٢هـ/١٢١٥م) [٦] ، والشيخ المجـــد الأربلي النحوي المعروف بالمحلي (٦٥٧هـ/١٢٥٨م) [٧] .

١٧- حلقة برهان الدين المراغي :

محمـــود بـــن عبـــد الله بـــن عبـــد الرحمـــن ، أبـــو الثنـــاء المراغـــي (٦٨١هـ/١٢٨٢م) وكانت له حلقة التي يشتغل بها معمورة بالعلم [٨] .

---

(١) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص(٣٣٢،٣٣٣) ، الداوودي : طبقات المفسرين ج٢ص(٣٣٤،٣٣٥)

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٣٦

(٣) ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٨،٩) ، الأسنوي : طبقات الشافعيين ص٣٩٨ ، السيوطي : بغية الوعاة ج١ ص(١٣٠،١٣٥)

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين ص٩١

(٥) الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث (٦١١،٦٢٠) ص(٩٤،٩٥)

(٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ص٩١

(٧) نفسه ص٢٠٢

(٨) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص٣٦٩

١٨- حلقة ابن الجزري :

الشــهاب أبــو العبــاس أحمــد بــن محمــد بــن عيســى الأنصــاري (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) المحدث الرحالة كانت له حلقة للحديث تقع في الحائط الشمالي من الجامع [١] .

١٩- حلقة زين الدين الزواوي :

عبد السلام بن علي بــن عمــر بــن سـيد النــاس الــزواوي المــالكي (٦٨١هـ/١٢٨٢م) ، كان له حلقة تدريس وإقــراء بتربــة أم الصــالح وأخــرى الجامع[٢].

٢٠- حلقة القاضي شمس الدين الحراني :

محمد بن عبد الوهاب بن منصور الحراني الفقيه ، كان له درس في الفقــه في الجامع وغيره [٣] .

---

[١] الذهبي : العبر ج٣ ص٣٣٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص٣٥٦

[٢] الذهبي : معرفة القراء الكبار ص٣٦٤

[٣] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص(٢٨٨،٢٨٧)

ثانيا : جامع الحنابلة [١] (**بالصالحية**) :

شرع في بنائه سنة (٥٩٨هـ/١٢٠١م)[٢]، وأشرف عليه شيخ المقادسة آنذاك أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي وتولى الإنفاق على بنائه الشيخ داوود ابن محاسن الفامي[٣]، وعندما بلغ البناء مقدار قامة نفد ما عنده من مال[٤] ولما علم الملك المظفر زين الدين كوكبري ، صاحب (أربل) أن الحنابلة بدمشق شرعوا في بناء مسجد وأنهم عاجزون عن إتمامه ، أرسل إليهم مع حاجبه شجاع الدين الأربلي ثلاثة آلاف دينار أتابكية لإكمال العمارة به[٥]، وأن يساق إليه الماء من نهر بردى ، فلم يمكنهم الملك المعظم عيسى من ذلك ، واعتذر إليهم بأن طريق الماء كله قبور للمسلمين[٦]، وقال لهم :(اشتروا بغلا واحفروا بئرا واجعلوا عليها مدارا ولا تؤذوا أحدا ، فالتزموا ذلك[٧] ، وجعل للجامع منبرا على ثلاث درجات كدرج منبر النبي صلى الله عليه وسلم))[٨].

وهذا الجامع يأتي في الدرجة الثانية بعد الجامع الأموي من الناحية العلمية فقد كثر طلاب العلم المترددين إليه وأول من تولى خطابته الشيخ محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي (٦٠٧هـ/١٢١٠م)[٩] ، وتصدر للإقراء والتدريس به عدد من

---

(١) للجامع أربعة نسب ، الأولى : الجامع المظفري ، نسبة لبانيه السلطان المظفر ، والثانية : جامع الجبل ، لأنه يقع مصاعد جبل قاسيون ، والثالثة : جامع الحنابلة : لأنه مختص بهم في الوقف ، والرابعة جامع الصالحين كما كان يقال في الدير دير الصالحين ، ابن كنان : المروج السندسية الفسيحة ص٨١

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٥١٠ ، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٨٦

(٣) ابن شداد : الأعلاق اخطيرة ص٨٦ ، بدران : منادمة الأطلال ص٣٧٣ ، طلس : محمد أسعد ، ذيل ثمار المقاصد ص(٢٠٩،٢١٠) .

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٥١٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية : ج٧ ص١٤٧ ، ابن عبد الهادي : يوسف بن عبد الهادي ، ثمار المقاصد في ذكر المساجد ، مكتبة لبنان ، تحقيق : محمد أسعد طلس ، ص(١٥٢،١٥٣)

(٥) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٨٦

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٣٦

(٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٥١٠

(٨) بدران : منادمة الأطلال ص٣٧٣

(٩) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٨٦ ، الذهبي : العبر ج٣ ص١٤٧

العلماء معظمهم من الحنابلة ، منهم الشيخ محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي (٦١٨هـ/١٢٢١م) أحد شيوخ الحنابلة الصالحين[١]، يقول أبو شامة : «كنت أراه يوم الجمعة قبل الزوال يجلس على درج المنبر السفلي وبيده كتاب من كتب الحديث وأخبار الصالحين يقرأه على الناس إلى أن يؤذن المؤذن للجمعة»[٢]، كما كان للشيخ سبط بن الجوزي مجلس علم يحضره العلماء والأمراء وعامة الناس[٣]، وحدث به وولي خطابته والإمامة به الفقيه عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الدمشقي (٦١٥هـ/١٢١٨م)[٤] .

ثالثاً : مسجد شجاع :

يقع على الباب الصغير ملاصق لسور دمشق[٥] ، كان به درس للفقه في الأيام النورية والصلاحية والعادلية [٦] .

رابعاً : مسجد ابن الشهرزوري :

ذكره ابن عساكر ضمن مساجد دمشق[٧]، كان يعقد فيه مجالس للوعظ[٨]

خامساً : جامع التوبة (بالعقبة) :

كان موقع هذا الجامع مكانا يسمى خان الزنجاري ، فيه الخمور والقيان وغيرها من المنكرات[٩]، فذكر ذلك للسلطان الأشرف موسى بن الملك العادل ، أبي بكر بن أيوب ، وأن هذا لا يليق أن يكون في بلاد المسلمين ، فهدمه وعمره جامعا وذلك في سنة (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) فسماه الناس (جامع التوبة)[١٠] أنفق

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٣٠

(٢) نفسه ص١٣٠ ، ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص(١٢٤،١٢٥) .

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٥٢٩،٥٣٠)

(٤) المنذري : التكملة ج٢ ص٤٣٠

(٥) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص٢٢٠ تهذيب بدران

(٦) ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد ص١٠٣

(٧) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص٢٢٠ تهذيب بدران

(٨) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص٢٢٠ ، تهذيب بدران ، النعيمي : الدارس ج٢ ص٣١٧

(٩) أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٦٣ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ ص١٤٣ ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث (٦٣٠،٦٤٠) ص١٠

(١٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص٣٣٤

على بنائه أموالا عظيمة وجعل له أوقافا [١] حسنة ، ومن طريف ما يذكر عنه أنه قد تولي خطابته وإمامته رجل يعرف بالجمال السبتي ، كان يلعب في صباه بشيء من الملاهي ، ثم حسنت سيرته وجعل إماما وخطيبا له حتى توفى ، وجاء بعده العماد الواسطي الواعظ وكان متهما بشرب الخمر ، فكتب الشاعر الجمال ، عبد الرحيم المعروف بابن زويتنه الرحبي إلى الملك الأشرف أبياتا هي :

يا مليكا أوضح الحق لدينا وأبانه ... جامع التوبة قد قلدني منه أمانه
قال قل للملك الأشرف أعلى الله شأنه ... ياعماد الدين يا من حمد الناس زمانه
كم إلى كم أنا في ضر وبؤس وإهانة ... لي خطيب واسطي يعشق الخمر ديانه
والذي قد كان من قبل يغني بخعاخه ... فكما نحن فما زلنا وما نبرح حانه

فأعدني النمط الأول واستبق ضمانه[٢]

وقد ولي خطابته ونظر وقفه الشيخ بدر الدين يحيى بن عز الدين بن عبد السلام ، فقام بتجديد قبلته ومحرابه ، وذهبه وبيض أساطينه البرانية وأروقته الشمالية[٣]، وعقد به الشيخ شمس الدين محمد النابلسي (٦٥٦هـ/١٢٦٧م) درسا للقرآن الكريم[٤]، وكان لسبط بن الجوزي حلقة وعظ به[٥]، وأقرأ به الحديث الشيخ المحدث عبد العزيز بن محمد بن عبد الحق (٦٩٩هـ/١٢٩٩م)[٦]

---

[١] الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، المختار من تاريخ ابن الجزري ، المسمى حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي ١٤٠٨هـ ، تحقيق : خضير عباس المنشداوي ، ص١٥٦

[٢] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص٣٣٤ ، النعيمي : الدارس ج٢ ص(٤٢٦،٤٢٧) ، بدارن : منادمة الأطلال ص٣٧٠ .

[٣] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٨٨

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٩

[٥] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٧١٤

[٦] الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، المعجم المختص (بالمحدثين) ، الطبعة الأولى ، مكتبة الصديق ١٤٠٨هـ ، تحقيق : محمد الحبيب الهيله ص١٤٨

سادساً : جامع الفسقار :[١]

ويقال له مسجد هشام[٢]، كان الشيخ المحدث ، أحمد بن عبد الخالق المعروف بابن هشام (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) يؤم به ويقرأ الحديث[٣].

سابعاً : جامع البطيخ (مسجد السلاليين) :

هو مسجد كبير معلق[٤] ، ذكر الذهبي أن الحافظ محمد بن عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي (٦١٣هـ/١٢١٦م) بعد أن عاد من رحلته في طلب الحديث إلى أصفهان وبغداد جلس في مسجد دار البطيخ بدمشق يقرئ الحديث للناس في كل ليلة جمعة من كل أسبوع ، وانتفع الناس بمجالسه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الجامع الأموي[٥].

ثامناً : جامع جراح :

كان يسمى مسجد الجنائز ، يقع عند الباب الصغير لسور دمشق ، وهو قديم خرب جدده جراح المنبجي[٦] ، ثم عمره مسجداً جامعاً[٧] ، الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) وأوقف عليه أوقافاً كثيرةً وجعل لخطيب الجامع مرتباً شهرياً يتقاضاه مقداره خمسين درهما[٨]، وجعل في المسجد عشرة قراء وجعل لهم رواتب ، لكل واحد منهم عشرة دراهم[٩] ، كما جدد بناءه الأمير مجاهد الدين محمد بن قليج النوري سنة (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) بسبب حريق وقع فيه سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م)[١٠] .

---

[١] الفسقار : مكان صنع الفسقة وبيعها ، والفسقة شراب فيه ماء وخل كان يشربه الجنود الرومانيون ، سوفاجية : مقالة دمشق الشام ، ترجمة فؤاد البستاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٦م ص٢٠

[٢] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة : ص٩٣ ، ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد ص٦١

[٣] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٧٥٥

[٤] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص١٠٢ ، النعيمي : الدارس ج٢ ص٣١٤

[٥] الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث (٦١١/٦٢٠)ص(١٥٨،١٥٩،١٦٠،١٦١،١٦٢) ، ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص(٩٠،٩١)

[٦] ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد ص١٠٥

[٧] النعيمي : الدارس ج٢ ص ٤٢٠

[٨] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٨٨ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٨٤

[٩] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٨٨

[١٠] نفسه ص٨٨

تاسعا : **مسجد خاتون** [١] **بالصالحية** : كان للقاضي أبي عبد الله محمد بن يوسف بن الخضر بن عبد الله الحلبي الحنفي (٦١٤هـ/١٢١٧م) درس به ودرس دروسا أخرى بالمدارس [٢] .

عاشرا : **مسجد الجوزة** (**بالعقبية**) : كان الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد المرادي السبتي (٦٢٧هـ/١٢٣٩م) يلقي دروسه في الحديث في هذا المسجد[٣].

الحادي عشر : **مسجد فلوس** : يقع في ميدان الحصى[٤]، ظاهر دمشق[٥]، وكان للشيخ عبد الخالق بن صدقة بن يونس بن موقي بن تميم القرشي الإسكندراني المقرئ (٦١٥هـ/١٢١٨م) درس للقرآن الكريم به[٦] .

---

[١] هي زمرد خاتون بنت جاولي ، أخت الملك دقاق لأمه ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٠٧

[٢] المنذري : التكملة ج٢ ص(٤٠٨،٤٠٩) ، ابن كنان : المروج السندسية ص٥٣

[٣] المنذري : التكملة ج٣ ص٢٧٦ ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث(٦٢١/٦٣٠) ص(٢٦٧،٢٦٨)

[٤] الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث (٦١١/٦٢٠) ص ٢٢٨

[٥] المنذري : التكملة ج٢ ص٤٣٣

[٦] المنذري : التكملة ج٢ ص٤٣٣

المبحث الثاني : الكتاتيب :

يعرفها ابن منظور بقوله: «والمكتب والكتاب ، موضع تعليم الكتاب ، والجمع الكتاتيب والمكاتب »[١]، ويقول المبرد : « المكتب موضع التعليم ، والمكتب المعلم ، والكتاب الصبيان ، قال : ومن جعل الموضع الكتاب، فقدأخطأ»[٢]،وقد عرف المسلمون هذا النوع من التعليم في وقت مبكر ، حيث وجدت دور تعليم الصبيان منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد ترجم الإمام البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن بقوله : « باب تعليم الصبيان القرآن »[٣]، وذكر في موضع آخر أن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ بعثت إلى معلم الكتاب :«أبعث لي غلمانا ينفشون صوفا »[٤]، وهذا دليل على اتخاذهم مكانا لتعليم القراءة والكتابة[٥] .

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم فدية بعض أساري بدر ، ولم يكن معهم مال ، أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة[٦].

ولما انتشر الصحابة في الأمصار أقاموا أماكن لتعليم الصبيان وتأديبهم ، يقول ابن خلدون : « اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين ، أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم »[٧] ، ويعود الفضل في نشر ذلك في بلاد الشام وغيرها إلى لخلفية الراشد عمر بن الخطاب[٨] ـ رضي الله عنه ـ حيث كتب إليه أمير الشام في زمنه يزيد بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ يذكر

---

[١] لسان العرب ج١ ص٦٩٩ ، مادة (كتب)

[٢] نفسه ج١ ص٦٩٩ ، مادة (كتب)

[٣] صحيح البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب فضل تعليم الصبيان القرآن ج٤ ص١١٠

[٤] صحيح البخاري : ج٨ ص٥٩

[٥] محمد السيد الوكيل : الحركة العلمية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه ص٤٧

[٦] ابن قيم الجوزيه : محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي ، زاد المعاد في هدى خير العباد ، الطبعة السابعة والعشرون ، مؤسسة الرسالة ١٤١٤هـ ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ج٣ ص١١٢

[٧] المقدمة : ص٥٣٦

[٨] الكتاني : عبد الحي بن عبد الكبير ، التراتيب الإدارية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ج٢ ص

حاجة أهل الشام إلى من يقرئهم القرآن ، فأرسل لهم ثلاثة من الصحابة من أهل المدينة ممن حفظ القرآن ، فقاموا بتعليم الناس [١] .

كما زاد انتشار تعليم الصبيان في بلاد الشام في العصر الأموي ، منه ما يخص أولاد الخلفاء والأمراء ، ومنه ما يخص أبناء العامة من الناس [٢] .

أما دمشق في هذا العصر فقد دأب أهلها على تعليم أولادهم فكانوا يدفعون بهم إلى المكتب منذ سن الخامسة أو السادسة ، فقد أشار الشيزري إلى ذلك بقوله : « ومن كان عمره فوق سبع سنين أمره المؤدب بالصلاة »[٣]، يشير إلى دخول الصبي المكتب قبل ذلك .

وسن السابعة هو السن الملائم للتعلم[٤]، يقول ابن الحاج: « وينبغي له أن يتمثل السنة في الإقراء ، ومن جملة ذلك أن السلف الماضيين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ إنما كانوا يقرئون أولادهم في سبع سنين ، لأنه زمن يؤمر الولي أن يكلف الصبي بالصلاة والآداب الشرعية فيه ، فإذا كان الصبي في ذلك السن فهو غير محتاج إلى من يأتي به إلى المكتب إن أمن عليه ... »[٥]، ولذا كان أهل دمشق يتخذون من المغاربة الغرباء من يأخذ ابنائهم إلى المكتب ويردهم إلى بيوتهم لأمانتهم[٦] .

وخصصت بدمشق كتاتيب لتعليم القرآن الكريم ، وأخرى لتعليم القراءة والكتابة يقول في ذلك ابن جبير :« وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين ، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها تنزيها لكتاب الله ـ عز وجل ـ عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو ، وقد يكون في أكثر البلاد الملقن

---

[١] سعيد الديوه جي : التربية والتعليم في الإسلام ، منشورات مكتبة بسام ، العراق ص١٦ ، محمد السيد الوكيل : الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه ص(٤٦،٤٧) .

[٢] خليل الزرو : الحياة العلمية في الشام ص(٢٠،٢١)

[٣] نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت ١٤٠١هـ ، تحقيق : السيد الباز العريني ، ص١٠٣

[٤] عبد العال : حسن إبراهيم ، فن التعليم عند ابن جماعة ، طبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج ص٧٢

[٥] المدخل : ج١ص(٤٥٨،٤٥٩)

[٦] ابن جبير : الرحلة ص٢٥٠

على حدة ، والمكتب على حدة ، فينفصل من التلقين إلى التكتيب»[١]، ولهذا جاد خطة لأن معلم الخط لا يعلم غيره[٢] .

أما مكان المكتب ، فالغالب يكون في المساجد أو أماكن ملاصقة لها ، أومكاتب مستقلة أو ملحقة بالمدارس ، ورغم كراهية العلماء تعليم الصبيان في المساجد[٣] ، إلا أن الجامع الأموي كان يغص بحلقات تعليم الصبيان للقرآن الكريم[٤]، ولعل هذا النهي كان على تعليم الخط والكتابة[٥] ، ومما يدل على ذلك سبع المتلقنين من الصغار في الجامع ، إذ يبلغ عددهم ثلاثمائة وثمانية وسبعون صبيا[٦] يجمعون المتلقنين بعد صلاة الفجر من كل يوم[٧] ، ولهم حلقة أخرى بعد صلاة العصر تسمى(الكوثرية)[٨] ويأخذون على ذلك الجرايات من ديوان الجامع[٩] .

وكان التعليم به يتخذ أسلوب التلقين ، بحيث يجلس المعلم إلى إحدى سواري المسجد ، ويجلس الصبي أمامه فيلقنه القرآن[١٠] .

وكان معظم المعلمين الذين أشارت إليهم المصادر هم من القراء الكبار والمحدثين والفقهاء والأدباء ، فكان لا يقتصر تعليمهم للصبيان على القرآن بل يعطونهم شيئا من الأحاديث ومبادئ الدين والشعر والأدب .

---

(١) الرحلة ص٢٤٥

(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ص١١٠

(٣) الشيزري : نهاية الرتبة ص١٠٣

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص(٨٥،٨٢) ، العلموي : عبد الباسط ، مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدار إلى أحول دور القرآن والحديث والمدارس ، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٦٦هـ ، تحقيق : صلاح الدين المنجد ص(٢٢٢،٢٢٣،٢٢٤)

(٥) الشيزري : نهاية الرتبة ص١٠٣

(٦) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص(٨٣،٣٢) ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص(٢٢٢،٢٢٣،٢٢٤)

(٧) ابن جبير : الرحلة ص(٢٤٥،٢٤٤)

(٨) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص(٨٥،٨٢)

(٩) ابن جبير : الرحة ص(٢٤٥،٢٤٤)

(١٠) نفسه ص (٢٤٥،٢٤٤)

وممن تولى الإقراء للصبيان بالجامع الأموي أبو العباس ، أحمد بن الحسين بن أحمد بن محمد العراقي الحنبلي (٥٨٨هـ/١١٩٢م) كان إماما في القراءات ، وقرأ على كبار القراء في عصره ، وكان يلقن الطلاب تحت قبة النسر بالجامع[١]، ومنهم الشيخ يحيى المنبجي (٦٧٦هـ/١٢٨٠م) تصدر للإقراء بالجامع زمانا ولقن خلقا كثيرا[٢]، ومن أشهر من تولى التلقين بالجامع وتصدر للإقراء الشيخ ركن الدين إلياس بن علوان بن ممدود الأربلي (٦٧٣هـ/١٢٧٤م) كان من كبار القراء بالجامع[٣]، يقول الذهبي :« كان عجيبا في تعليم الصبي النطق بالحروف الصعبة كالزاي ، بحيث إن بعض الناس يعتقد فيه أن تلك كرامة له ، فقل أن تجد أحدا كان يحضر إليه ولا ينصلح لسانه»[٤] ، وذكر أنه ختم عليه فوق أربعة آلاف نفس سوى من تلقن النصف أو الربع أو القليل[٥] ، وختم عليه من أهل الزيلع فوق ثلاثين قارئا ، وكان يحسن إليهم ويؤيهم ويكسوهم ولا يطلب من أحد شيئا[٦] ، وكانت دمشق تضم عددا من المكاتب التي يتعلم فيها الصبيان القراءة والكتابة إضافة إلى القرآن الكريم ، ومن تلك المكاتب :

١- مكتب على باب الجامع الأموي :

يقع في الجهة الشمالية قبالة الخانقاه السميساطية،[٧] كان يعلم به الشيخ عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم بن محمد المقدسي(٦٠٥هـ/١٢٠٨م) يعرف بـ(عبدان) المعلم[٨]، وممن اشتهروا بالتكتيب في هذا المكان الأديب الوزير نجم

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ج(٥٨١،٥٩٠) ص(٢٩٢،٢٩٣)

(٢) الذهبي : العبر ج٣ ص٣٣٣

(٣) الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٧هـ ، تحقيق : محمد حسن الشافعي ، ص٣٦٩

(٤) الذهبي : المختار ص(٢٧٧،٢٧٨)

(٥) الذهبي : المختار ص(٢٧٧،٢٧٨)

(٦) نفسه ص (٢٧٧،٢٧٨)

(٧) الذهبي : المختار ص(٢٧٧،٢٧٨)

(٨) أبو شامة : ذيل الروضتين ص٦٥

الدين ، يوسف بن الحسين بن محمد بن الحسين الدمشقي (٦٦٠هـ/١٢٦١م) المعروف بابن المجاور ، كانت له طريقة محمودة في تعليم الصبيان ، جعلته ينتقل ليؤدب أبناء السلطان صلاح الدين الأيوبي [١] .

٢- **مكتب المدرسة الجركسية** : أوقفها الأمير فخر الدين جهاركس الصلاحي[٢] (٦٨٠هـ/١٢٨١م) كان بها قبة لها باب يطل على حرم المدرسة ، وبه مكتب لتعليم الصبيان[٣].

٣- **مكتب جاروخ** : يقع داخل المدرسة الجاروخية [٤] التي تنسب إلى بانيها جاروخ التركماني[٥] جلس للتعليم به المؤدب البدر علي بن عبد الصمد بن عبد الجليل المرازقي[٦](٦٣٩هـ/١٢٤١م) كان يروي الحديث وله شعر وأدب[٧] .

٤- **مكتب أمين الدين الأشتري** : هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الجبار بن طلحة الحلبي الأشتري(٦٨١هـ/١٢٨٢م) كان من أهل الحديث ، أثنى عليه الإمام محي الدين النووي ، وكان يرسل الصبيان إليه ليقرأوا عليه في بيته ، لما عرف عنه من الدين والأمانة[٨] .

٥- **مكتب علي الحلبي** : هو علي بن محمد الحلبي (٦٩٠هـ/١٢٩١م) كان صاحب خط جميل ذو خبرة بتعليم الصبيان[٩]، وتأدب علي يده الإمام الذهبي ومكث في مكتبه أربع سنوات[١٠]وكان ينشد الصبيان قول الحريري ــ وهو من شعر الزهد :

---

[١] ابو شامة : ص٦٥

[٢] ابن سعيد : علي بن موسى الأندلسي ، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، ص١٩

[٣] النعيمي : الدارس ج١ ص٤٩٦

[٤] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص٢١٢

[٥] النعيمي : الدارس ج١ ص٢٢٥

[٦] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٢٩

[٧] الذهبي : العبر ج٣ ص٣٣٦

[٨] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص(٣١٧،٣١٨) ، النعيمي : الدارس ج٢ ص١٤١

[٩] الذهبي : محمد بن أحمد بن عثمان ، معجم الشيوخ ، الطبعة الأولى ، مكتبة الصديق ١٤٠٨هـ ، تحقيق : محمد الحبيب الهيلة ج٢ ص٥٢

[١٠] نفسه ج٢ ص٥٣

أيا من يدعي الفهم إلى كم يا أخي الوهم
تعبي الذنب والذنب وتخطي الخطأ الجم
أما بان لك العيب أما أنذرك الشيب
أما في نصحه ريب ولا سمعك قد صم [١]

٦ـ **مكتب ابن عبد** : (٢) يقع داخل باب توما[٣] ، كان إسماعيل بن إبراهيم بن سالم بن ركاب الأنصاري الدمشقي الحنبلي (٧٠٣هـ /١٣٠٣م) المشهور بابن الخباز يؤدب الصبيان به[٤] ، قال الذهبي: «عمل محضرا انه أهل لتأديب الأطفال ، أخذ فيه خطوط أزيد من ألف نفس ، وأثبت على عدة حكام » [٥] مما يدل على تحري المؤدب وحسن اختياره لديهم ، وذكرت المصادر أن الشيخ أبو محمد شيبان بن تغلب بن حيدرة بن سيف بن طراد الشيباني المقدسي المؤدب (٦١٧هـ/١٢٢٠م) كان يعرف بالحنبلي المعلم ، كان يؤدب في جبل قاسيون[٦] والمحدث أبا الحسن بن علي بن المظفر الربعي الدمشقي (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) كان من طلاب الحديث ، وذا صوت حسن بالقراءة ، كان يؤدب الصبيان بدمشق[٧]، إلا أن المصادر لم تحدد أين كان يجلس هؤلاء للتعليم .

كما أنه لم تكن تخلو بعض دور الحديث من وجود مكتب يؤدب فيه الأيتام من الصبيان[٨]، حيث كان يتولى ذلك مسمع الدار ، إضافة إلى مهمته في دروس الحديث[٩].

---

(١) الذهبي : معجم الشيوخ ج٢ ص (٥٣،٥٢)

(٢) هو أبو البركات ، الخضر بن شبل بن عبد الحارث الدمشقي ، فقيه شافعي خطيب درس بالمدرسة الغزالية والمجاهدية ، وبنى له نور الدين محمود مدرسته التي عند باب الفرج ن تعرف بالعمادية ، توفى سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦ م) ، العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٤ ص٢٠٥

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٩ ص٦٥ ، ابن تغري بردي : الدليل الشافي ج١ ص١٢١

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٩ ص٦٥

(٥) العسقلاني : الدرة الكامنة ج١ ص٣٨٦

(٦) المنذري:التكملةج٣ص١٠٢،الذهبي:تاريخ الإسلام (٦١١/٦٢٠) ص(٤٣٣،٤٣٢)

(٧) الذهبي : العبر ج٣ ص٣٨٢ ، العماد الحنبلي : شذرات الذهب ص٢٨٠

(٨) الذهبي : المعجم المختص ص٣٦

(٩) الذهبي : معجم الشيوخ ج١ ص١٠٢

أما عن منهج المكتب فقد وضع الشيزري طريقة التعليم به ، فرتب المنهج الدراسي به بقوله : « وأول ما ينبغي للمؤدب أن يعلم الصبي السور القصار من القرآن ، بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل ، ويدرجه بذلك حتى يألفه طبعه ، ثم يعرفه عقائد أهل السنة والجماعة ، ثم أصول الحساب وما يستحسن من المراسلات والأشعار [١] ، ورتب له اليوم الدراسي ما يأخذه بالمكتب وما يعود به إلى منزله وفي الرواح يأمرهم المؤدب بتجويد الخط على المثال ، ويكلفهم عرض ما أملاه عليهم حفظا غائبا لا نظرا » [٢]

وبما أن الشيزري رجل حسبه فإنه أبان للمؤدب أن يأمر الصبي بالصلاة وتعويده على حسن الأخلاق والآداب الحسنة ، وتحديد أدوات وأماكن الضرب إن هو أساء الأدب بقوله : « ... ويأمرهم المؤدب ببر الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة .. ويضربهم على إساءة الأدب والفحش من الكلام وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع .. ولا يضرب صبيا بعصا غليظة تكسر العظم ولا رقيقة تؤلم الجسم ، بل تكون وسطا ، ويتخذ مجلدا عريض السير ، ويعتمد في ضربه على اللوايا والأفخاذ وأسافل الرجلين ؛ لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة » [٣] .

---

[١] نهاية الرتبة ص١٠٣

[٢] نفسه ص١٠٣

[٣] نهاية الرتبة ص (١٠٣،١٠٤) ، يذكر الذهبي أن شيخه مسعود بن عبد الله الأغزازي المقرئ (٧٢٠هـ/١٣٢٠ م) كان لا يضرب صبيانه ، وقال : كان يقرا على ابو بكر بن الفافا الطحان فشتاله الصبيان مرة ، وضربته فطار من العصا شقفة وقعت في جبينه شقته ، فجرى منه دم كثير على الحصير ، وصفا لونه ، واجتمع علينا الناس ، فعاهدت الله انني لا أضرب أحدا بعدها ، معجم الشيوخ ج٢ ص (٣٣٩،٣٤٠) .

كما أنه نبه على المؤدبين في عصره منع الصبيان من حفظ شيء من شعر ابن الحاج [١] وديوان صريح الدلاء [٢] ؛ لما فيهما من المجون والخلاعة ، وحذر من أشعار الروافض ، وحث على الأشعار الحسنة التي مدحت الصحابة ، لترسخ في عقولهم [٣] .

ولم يقتصر التعليم على الذكور ، بل إن المصادر تذكر أن آمنة بنت محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) كانت تعلم البنات بالدير في الصالحية ، فيقرأن عليها القرآن وغيره [٤] ، لكونها إمرأة عالمة صالحة تحفظ القرآن الكريم [٥] .

من المعلمين من اختص بتعليم أولاد السلاطين ، فقد طلب سلاطين بني أيوب لأبنائهم مؤدبين لتأديبهم وتعليمهم في قصورهم ، ولم يكن يتولى هذه المهمة إلا كبار العلماء والأفاضل من الأدباء [٦] ، فقد تولى محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود البنجديهي (٥٨٤هـ/١١٨٨م) تعليم أولاد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وعلى الخصوص كان مؤدبا للملك الأفضل علي بن صلاح الدين [٧] ، أما نجم الدين ، يوسف بن الحسين (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) المعروف بابن المجاور فإنه كان مؤدبا للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين [٨] يقول المنذري : « كان يكتبه فلما ملك مصر بعد وفاة والده استوزره » [٩] .

---

[١] أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن الحجاج ، من كبار شعراء الشيعة ، اشتهر شعره بالخلاعة والمجون ، توفي سنة (٣٩١هـ/١٠٠٠م) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ص(١٧١،١٦٨)

[٢] لعل ديوان هذين الشاعرين كانا منتشرين بين أيدي الناس في عصره لذا نبه عليهما بالخصوص ،و صريح الدلاء هو محمد بن عبد الواحد صريح الدلاء ، سمي بذلك مقابلة مع صريح الغواني مسلم بن الوليد ، سكن بغداد وكان شاعرا ماجنا شعره فيه هزل ومجون توفي (٤١٢هـ/١٠٢١م) ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ ص(٦١،٦٢،٦٣) ، ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص٢٩٥ .

[٣] الشيزري : نهاية الرتبة ص(١٠٤،١٠٥)

[٤] الذهبي : تاريخ الإسلام (٦٣١/٦٤٠) ص (٤٣،٤٤)

[٥] المنذري : التكملة ج٣ ص٣٧١

[٦] عسيري : الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي ص(٢٢٠،٢٢١)

[٧] القفطي : انباه الرواة ج٣ ص (١٦٦،١٦٧)

[٨] ابن سعيد : الغصون اليانعة ص١٩

[٩] المنذري : التكملة ج٢ ص (٣٠،٣١)

وكان الأديب فتيان بن علي بن فتيان الشاغوري (٦١٥هـ/١٢١٨م) يـؤدب أولاد الأمير بدر الدين ، مودود بن المبارك القائم على شحنة دمشق ، يقول ابن خلكان : « كان يعلم أولاده الخط » [١]

[١] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص ٢٥

المبحث الثالث : دور القرآن الكريم :

لقي تعليم القرآن الكريم وعلوم القراءات بدمشق في هـذا العصـر عنايـة كبرى ، وقصدها العلماء وطلاب العلم للأخذ عن علمائها في هذا العلم رغبة فـي علو إسنادهم[١] ، يقول الإمام النووي : « ورأيت أهل بلدتنا دمشق ـ حماها الله ، وسائر بلاد الإسلام ـ مكثرين من الاعتناء بتلاوة القرآن العزيز تعلمـا وتعليمـا وعرضا ودراسة في جماعات وفرادى مجتهدين في ذلـك بالليـالي والأيـام ... فدعاني ذلك إلى جمع مختصر في آداب حملته وأوصاف حفاظه وطلبته ...»[٢] .

ولم يقتصر تعليم القرآن الكريم على حلقات المساجد ، بل إن دمشق كـان لها السبق في إنشاء أماكن تتخصص في تعليم القرآن وعلوم القراءات[٣]، تسـمى (دور القرآن) ، حيث أنشئت بها أول دار لتعليم القرآن في الدولة الإسلامية ، هي دار القرآن الرشائية ، أنشأها المقرئ رشا بن نظيف ما شاء الله الدمشقي ، سـنة (٤٤٤هـ/١٠٥٢م) [٤] .

وانتشر تعليم القرآن الكريم بدمشق ، فكان الأسلوب السائد في تعليم القـرآن وعلوم القراءات هو أسلوب التلقين والمدارسة [٥]، وقد دأب كثير مـن المقرئيـن على اتخاذ أسلوب التلقين أساسا للتعليم ، مع ما يكتنفه من الصعوبـة فـي الأداء وحاجة الملقن فيه إلى الصبر والمجاهدة [٦] ، وينقل لنا الذهبي صورة مـن ذلـك فيقول : « وكان الإمام علم الدين السخاوي يقرأ الإثنان والثلاثة فـي آن واحـد ، وهو يرد على الجميع »[٧] ، وهذا يدل على كثرة القراء والطلاب وحرصهم الشديد على أخذ القرآن وتلقيه من شيوخه وأعلامه ، ورغم أن هذا الأسلوب في التلقين لم

---

[١] الذهبي : معرفة القراء الكبار ص(٣١٨،٣١٩)

[٢] التبيان في آداب حملة القرآن ص ٨

[٣] النعيمي : دور القرآن في دمشق ص٧ صححه وعلق عليه صلاح الدين المنجد .

[٤] النعيمي : الدارس ج١ ص١١ ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص٧ ، كرد علـي : خطـط دمشـق ج٦ص٧٠

[٥] الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص١٣٧٦

[٦] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٥٨٦،٥٨٧) ، الذهبي : تاريخ الإسـلام ص(٦٣١،٦٤٠) ط٧ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٢ ص١٣٧٦

[٧] معرفة القراء الكبار ص٣٤١

يكن شائعا بين علماء القراءات في هذا العصر إلا أن الذهبي قد بين ما فيه من العيوب من وجوه ثلاثة ، هي :

أولها : زوال بهجة القرآن عند السامعين .

وثانيها : أن كل واحد يشوش على الآخر مع كونه مأمورا بالإنصات .

وثالثها : أن القارئ منهم لا يجوز له أن يقول قرأت القرآن كله على الشيخ وهو يسمع ويعي ما أتلوه عليه ، كما لا يسوغ للشيخ أن يقول لكل من قرأ منهم ، قرأ علي فلان القرآن جميعه ، وأنا أسمع قراءته[١] .

وصنف العلماء في هذا العصر كتبا تعليمية تبين طرق وأساليب تعلم القرآن، وذكروا ما ينبغي على القارئ والمقرئ من الآداب في التعليم والتعلم، منها كتاب (جمال القراء وكمال الإقراء) للإمام علم الدين السخاوي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) فإنه قد عقد فصلا في كتابه هذا سماه : « حامل القرآن ومتعلمه ومعلمه وما يطلب به حملة القرآن ، وكيف كان قراء السلف والصدر الأول يقرءون القرآن » ، سرد فيه بعض الأحاديث الواردة في ذلك ، ترغيبا في تعلم القرآن وتعليمه[٢]، وعرض فيه إلي مسائل مهمة ، ووثيقة الصلة بهذا الأمر، نذكر منها :

ـ مسألة ما ذهب إليه الحسن ـ رضي الله عنه ـ أنه أجاز أن يعلم المقرئ أولاد المشركين القرآن ، وأنه سئل عن ذلك فقال: أو ليس يقرءون التوراة والإنجيل ، وهما من كتاب الله ـ عز وجل ، وقد رد السخاوي هذا القول واستند إلى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه ابن عمر :« لا تسافروا بالقرآن فإني أخاف أن يناله العدو » ، لأن ذلك يؤدي إلى أن يمسه الكافر ، وإذا كان المسلم لا يمس القرآن وهو محدث ، فكيف يجوز أن يعلمه المشرك فيكتبه ، وإذا كان المسلم الجنب لا يقرأه ، فكيف يجوز أن يقرأه الكافر؟! [٣] ويبدو أن الذي

---

[١] الذهبي : معرفة القراء الكبار ص٣٤١

[٢] السخاوي : علي بن محمد ، جمال القراء وكمال الإقراء ، الطبعة الأولى ، مطبعة المدني ١٤٠٨هـ ، تحقيق : علي حسين البواب ج١ ص(١٠١،١٢٣)

[٣] علم الدين السخاوي : جمال القراء وكمال الإقراء ج١ ص (١٠٢،١٠٣)

حمل السخاوي على نشر ذلك ومنعه كثرة النصارى الموجودين في بلاد الشام آن ذاك واختلاطهم بالمسلمين .

ـ ومنها مسألة النهي عن الاستخفاف بالقرآن بالقول أو بالفعل ، لمزاح به أو الاستشهاد به في غير موطنه [١] .

ـ ومنها مسألة تجزئة القرآن إلى أجزاء وأحزاب ، وما فيه من الفوائد لمن يريد حفظ القرآن الكريم دون مشقة [٢] .

ـ ومنها إجماله صفات معلم القرآن ، بأن يكون كما كان النبي صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن ، متجملا بالتواضع والحلم والزهد في الدنيا وملذاتها[٣]، طالبا بتعليمه وتعلمه وجه الله تعالى[٤] إلى غير ذلك .

أما كتاب (التبيان في آداب حملة القرآن) للإمام شرف الدين النووي (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) فإنه من أشهر الكتب التي ألفت في هذا الفن ، ويعد مصدرا هاما لكل الدارسين لعلوم القرآن ، وقد اشتمل على عشرة أبواب خصص منها ثلاثة أبواب لذكر صفات معلم القرآن ومتعلمه ، وأدرج فيها أساليب وطرق مهمة في تعليم القرآن الكريم ، وجعلها هي المقصود من تأليفه لهذا الكتاب[٥] .

واعتمد الطلاب في تعلم القراءات على الكتب المشهورة فيها ، مثل كتاب (التيسير في القراءات السبع) للإمام أبي عمرو بن عثمان بن سعيد اللداني (٤٤٤هـ/١٠٥٢م)[٦]، وكتاب (الكنز في القراءات العشر) للإمام نجم الدين بن عبد الله بن عبد الواحد الواسطي[٧] ، أو على ما يتلقاه الطلبة تلقينا من علماء القراءات المشاهير الذين امتازوا بعلو إسنادهم[٨]، أمثال العلامة المقرئ زيد بن

---

(١) علم الدين السخاوي : جمال القراء وكمال الإقراء ج١ ص(١٠٢،١٠٣)

(٢) نفسه ج١ ص ١٠٥

(٣) نفسه ج١ ص (١٢٤،١٨٧)

(٤) نفسه ص (١٠٣،١٠٤،١٠٥،١٠٦،١١٥،١١٦،١١٧)

(٥) التبيان في آداب حملة القرآن ص(١٧،٣٦) ، والكتاب في لقي عناية كبرى من الدارسين ، لذا آثرت الإحالة إلى الصفحات دون ذكر ما فيه من الطرق والأساليب التربوية .

(٦) تذكرة الحفاظ ص(١١٢٠،١١٢١) ، معرفة القراء الكبار ص(٢٢٦،٢٢٧)

(٧) الصفدي : الوافي بالوفيات ص٣ص٤ ، الجزري : غاية النهاية ج٢ ص١٢٨

(٨) الذهبي : معرفة القراء الكبار ص (٣١٨،٣١٩)

الحسن بن زيد بن الحسن الكندي (٦١٣هـ/١٢١٦م)[١] ، والمقرئ عبد العزيز بن أحمد بن مسعود بن سعد الجصاص (٦١٠هـ/١٢١٣م) [٢] وغيرهما حتى دخلت الشاطبية إلى دمشق ، وهي المسماة (حرز الأماني ووجه التهاني) فكانت هي العمدة في تعليم القراءات [٣]، ونالت قبولا واسعا ، فقرأها الطلاب وسمعوها وحفظوها وعرضوها على العلماء [٤] .

أما عن كيفية إنشاء دور القرآن فهي ، إما أن تكون على هيئة مبان مستقلة يتم بناؤها لهذا الهدف ، أو مبان ملحقة بالمداس ، ومما يلاحظ كثرة دور القرآن الملحقة بالترب التي ينشئها السلاطين والوزراء والأعيان ، وما يجعلون عليها من الأوقاف السخية طلبا للأجر والثواب ، **ومن أشهر تلك الدور** :

١ـ دار القرآن الرشائية :

وهي أول مدرسة أنشئت في دمشق تخصصت في تدريس القرآن [٥] ، تقع بدرب الخزاعية شمالي الخانقاه السميساطية بباب النطافئيين[٦] ، تنسب لرشا بن نيف بن ما شاء الله أبو الحسن الدمشقي [٧] ، كان عالما بالقراءات [٨] ، أوقفها على القراء [٩] بدمشق .

---

[١] الذهبي : معرفة القراء الكبار ص (٣١٨،٣١٩)

[٢] نفسه ص(٣١٨،٣١٩) ، الجزري : غاية النهاية ج١ ص٣٩٢

[٣] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص٧١ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص(٢٠،٢٢)

[٤] عبد المهدي : المدارس في بيت المقدس ج١ ص١٧

[٥] النعيمي : دور القرآن في دمشق ص٨ صححه وعلق عليه صلاح الدين المنجد

[٦] النعيمي : الدارس ج١ ص١١ ، كرد علي : خطط دمشق ج٦ ص ٧٠

[٧] النعيمي : الدارس ج١ ص١١ ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص٧

[٨] العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص٧

[٩] الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٤ ص١٢٢

٢ـ دار القرآن الزنجارية (تربة) :

وهي جزء من المدرسة الزنجارية [١] ، تنسب إلى الأمير عز الدين عثمان بن علي الزنجاري (٥٨٣هـ/١١٨٧م) نائب عدن [٢] ، تصدر للإقراء بها المقرئ المنتخب بن أبي العز بن رشيد (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) ، كان شيخ القراء بها [٣] ، وقرأ عليه بها جملة من الطلبة أصبح لهم شأن في علم القراءات .

٣ـ دار القرآن بالمدرسة العمرية :

تنسب للشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي (٦٠٧هـ/١٢١٠م) ، أوقفها على تدريس القرآن والفقه [٤] ، وتنوعت دروس العلم بها [٥] ، فلم تخلو من كونها مدرسة للفقه ان يكون بها درس للقراءات لكبار الطلاب ، وحلقات لتلقين الصبيان [٦] ، ذكر ابن طولون أنه كان بها عشرة من المشايخ يقرءون القرآن [٧] ، وكان يقرأ فيها السبع كل يوم في الإيوان القبلي ، يجتمع فيه عدد من الطلاب والعامة ويختم فيه القرآن كل أسبوع [٨] ، وأول من أقام السبع بها الشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي باني المدرسة ، كان يقيمه بعد صلاة الظهر والعصر [٩] ، ولهم سبع آخر بعد صلاة المغرب [١٠] كما أنه كان يلقن الطلاب من بعد صلاة الفجر إلى وقت الضحى [١١] ، وقد لعبت هذه الدار دورا كبيرا في تعليم القرآن ، يقول أبو شامة : « وقد حفظ القرآن بها أمم لا يحصون » [١٢] ، مما يدل على علو مكانتها بين مدارس دمشق .

---

[١] النعيمي : الدارس ج١ ص٥٢٦

[٢] النعيمي : الدارس ج١ ص٥٢٦ ، أبو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ص(١٦٤،١٣)

[٣] الذهبي : معرفة القراء الكبار ص٣٤٣ ، ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص(٣١١،٣١٠)

[٤] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث(٦١٠،٦٠٠) ص٢٥٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص(٦٠،٥٤) .

[٥] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص٢٥٩

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٧١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص(٦٥،٦٤)

[٧] القلائد الجوهرية ج١ ٢٦٣

[٨] نفسه ج١ ص٢٦٤

[٩] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٧١

[١٠] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص٢٦٤

[١١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٧١

[١٢] الذهبي : تاريخ الإسلام (٦١٠،٦٠٠) ص(٢٥٨،٢٤٧) ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ص٢٦٣

٤ـ دار القرآن الزويزانية (تربة) :

تقع بميدان الحصى عند مسجد الفلوس [١] ، تنسب إلى جمال الدولة خليل بن زويزان (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) [٢] ، كان من أهل البر والصدقات وخلف أموالا كثيرة أوقفها على القراء والعلماء في تربته [٣] ، ولم تذكر المصادر من القراء المتصدرين بها إلا المقرئ الفقيه إسماعيل بن يوسف بن مكتوم الدمشقي (٧١٦هـ/١٣١٦م) [٤] ، وهو آخر من قرأ على الإمام علم الدين السخاوي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) [٥] ، كان فقيها بالمدارس ومقرئا بالزويزانية [٦] .

٥ـ دار القرآن بالتربة العادلية :

وتقع بالمدرسة العادلية الكبرى [٧] ، وكان بها درس للقرآن الكريم والقراءات إلى جانب دروسها المتخصصة في اللغة العربية [٨] ، وقد تولى مشيخة هذه التربة القاسم بن أحمد بن موفق بن جعفر اللورقي (٦٦١هـ/١٢٦٢م) المقرئ النحوي [٩] ، كان من أعلام القراء بدمشق .

٦ـ دار القرآن الأشرفية (تربة) :

هي تربة بنيت للملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب ودفن بها[١٠]، تقع شمالي الكلاسة بالجامع[١١] وقد قرر بها شيخ إقراء، وقراء يقرءون بها[١٢]، ومن مشايخ الإقراء بها الشيخ يوسف الواسطي الأعرج

---

(١) النعيمي : الدارس ج٢ ص٢٤٧

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٤٠ ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص١٩٧

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث (٦٢٠/٦٣٠) ص٢٨٩ ، النعيمي : الدارس ج٢ ص٢٤٧

(٤) النعيمي : الدارس ج٢ ص٢٤٧

(٥) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٩ ص٢٤٦

(٦) النعيمي : الدارس ج٢ ص٢٤٨

(٧) نفسه ج٢ ص٢٦٦

(٨) نفسه ج٢ ص٢٦٩

(٩) ابن الجزري : غاية النهاية ج٩ ص (١٥،١٦)

(١٠) النعيمي : الدارس ج٢ ص (٢٩١،٢٩٢) ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص (٢١١،٢١٢) ، بدارن : منادمة الأطلال ص٣٠٣

(١١) النعيمي : الدراس ج٢ ص (٢٩١،٢٩٢) ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص(٢١١،٢١٢)

(١٢) النعيمي : الدارس ج٢ ص(٢٩١،٢٩٢) ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص(٢١١،٢١٢)

(٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، كان أحد الشيوخ الفضلاء [١] ، كما ولي مشيخة الإقراء بها المقرئ عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المعروف بأبي شامة المقدسي (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) [٢] .

٧- دار القرآن الصالحية (تربة) :

أنشأها الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبي بكر بن أيوب [٣] ، وهي تعد مدرسة ودار قرآن ودار حديث [٤] ، فكانت تلقى بها دروس القرآن وعلوم القراءات ، وقد تصدر بها عدد من كبار القراء في ذلك العصر ، أولهم الشيخ علي بن محمد بن عبد الصمد علم الدين السخاوي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) [٥] ، وجاء بعده الشيخ فخر الدين بن المالكي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) [٦] ، ثم وليها الشيخ محمد بن علي بن موسى أبي الفتح الأنصاري (٦٥٧هـ/١٢٥٨م) ، كان من أئمة القراءات في وقته [٧] ، وكان شرط واقفها ألا يتولى الإقراء بها إلا أعلم أهل دمشق بالقراءات [٨] ، فوقع نزاع بين أبي الفتح الأنصاري (٦٥٧هـ/١٢٥٨م) وبين أبي شامة المقدسي (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) حول من يتولى مشيخة هذه التربة ؛ لأن كلا الشيخين جدير بذلك ، فجعل بينهم حكما ، وعين لذلك الشيخ القاسم بن أحمد اللورقي (٦٦١هـ/١٢٦٢م) بأمر من ولي الأمر ، فعقد لهما مجلس وسألهم بسؤال على أن يكتب كل واحد منهم جوابه ، فكتباه وقدماه إليه ، فقال عن أبي شامة : هذا إمام من أئمة المسلمين ، وقال عن أبي الفتح : هذا مقرئ فوقع الاختيار على المقرئ ، وذلك لميل ولي الأمر إليه [٩] ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على

---

[١] ابو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨

[٢] الذهبي : معرفة القراء الكبار ص (٣٦١،٣٦٢) ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص(١٦٥،١٦٦،١٧٦) ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص١٣٣

[٣] النعيمي : الدارس ج١ ص (٣١٦،٣١٨) ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص٥٠

[٤] العلبي : خطط دمشق ص١٣٠

[٥] الذهبي : معرفة القراء الكبار ص(٣٤١،٣٤٢)

[٦] ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص٢١١

[٧] الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ ص١٨٤

[٨] ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص٢١١

[٩] نفسه ج٢ ص٢١١

مكانة هذه الدار ودورها العلمي ، ثم ولي مشيختها الشيخ عبد السلام بن علي بـــن محمد بن سيد الناس المالكي الزواوي (٦٨١هـ/١٢٨٢م) [١] .

---

[١] ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص٢١١

المبحث الرابع : دور الحديث الشريف :

كثرت دور الحديث في دمشق في العصر الأيوبي ، يأتي ذلك منسجما مع اهتمام الأيوبيين وحرصهم على إحياء علوم السنة[١] ، ولذا كان هذا دافعا لكثير من العلماء في الرحيل إلى دمشق طلبا للعلم والأخذ عن علمائها .

وقد شارك في انتشار دور الحديث بها السلاطين والعلماء والأعيان [٢] وجعلوا لها الأوقاف السخية التي تقوم بشئونها [٣] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن إنشاء دار خاصة بعلم واحد كالحديث مثلا ينبئ عن اهتمام بالغ بهذا العلم ، وكثرة المشتغلين به ، لذا خصصت له دور منفصلة عن المدارس الأخرى المنتشرة في دمشق .

ويأتي التخطيط المعماري لدار الحديث الدمشقية من حيث عدد مرافقها أقل سعة من المدرسة ، وذلك لأنها مقصورة على تدريس الحديث على الخصوص [٤] ، يقول ابن طولون في وصف دار الحديث الضيائية : « وتشتمل هذه المدرسة على مسجد له باب غربي قدامه باب خلوه الكتب والأجزاء ... ولهذا المسجد شباكان مطلان على ضفة بها بئر ماء وهذه الضفة في صحن المدرسة ودايرها خلاوي سفلية وعلوية ، وفي شرقيه بيت الخلا ... »[٥] ، ومن هذا يتبين لنا أهم مرافق دار الحديث الدمشقية[٦] ، المتمثلة في المسجد والمكتبة ، وبئر الماء الخاصة بالشرب وخلوات الدرس للطلاب ، والصحن المكشوف والحمام ، زد

---

[١] عبد المجيد بدوي : التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص(٢٨٩،٢٩٤)

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٦١ ، النعيمي : الدارس ج١ ص(٤٧،٩٨،٩٩) ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٣٠

[٣] ابن الأثير : الباهر ص١٧٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٤٦

[٤] شاكر مصطفى : آل قدامة في الصالحية ص٨٥

[٥] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٣٩،١٤٠)

[٦] انظر في تخطيط دار الحديث النورية : جان سوفاجيه : الآثار التاريخية في دمشق ، الطبعة الأولى ، دار الطباع ١٤١٢هـ عربه وعلق عليه اكرم حسن العلبي ص٦٩ ، فكري : أحمد ، مساجد القاهرة ومدارسها (العصر الأيوبي) دار المعارف بمصمر ، ج٢ ص(١٠٣،١٠٤) ، حيدر : كامل العمارة العربية والإسلامية ص١٠١

على هذه المرافق وجود سكن خاص بشيخ الدار يقيم فيه [1] ، وكذلك العلماء الوافدين على الدار ، وذلك من خلال ما ذكر عن دار الحديث الأشرفية [2] ، ثم أضيف إلى تخطيطها رباط يقيم فيه الوافدون الغرباء [3] .

ويعد نظام دار الحديث الأشرفية السلطانية من أفضل الأنظمة التعليمية [4] ، والذي يعطينا صورة واضحة عن النظام التعليمي داخل دار الحديث الدمشقية بوجه عام ، ويتمثل هذا النظام في الهيئة الإدارية والهيئة التعليمية .

الهيئة الإدارية ومهامهم وما يصرف لهم من رواتب :

١ـ الناظر : « يبدأ الناظر بعمارة دار الحديث وعمارة ما هو موقوف عليها وعلى أهلها قدر الحاجة إليه من زيت وشمع وقناديل ومصابيح وتعاليق وحصر وبسط برسم المسجد ، وسائر ما لا يختص أحد بسكناه من أسفل الدار ، وما يحتاج إليه من آلة تنظيف وكنس ونحو ذلك » [5] .

ـ « ويتعاهد كتب الوقف وحججه بالإثبات ويصرف في ذلك من مغل الوقف مقدار الحاجة » [6] .

ـ وله أن يصرف من مغل بعض الأماكن الموقوفة في عمارة مكان آخر منها مما وقف الآن ، ومما سيوقف بعد ذلك [7] .

ـ أن يصرف ما بقي من غلة الوقف على أهل الدار من أصحاب الحديث والمشتغلين بعلمه والسامعين له والقراء للسبع والشيخ المحدث والإمام وسائر المرتبين [8] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٢٦ ، النعيمي : الدارس ج١ ص(٣٠،٢٩)

(٢) تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١١

(٣) ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٤٦

(٤) دهمان : في رحاب دمشق (مقالة) دار الحديث الأشرفية ص١٣٤

(٥) تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١٠٩

(٦) نفسه ج٢ ص١٠٩

(٧) نفسه ج٢ ص١٠٩

(٨) نفسه ج٢ ص١٠٩

٢- نائب الناظر :

وهو ينوب عن الناظر في كل شئون الوقف [١] .

٣- الإمام :

وعليه القيام بوظيفة الإمام في الخمس صلوات وفي التراويح ، وله ستون درهما في كل شهر [٢] ، وقد تولى إمامة دار الحديث الأشرفية ، الشيخ الفقيه محمد بن الحسين بن موسى بن زين العامري الحموي (٦٨٠هـ/١٢٨١م) أم بها زمن شيخها أبي عمرو ، ابن الصلاح [٣] ومن العلماء الذين تولوا إمامة دور الحديث بدمشق ، الشيخ المحدث عبد العزيز بن عثمان بن أبي طاهر الأربلي (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) ، كان إمام دار الحديث النورية بدمشق [٤] .

٤- المؤذن :

وله في كل شهر عشرون درهما [٥] .

٥- خازن المكتبة :

وعليه الاهتمام بترميم الكتب وإعلام الناظر ونائبه ليصرف فيه من مغل الوقف ما يفي بذلك ، وله في كل شهر ثمانية عشر درهما [٦] .

٦- مرتب ونقيب :

ويصرف له ثمانية عشر درهما ، يزيد ذلك إذا اشترك معه في العمل غيره[٧].

---

[١] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١٠٩

[٢] نفسه ج٢ ص١٠٩

[٣] تقي الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص٤٦

[٤] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٧٩

[٥] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١٠٢

[٦] نفسه ج٢ ص ١٠٩

[٧] نفسه ج٢ ص١١٠

٧- خادم الأثر الشريف : [١]

وهو الحاج رنطار [٢] غلام الله ، وله في كل شهر أربعون درهما يجـــري بعده في نسله [٣] .

٨- القيم : وهو الذي يقوم بخدمة الدار وتدبير شئونها [٤] وعددهـــم اثنـــان ولـــهم ثلاثون درهما ، وللناظر أن يفاوت بينهما حسب ما يقومان به من عمل [٥] .

٩- البواب : وله خمسة عشر درهما [٦] .

(ب) الهيئة التعليمية ، وما يصرف لهم :

١- شيخ الدار (المحدث) : ويصرف له تسعون درهما [٧] ، وكـــان أول مـــن ولـــي مشيختها المحدث عثمان بن عبد الرحمن بن موســـى الكـــردي المعـــروف بـــابن الصلاح (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) [٨] وهو الذي كتب كتاب وقفـــها [٩] وكـــان شـــرط التدريس في دار الحديث أنه اجتمع من فيه الرواية ومن فيه الدراية قدم من فيـــه

---

[١] هو نعل النبي صلى الله عليه وسلم كان عند النظام بن ابي الحديد التاجر ، فلما قدم على الملك الأشـــرف موسى حرص على طلبه منه ، وكان ضنينا به ، فعزم الأشرف على أخذ قطعة منه ، ثم عدل عن ذلك خوفـا ان يذهب بالكلية ، ثم شاء الله أن يموت النظام بن أبي الحديد هذا بعد اشهر ، ويوصي به للملـــك الأشـــرف فجعله الأشرف في دار الحديث الأشرفية . سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٧١٣ ، ابـــن كثـــير : البداية والنهاية ج٧ ص١٥٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث (٦٣١،٦٤٠) ص٢ ، انظر معلومات أكثر عن ذلك المقري (فتح المتعال في وصف النعال) طبعة الهند ، حيدر اباد سنة ١٣٣٤هـ ص٣٥٥ ، المنجـــد : صلاح الدين ، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالة المسلمون ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب الجديد ١٩٦٧م ، ص(١٩٨ ـ١٩٩ـ٢٠٠ـ٢٠١)

[٢] هو الحاج رنطار ، كان الملك الأشرف واقف دار الحديث قد اعتمد عليه في عمارتها ووقفها والنظر فيـها وفي خدمة الأثر الشريف النبوي بها ، وكان رزقها في أيامه متوفر ، واختل ذلك بعد موته ، يقول ابو شـامة في ذلك :

من بعد ما مات رنطار والتقى ابن الصلاح ... هذاك للوقف والشيخ للعلوم الصحاح

أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢١٠

[٣] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص(١٠٨،١٠٩)

[٤] دهمان : في رحاب دمشق ، مقالة دار الحديث الأشرفية ص١٣٨

[٥] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١٠

[٦] نفسه ج٢ ص١١٠

[٧] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١٠٩

[٨] الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص(١٤٣٠،١٤٣١)

[٩] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٨٠

الرواية [١] ، فكان ابن صلاح وإسماعيل بن إبراهيم بن إبي اليسر التنوخي الدمشقي (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) ممن ولي مشيخة الرواية بدار الحديث الأشرفية [٢] .

٢- **قارئ الحديث بالدار** : وله في كل شهر أربعة وعشرون درهما [٣] ، وممن تولى هذا الأمر بهذه الدار الشيخ محمد بن محمد بن عمر بن الصفار الأسفراني (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) تولاها من أول افتتاحها وحتى سنة وفاته [٤] ، كما تولى إقراء الحديث بها المحدث يوسف بن محمد بن عبد الله الهتار الهمذاني (٦٨٥هـ/١٢٥٩م) [٥] .

٣- **طلاب الحديث** : ويصرف لكل واحد منهم ثمانية دراهم [٦] .

٤- **مستمعو الحديث** : ويصرف لكل واحد منهم أربعة دراهم [٧] .

٥- **المقرئ** : ومهمته أن يعقد حلقة للإقراء والتلقين ، ويشترط فيه أن يكون حافظا للقراءات السبع عارفا بها ، وقد يقوم بهذه الوظيفة إمام الدار ، ويصرف له أربعة وعشرون درهما [٨] .

(٦) **قراء السبع** : وعددهم عشرة قراء لكل واحد عشرة دراهم [٩] .

ورسم في كتاب وقفها للطلاب جوائز وحوافز تدفعهم إلى بذل الجهد ، وتحفيزهم على طلب العلم « فيجعل لكل من المشتغلين ثمانية دراهم ومن زاد اشتغاله زاده ، ومن نقص نقصه ومن حفظ منهم كتابا من كتب الحديث فللشيخ أن يخصه بجائزة ومن انقطع منهم إلى الإشتغال بالحديث وكان ذا أهلية يرجى معها

---

(١) النعيمي : الدارس ج١ ص٢٠

(٢) الكتبي : فوات الوفيات ج١ ص١٧٠

(٣) تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١١

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٨٦

(٥) الذهبي : معجم الشيوخ ج٢ ص (٣٩٢،٣٩٣)

(٦) تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١١

(٧) نفسه ج٢ ص١١١

(٨) نفسه ج٢ ص١٠٩

(٩) نفسه ج٢ ص١٠٩

أن يصير من أهل المعرفة فللشيخ أن يوظف له تمام كفاية » [١] هذا خاص بطلاب الحديث ، أما المستمعون فللناظر زيادة من رأى فيه النباهة بحيث يصرف له ما يصرف لطلاب الحديث مقداره ثمانية دراهم [٢] .

كما كان من نظام الدار استدعاء كبار العلماء من شيوخ الحديث ممن اشتهروا بعلو إسنادهم فيه ، سواء كانوا من أهل دمشق أو غيرها من البلاد الإسلامية ، وتخصص لهم أعطيات من وقف الدار ، جاء في نص الوقفية « وإذا ورد شيخ له علو سماع يرحل إلى مثله فله أن ينزل بدار الحديث ويعطي كل يوم درهمين ، فإذا فرغ أعطي ثلاثين دينارا كل دينار تسعة دراهم ، هذا إذا ورد من غير الشام ، فإن كان ممن هو مقيم بالشام كان له دون ذلك على ما يراه الشيخ ، وإن كان صاحب العلو من المستوطنين بدمشق ، واقتضت المصلحة استحضاره في الدار لاستماع ما عنده من العالي فللناظر أن يعطيه ما يليق بحاله من عشرة دنانير فما دون ذلك » [٣] .

ومن نظام الدار كذلك اجتماع عام للعلماء والطلاب والمستمعين والعاملين بالدار ، يجتمعون كل خمس ليال ، يجعل لهم من مغل الوقف الطعام والماء المثلج والشموع والعود والبخور وغير ذلك [٤] ، واجتماع آخر في شهر رمضان يعطون فيه من وقف الدار ألف درهم تقسم بينهم بالسوية [٥] .

ومن خلال هذا التنظيم الدقيق الذي كانت عليه دار الحديث الأشرفية يتضح لنا المستوى المتقدم للحركة العلمية بدمشق ، ويبرز دور الوقف في تنشيطها ، ومدى ما يحققه من نتائج حسنة في هذا السبيل .

أما عن الكتب التي كانت تدرس في دور الحديث ، فقد اعتمد تدريسهم على كتب الحديث المشهورة مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي

---

[١] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١٠٩

[٢] نفسه ج٢ ص١١١

[٣] نفسه ج٢ ص١١١

[٤] نفسه ج٢ ص١١١

[٥] نفسه ج٢ ص١١١

والنسائي وأبي داود وابن ماجه ، وهي الأساس لدراسة الحديث والتأليف فيه [١] ، حيث قرأ أبو عمرو بن الصلاح صحيح البخاري على المحدث المغدي بن ختلع بن عبد الله الأميري البغدادي (٥٨٩هـ/١٢٩٣م) نزيل دمشق [٢] ، وكان للشيخ يحيى بن شرف الدين النووي درس في الجمع بين الصحيحين ، ودرس في صحيح مسلم [٣] ، ومن الكتب التي كانت تدرس في الحديث كتاب (الغيلانيات) [٤] لمحمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي البزار (٣٥٤هـ/٩٦٥م) ، ويرجع اهتمام العلماء به والحرص على قراءته وسماعه لما امتاز به من علو الإسناد ، يقول الذهبي : « من فاتته الغيلانيات والقطبيات وجزء الأنصاري نزل حديثه درجة ...» [٥] ، وكان عمر بن محمد بن معمر بن يحيى بن طبرزد (٦٠٧هـ/١٢١٠م) يسمعها بدمشق ، [٦] قرأها عليه المحدث العظيم بن عبد القوي المنذري بدمشق [٧] .

واختلف في السن الذي يقبل فيه تحمل رواية الحديث عند المحدثين ، يذكر ابن الصلاح أن سن خمس سنين هو الذي استقر عليه عمل أهل الحديث المتأخرين[٨] ، غير أن ابن النفيس ذكر في كتابه (المختصر) في علوم أصول الحديث « أن أجود وقت يتحمل فيه الحديث هو الوقت الذي يبتدئ فيه العقل بالكمال ، وذلك عند قرب عشرين سنة » [٩] .

---

[١] أحمد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص١٢٦

[٢] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٣ ص(٣٧٨،٣٧٩)

[٣] ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٢ ص(١٥٣،١٥٧)

[٤] الذهبي : العبر ج٣ ص٣٥٥

[٥] الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٦ ص٤١

[٦] الذهبي : العبر ج٣ ص٣٥٥

[٧] المنذري : التكملة ج٢ ص٢٠٨

[٨] ابن الصلاح : عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري ، علوم الحديث ، دار الفكر دمشق ، تحقيق : نور الدين عتر ص (١٢٩،١٣٠،١٣١)

[٩] المختصر في علم أصول الحديث النبوي ، الطبعة الأولى ، الدار المصرية اللبنانية ١٤١٢هـ ، تحقيق : يوسف زيدان ص١٣٣ ، يرى ابن النفيس ان يكون مجلس الرواية فسيحا رحبا ، في الشتاء دفيئا ريحا ، في الصيف غير مترب ، حتى لا يكون فيه من البرد أو الحر ما يعوق عن جودة الحفظ والفهم ، وأولى الأوقات بذلك في الشتاء أواسط النهار ، وفي الصيف طرفاه ...) المختصر ص١٣٣

وقد اتبع العلماء في تدريس الحديث طرقا اصطلح عليها بينـــهم ، هـــي : السماع والقراءة والاجازة [١] والمناولة والمكاتبة والإعلام والوصية والوجـــادة ، وسوف نعرض إلى طريقتين هي أشهر هذه الطرق في التحمل في دمشق في هـــذا العصر وهما :

١- السماع من لفظ الشيخ :

وينقسم إلى إملاء أو تحديث ، وسواء كان من حفظه أو القراءة من كتابــه ، وهو أرفع درجات أنواع الرواية عن الأكثرين [٢] ، وظهرت هذه الطريقة نتيجـــة اهتمام المسلمين الأوائل بالحديث النبوي وروايته ، وتوثيق إسناده ، ووجدوا فيـــها الطريقة المثلى لحفظ الحديث ونقله بين المسلمين ، خاصة عندما لم تكـــن الكتابـــة والتدوين قد انتشرت بين المسلمين [٣] .

٢- القراءة على الشيخ :

تعد القراءة أو العرض كما يسميها بعض أهل الحديث [٤] النوع الثاني مـــن أنواع التحمل [٥] ، وهي قراءة الطالب على الشيخ من كتاب في يده أو من حفظـــه ، أو كان الشيخ يحفظ ما يقرأ عليه أو يمسك أصله [٦] .

واختلف في التسوية بين السماع والقراءة [٧] ، فمعظـــم علمـــاء الحجـــاز والكوفة رأوا التسوية بينهما [٨] ، وهو مذهب الأمام مالك ، فقد روى عنه أنه عـــد القراءة ضربا من ضروب السماع [٩] ، يقول : « الســـماع عندنـــا علـــى ثلاثـــة

سوف يأتي الحديث عنها في مبحث مستقل ـــ إن شاء الله .

[٢] القاضي عياض : موسى اليحصبي ، الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ، الطبعة الثانيـــة ، دار التراث ١٣٩٨هـــ ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، ص٦٩ ، ابن الصلاح : علوم الحديث ص١٣٢

[٣] غنيمه : محمد عبد الرحيم ، تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى ، دار الطباعة المغربية ١٩٥٣م ص١٨١

[٤] ابن الصلاح : علوم الحديث ص١٣٧

[٥] بشير نصر : الصديق ، ضوابط الرواية عند المحدثين ، الطبعة الأولـــى ، منشـــورات كليـــة الدعـــوة الإسلامية طرابلس ، ص١٣٨

[٦] القاضي عياض : الإلماع ص٧٠

[٧] ابن الصلاح : علوم الحديث ص١٣٧

[٨] القاضي عياض : الألماع ص٧٠

[٩] الصديق نصر : ضوابط الرواية عند المحدثين ص١٣٨

أضرب، أولها قراءتك على العالم ، والثاني قراءته عليك ، والثالث أن يدفع إليك كتابا فيقول : أروه عني » ، قال : وكان مالك يحتج في هذا بأن الراوي ربما سها أو غلط فيما يقرؤه بنفسه فلا يهتدي للرد عليه ، إما لهيبة الراوي وجلالته ، وإما أن يكون غلطة في موضع صادف اختلافا فيجعل خلافا ، توهما أنه مذهب فيحمل الخطأ صوابا ، وقال:« وإذا قرأ الطالب على الراوي فسها الطالب أو أخطأ رد عليه الراوي لعلمه مع فراغ ذهنه ، أو يرد عليه غيره من يحضره ، لأنه لا هيبة للطالب ، ولا يعد له أيضا مذهب في الخلاف إن صادف بغلطه موضع اختلاف ، فالرد عليه متوجه» [١]، وقد حرص طلبة العلم في دمشق على السماع والقراءة من الشيوخ المعتبرين ممن علا إسنادهم واتصل سماعهم ، ولعلنا نعرض لنماذج من ذلك عند ذكر دور الحديث .

دور الحديث : اشتهرت في هذا العصر وكثرت حتى أنها تكاد تنافس المدارس ودور القرآن ولكثرتها سنذكر هنا المشهور منها وما كان أكثر أثرا وأعظم سمعة:

١- **دار الحديث النورية** : تنسب إلى السلطان نور الدين محمود بن زنكي (٥٦٩هـ/١١٧٣م) [٢] أوقفها على المشتغلين بعلم الحديث ، [٣] يقول ابن الأثير : « وهو أول من بنى دارا للحديث فيما علمناه » [٤] وجعل لها أوقافا كثيرة عليها وعلى المشتغلين بها[٥]، ولما زاد طلاب العلم وكثر المشتغلون بها في العصر الأيوبي ، أمر الملك الأشرف موسى أن يصرف لها من وقف دار الحديث الأشرفية ألفا درهم [٦] ، وقد ولي مشيخة الحديث بهذه الدار كبار علماء الحديث

---

[١] القاضي عياض : الإلماع ص(٧٤،٧٥)

[٢] النعيمي : الدارس ج١ ص٩٩ ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص١٨

[٣] ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٧٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص(٢٨٢،٢٨٣) ، ابو شامة : عيون الروضتين ج١ ص٣٧٠ ، ولم تكن دار الحديث النورية بدمشق هي أول دار للحديث أنشئت في العالم الإسلامي ، فقد سبقتها مدينة نيسابور قبل هذا التاريخ بأكثر من قرنين من الزمان ، حيث يذكر ناجي معروف = أنه كان بها داران للسنة هما : (دار الحديث البسطامية) ، (ودار الحديث الصبغية) ، المدارس قبل النظامية ص٩ ، ويبدو أن ابن الأثير اراد بذلك المشرق الإسلامي .

[٤] ابن الأثير : التاريخ الباهر ص١٧٢

[٥] نفسه ص١٧٢

[٦] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١ ، النعيمي : الدارس ج١ ص١٠٠

في هذا العصر ، منهم الحافظ المحدث علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن عساكر (٥٧١هـ/١١٧٥م) إمام أهل الحديث في عصره [١] ، بنى له نور الدين محمود هذه الدار [٢] التي كان لها دورها في نشر علوم السنة آنذاك ، ثم وليها بعده ابنه القاسم بن علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) الذي درس كتب أبيه وأسمعها على طلبته بالجامع الأموي وفي هذه الدار [٣] ، وجاء بعده عبد الرحمن بن الحسن بن هبة الله بن عساكر المحدث (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) [٤] ، ثم وليها الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن زين الأمناء بن عساكر (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) [٥] كان يسمع الحديث بها حتى كبر سنه وأقعد فكان يحمل إلى دار الحديث النورية من أجل إسماع الحديث [٦] .

وتولى بعده عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن آل حسن بن هبة الله بن عساكر (٦٦٠هـ/١٢٦١م) [٧] ، وممن تولى مشيخة هذه الدار مشاركا لأسرة ابن عساكر ، المحدث فرج بن عبد الله الحبشي كان مواظبا على سماع الحديث وإسماعه إلى أن مات (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) [٨] ، والمحدث خالد بن يوسف بن سعد النابلسي (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) [٩] ، والمحدث يوسف بن الحسن بن بدر الدمشقي (٦٧١هـ/١٢٧٢م) [١٠] ، ثم وليها بعد هذا التاريخ عدد من كبار المحدثين [١١] الذين ازدهرت بهم دمشق بعد ذلك .

---

(١) ابن كثير : طبقات الفقهاء ج١٠ ص (٦٩٣،٦٩٨)

(٢) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص٢٢٣ ، بدران : منادمة الأطلال ص٥٩ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ص٤٧ ، السيوطي : طبقات الحفاظ ص(٤٧٦،٤٨٧)

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٠٩

(٥) نفسه ج٧ ص١٣٧

(٦) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص(١٤١،١٤٢)

(٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص(١٧٦،١٧٧) ، البدر العيني : عقد الجمان ج١ص٣٤٤ ، النعيمي : الدارس ج١ ص(١٠٥،١٠٦)

(٨) البدر العيني : عقد الجمان ج١ ص٩٥

(٩) ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص(٨٨٧،٨٨٨)

(١٠) الذهبي : العبر ج٣ ص٣٢٣ ، النعيمي : الدارس ج١ ص١١٠

(١١) النعيمي : الدارس ج١ ص(١٠٠،١١١،١١٢)

٢- **دار الحديث الأشرفية السلطانية (الجوانية)** : تنسب للملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) [١] وشرع في بنائها سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) [٢] وتم البناء في سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) [٣] ، وافتتح الدرس بها في شهر شعبان من هذه السنة،[٤] وهي تقع على باب قلعة دمشق الشرقي [٥] ، وأوقف عليها الملك الأشرف أوقافا حسنة كثيرة [٦] ، وهي في الأصل دار للأمير صارم الدين قيماز (٥٩٦هـ/١٢٩٩م) [٧] أحد أمراء الدولة الصلاحية ، اشتراها منه الأشرف وجعلها دارا للحديث ، وبنى لشيخ الحديث بها بيتا يقيم فيه على الدوام [٨] ، وهذه الدار هي من أشهر دور الحديث بدمشق وقد وافق افتتاح هذه الدار دخول العلامة المحدث الحسين بن المبارك بن محمد بن يحيى بن مسلم الزبيدي (٦٣١/١٢٣٣م) إلى دمشق فنزل بها ولها شهر منذ فتحت فاجتمع الناس عليه وسمعوا منه صحيح الامام البخاري [٩] ولي مشيختها العلامة المحدث عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الكردي المعروف بابن الصلاح (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)[١٠]، كان بالقدس مدرسا بالصلاحية فلما هدم المعظم عيسى أسوارها قدم دمشق وولي مشيخة دار الحديث الأشرفية [١١] وهو أول من وليها يدرس الحديث وعلومه ، وتولى بعده الفقيه المحدث عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد الحرستاني(٦٦٢هـ/١٢٦٤م) [١٢] إلى

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٦١ ، الأربلي : مدارس دمشق وربطها ص(١٤،١٥)

(٢) النعيمي : الدارس ج١ ص١٩

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٤٦ ، بدران : منادمة الأطلال ص(٢٤،٢٥)

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٧٦،٦٧٧) .

(٥) النعيمي : الدارس ج١ ص١٩

(٦) ابن كثير : البداية والهاية ج٧ ص ٢٤٦

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٢٦ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٩٢٩ ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص(١٠،١١)

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٢٦ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٢٩

(٩) الصفدي : الوافي بالوفيات ج١٣ ص٣٠

(١٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص(٢٤٣،٢٤٤)

(١١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص(١٤٣٠،١٤٣١)

(١٢) الذهبي : العبر ج٣ ص٣٠٥ ، البدر العيني : عقد الجمان ج١ ص٣٨٩

أن توفي [١] ، ثم تولى مشيختها بعده ولمدة ثلاث سنوات العلامة المحـــدث عبـد الرحمن بـــن إســماعيل بــن إبراهيــم بــن عثمــان المعــروف بــأبي شـامة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) [٣] ، وجاء بعده الحافظ يحيى بن شرف الديـــن بــن مــري النووي (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) [٣] . وقد ولي مشيخة الرواية بها المحدث مسند الشـام إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله التنوخـي الدمشقي (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) .

٣ـ دار الحديث الأشرفية (**بالصالحية**) : تنسب للملك الأشرف موسى بن العادل أبـــي بكر بن أيوب (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) [٤] أوقفها على الحنابلة المحدثين ، نص علـــى ذلك كتاب وقفها :« أوقف هذه المدرسة المباركة ، ابتغاء لوجه الله تعالى ، المولـى السلطان العادل المظفر المؤيد المنصور الملك الأشرف مظفر الديـن أبـو الفتـح موسى بن المولى السلطان الملك العادل سيف الدين ، أبي بكر بن أيوب ، تقبل الله منه وأثابه الجنة على الحنابلة المحدثين ... سنة أربع وثلاثيـــن وســتمائة » [٥] . وذكرت المصادر أنه بناها للحافظ المحدث عبد الله بن عبد الغني بن عبد الواحــد المقدسي (٦٢٩هـ/١٢٣١م) وجعله شيخها ، وجعل له رواتب فمات قبـــل تمـام بنائها [٦] ، وأول من ولي مشيخة هذه الدار الشيخ المحدث عبد الرحمن بن محمـد بن أحمد بن قدامة المقدسي (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) وذلك سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) [٧]،

---

[١] النعيمي : الدارس ج١ ص٢٣

[٣] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص(١٦٥،١٦٦،١٦٧) ، الداوودي: طبقات المفسرين ج١ ص(٢٦٨،٢٦٩،٢٧٠)

[٣] تاج الدين السبكي : طبقات الشـــافعية الكـــبرى ج٨ ص(٣٩٥،٣٩٦) ، الذهبـــي : تذكــرة الحفــاظ ج٢ ص(١٤٧٠،١٤٧١،١٤٧٢) ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص(١٥٣،١٥٤،١٥٥) .

[٤] النعيمي : الدارس ج١ ص٤٧ ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٥٥ ، العلموي : مختصر تنبيــه الطالب ص

[٥] بدران : منادمة الأطلال ص٣٣

[٦] الذهبي : تاريخ الإسلام ح(٦٢١،٦٣٠) ص(٣١٨،٣١٩) ، ابـــن رجـــب : ذيــل طبقــات الحنابلــة ج٤ ص(١٨٥،١٨٦) ، النعيمي : الدارس ج١ ص(٤٧،٤٨)

[٧] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص٣٠٤ ، النعيمي : الدارس ج١ ص(٤٨،٤٩) ن ابـــن طولـــون : القلائد الجوهرية ج١ ص(١٥٧،١٥٨)

ولم تذكر المصادر من وليها قبل هذا التاريخ ، ولا نشك أنها كانت تقوم بدورها التعليمي منذ الفراغ من بنائها وحتى هذه السنة ، إذ تصل المدة إلى ثلاثين عاما .

٤- دار الحديث الكورسية :

تنسب إلى محمد بن عقيل بن كروس (٦٤١هـ/١٢٤٢م) محتسب دمشق[١] ولم تشر المصادر إلى من ولي مشيختها [٢] .

٥- دار الحديث الضيائية (دار السنة) :

تنسب للشيخ الفقيه الضياء محمد بن عبد الواحد ، أبو عبد الله الحنبلي المقدسي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م)[٣] بناها للمحدثين والغرباء الواردين على دمشق ، ومع الفقر الذي كان يعيشه ، كان يبني منها جانبا ثم ينتظر حتى يجتمع لديه مال آخر وهكذا ، وعمل فيها بنفسه [٤]، وتقع هذه الدار على باب الجامع المظفري [٥]، وكانت هذه الدار من أفضل مدارس دمشق بالصالحية والتي تخصصت في تعليم الحديث النبوي ، وقد حوت هذه الدار مكتبة ضخمة زادت من شهرتها [٦] ، وقد اشترط بهذه الدار أن يسمع بها جماعة من الصبيان الحديث [٧] ، مما يدل على أن مناهج الدرس كانت تشمل الصبيان أيضا ، وقد يكون هذا خاصا بنوابغ الصبيان ، وأول من ولي مشيختها الشيخ الفقيه الضياء محمد بن عبد الواحد الحنبلي المقدسي (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) باني المدرسة [٨] ، ومن هؤلاء العلماء والمحدثين محمد بن عبد المنعم بن غازي بن هامان بن

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٧٥ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ص٩٨ ، النعيمي : الدارس ج١ ص(٩٨،٩٩) ، بدران : منادمة الأطلال ص(٥٧،٥٨)

(٢) النعيمي : الدارس ج١ ص(٩٨،٩٩)

(٣) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٥٨ ، النعيمي : الدارس ج٢ ص(٩١،٩٢)

(٤) العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص١٢٧ ، ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص(٢٣٦،٢٣٩)

(٥) النعيمي : الدراس ج٢ ص(٩١،٩٢) ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٣٠

(٦) ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص(١٣١،١٣٨،١٣٩)

(٧) النعيمي : الدارس ج٢ ص٩٤

(٨) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٥٨

موهوب(٦٧١هـ/١٢٧٢م)[١]، والمحدث محمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي (٦٨٨هـ/١٢٨٩م)[٢].

٦ـ دار حديث العالمة : تنسب إلى الشيخة العالمة أم اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلي(٦٥٣هـ/١٢٥٥م)[٣] كانت إمرأة فاضلة صالحة ذات علم ، ولها فيه مصنفات[٤]، يقول ابن كثير: «هي التي أرشدت ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب إلى وقف المدرسة الصاحبية بقاسيون على الحنابلة»[٥] ، ومن المحدثين الذين تولوا مشيختها المحدث محمد بن عبد المنعم بن عمار بن هامل شمس الدين الحراني(٦٧١هـ/١٢٧٢م) عني بالحديث وأخذ عن كبار الشيوخ[٦] .

٧ـ دار الحديث الشقيشقية : تنسب إلى المحدث نجيب الدين نصر الله بن أبي العز مظفر بن عقيل الشيباني الدمشقي(٦٥٦هـ/١٢٥٨م)[٧] وهي داره أوقفها على أهل الحديث[٨]ولم تذكر المصادر من ولي مشيختها[٩]، لكن الذهبي يذكر أن الشيخ عبد الله بن يحيى الغساني الجزائري(٦٨٢هـ/١٢٨٣م)وهو من المحدثين ومن كبار الطلبة،مات بهذه الدار[١٠]،ولعلنا نستدل بهذه الإشارة إلى أن الشيخ كان يقرئ الحديث بها.

---

[١] النعيمي : الدارس ج٢ ص(٩٥،٩٦)

[٢] الذهبي : المعجم المختص ص(٢٣٩،٢٤٠) ، النعيمي : الدارس ج٢ ص٩٦

[٣] النعيمي : الدارس ج٢ ص١١ ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٤٠

[٤] النعيمي : الدارس ج٢ ص١١ ، ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص١٤٠

[٥] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٨٢

[٦] الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ ص٥ ، النعيمي : الدارس ج٤ ص(١١٢،١١٣)

[٧] النعيمي : الدارس ج١ ص٨٠ ، وهو النجيب أبو الفتح ، نصر الله بن أبي العز بن أبي طالب ، عقيل بن علي بن الحسين بن علي الشيباني الدمشقي ، حدث عن حنبل بن عبد الله وابي اليمن الكندي وغيره ، وكان له معرفة بشيوخ دمشق ومروياتهم مع فضل وادب ، ابن ناصر الدمشقي : محمد بن عبد الله بن محمد القيسي ، توضيح المشتبه ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ١٤١٤هـ ، تحقيق : محمد نعيم العرقسوسي ج٩ ص٣٠٧ ، رماه ابو شامة بالكذب ورقة الدين ، ذيل الروضتين ص٢٠١

[٨] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٢٣١ ، ابن ناصر الدمشقي : توضيح المشتبه ج٦ ص٣٠٧ ، البدر العيني : عقد الجمان ج١ ص١٩٣

[٩] النعيمي : الدارس ج١ ص٨١

[١٠] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص(١٤٦،١٤٨)

٨ـ دار الحديث الناصرية :

تنسب إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) [١] وقد ضم إليها رباطا [٢] ، وأنشئت هذه الدار في أواخر العصر الأيوبي وحكمهم في دمشق ولم يبرز نشاطها العلمي إلا خلال العصر المملوكي حيث تعاقب على مشيختها عدد من كبار رجال الحديث في ذلك العصر[٣] .

---

(١) ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص(١٤٧،١٤٦)

(٢) نفسه ج١ ص١٤٦

(٣) نفسه ج١ ص (١٥١،١٤٨)

المبحث الخامس : المدارس :

تذكر المصادر أن أول مدرسة أقيمت بدمشق هي المدرسة الصادرية التي للأحناف، أنشأها شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة (٤٩١هـ/١٢٦٠م) [١] ويذكر النعيمي أن أول مدرسة أنشئت للشافعية هي المدرسة الأمينية أنشأها أمين الدولة كمشتكين سنة (٥١٤هـ/١١٢٠م)[٢] وبهذا يمكن القول أن دمشق قد سبقت بغداد في إنشاء مدارسها النظامية [٣] بنحو من ستين سنة وسبقت مصر بمائة وستة وستين سنة .[٤]

وتزايد عدد المدارس الفقهية بدمشق خلال عصر السلطان نور الدين محمود و السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى أكثر من ثلاثين مدرسة [٥] حتى غدت في القرن السابع الهجري أكثر من تسعين مدرسة[٦].

وقد أدى الوقف دورا واضحا في بناء المدارس والانفاق عليها ، فكان منشئوها من السلاطين والوزراء والعلماء والأعيان يحبسون عليها الأوقاف لتصرف عليها وعلى عمارتها [٧]

---

[١] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة (دمشق) ص٢٠٠ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٥٣٧ ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص٩٤ ، الأربلي : مدارس دمشق وربطها وجوامعها ص١٢ ، بدارن : منادمة الأطلال ص(١٧٨،١٧٩) .

[٢] الدارس ص(١٧٧،١٧٨،١٧٩)

[٣] يذكر ابن خلكان أن نظام الملك السلجوقي هو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس وهذا ينقضه قول السبكي (وشيخنا الذهبي زعم أنه أول من بنى المدارس وليس كذلك ، فقد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك، كما كانت بها المدرسة السعيدية ، مدرسة ثالثة بناها ابو سعد اسماعيل بن علي بن المثنى الاستراباذي الواعظ الصوفي ، ومدرسة رابعة بنيت لأبي اسحاق الأسفرايين) : وفيات الأعيان ج٢ ص١٢٩ ، طبقات الشافعيه الكبرى ج٤ ص٣١٤ .

[٤] النعيمي : دور القرآن في دمشق ، صححه المنجد ج٧ ص٨ ، العلبي : خطط دمشق ص٥٢

[٥] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة (دمشق) ص(١٩٩،٢٠١) ، النعيمي : الدارس ج١ ص(١٢٩،١٥٠،١٥٣،١٥٨،٢١٦،٢٥٣)

[٦] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة (دمشق) ص(٢٠٣،٢٢٥،٥١) النعيمي : الدارس ج١ ص(١٥٨،٢١٦،٢٥٣) ، الذهبي : تاريخ الإسلام ، حوادث (٥٩١،٦٠٠) ص١١

[٧] أبو شامة الروضتين ج١ ص٣٠٩ ، النعيمي : الدارس ج١ ص(٥٢،١٦٦) ، بدارن : منادمة الأطلال ص٩٠

ومما يلاحظ من طبيعة بعض المدارس الموقوفة بدمشق أنها تكــــون فـــي الأصل دارا للواقف يسكنها ثم يوقفها مدرسة بعد موته أو في حياته ، [١] وهذا يدل على أن بعض المدارس التي هي في الأصل دارا للسكن لم تكــن تشــتمل علـــى عناصر المدرسة الرئيسية ، ولهذا كان بعض الواقفين يقـــوم بتطويرهـــا وزيـــادة مبانيها ومرافقها [٢] ، ولعل تحديد عدد الطـــلاب بعشـــرين طالبـــا فـــي أغلـــب المدارس،[٣] يدل على أمرين :

أحدهما : هو صغر مساحة المدرسة،إذ أنه لا يمكن أن تستوعب أكثر من هذا العدد

الثاني : أن الواقف يرى أن الوقف الذي جعل لهذه المدرسة لا يفي إلا بحاجة هـذا العدد ، وما يحتاج إليه من مرافق المدرسة وهيئتها الإدارية والتعليمية [٤] .

على أن هناك بعض المدارس قد وصفت بفخامة البنـــاء وجودتـــه وكـــثرة المرافق والأوقاف،[٥] فهذا ابن جبير يصف لنا المدرسة النورية فيقول:((وهي مـــن أحسن مدارس الدنيا منظرا ، وهي قصر من القصور الأنيقة ، ينصب فيها المـــاء في شاذروان ، وسط نهر عظيم ، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع فـــي صهريج كبير وسط الدار ...))[٦] ويذكر أبو شامة عـــن بنـــاء الســـلطان العـــادل للمدرسة العادلية قوله : ((...وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له فـــي بنيان المدارس))[٧].

والمدرسة الناصرية التي بالصالحية ذات الحائط الهائل والعمـــارة المتينـــة التي قيل انه لا يوجد مثلها إلا قليلا . [٨]

---

[١] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٤٧٤،٦٠٤،٦٠٥) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٩٢

[٢] النعيمي : الدارس ج١ ص(١٥٩،٢٠٥،٢٧٨،٣٠١،٤٦٩) .

[٣] النعيمي : الدارس ج١ ص٣٦٨ ، تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص(١١٩،١٢٠)

[٤] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص(١١٩،١٢٠)

[٥] النعيمي : الدارس ج١ ص٣٥٩

[٦] الرحلة ص٢٥٦

[٧] الروضتين ج١ ص٥٤٥ ، الذهبي : تاريخ الإسلام (٥٦٠،٥٧٠) ص٤٧

[٨] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص(٧٠،٧١)

وكانت المدرسة الدمشقية تجتمع فيها عناصر المدرســـة الرئيســية والتـــي تشترك مع عناصر المدرسة الإسلامية الأربعة بوجه عام ، وهي بيت الصـــلاة ، والبهو ومساكن الطلاب والقاعات والإيوانات ثم تربة الواقف ،[١] وإن كانت تربــة الواقف قد غابت عن كثير من المدارس الدمشقية .

وتعتبر المدرسة العمرية نموذجا لتخطيط المدرسة الدمشقية ، فكانت تشتمل على الحرم ، والصحن المكشوف ، ويدور حول هذا الصحن ثلاثة طوابــق مــن الخلاوي ، منها الدنيا والوسطى والعليا ، وبيت الصلاة والمئذنة ، وكان في طابقها السفلى إيوان الأحناف وإيوان السبع ومقصورة القراءة الليلية وبجانبــها خزائــن المصاحف،[٢] وكان ضمن مرافقها خزانة الكتب[٣] وتشتمل أيضا علـــى المطبــخ وبيت الخلاء والبئر والميضأة [٤] .

وتشترك معها في أكثر هذه العناصر بقيــة المــدارس بدمشــق ،[٥] إلا أن بعض المدارس قد تكون من طابق واحد أو طابقين كما في المدرســة الشــبلية،[٦] والصادرية ، حيث خصص منها الدور العلوي خلاوي للدرس والطلاب .[٧]

وتمتعت المدرسة الدمشقية بنظام إداري وتعليمـــي دقيــق ، ضمــن لــها الاستمرار في أداء دورها ووظيفتها العلمية .

---

[١] أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها في العصر الأيوبي ص(١١٨،١١٩،١٢٠،١٢١)

[٢] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص(٢٧١،٢٧٢،٢٧٣)

[٣] نفسه ج١ ص(٢٧٣،٢٧٤)

[٤] نفسه ج١ ص(٢٧١،٢٧٢)

[٥] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص (١٠٩،٢٠٧) ، تاج الدين السـبكي ج٨ ص٣٩٧ ، ابـن طولـون : القلائد الجوهرية ج١ ص(١٨٨،١٨٩،٢٠٣،٢٠٤،٢٠٦،٢١٢،٢١٣،٢١٥،٢٤٦) ، جان سـوفاجيه : الآثـار التاريخية في دمشق ص (٧٠،٧١،٧٢،٧٤،٧٩،١١٦،١٢٥) ، أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارســها ج٢ ص (١٠٣،١٠٤،١٠٥،١٠٦،١٠٩،١١٠) ، كــامل حيــدر : العمــارة العربيـــة الإســلامية ص(١٠٢،١٠٣،١٠٥،١٠٦)

[٦] ابن طولون : القلائد الجوهرية ج١ ص(٢٠٣،٢٠٤)

[٧] نفسه ج١ ص٢٤٦

أ ـ الهيئة الإدارية للمدرسة الدمشقية :

تتمثل الهيئة الإدارية في المدرسة الدمشقية في ناظر الوقف ، والإمام ، والقيم ، والمؤذن ، والبواب ، وخازن المكتبة ويمكن أن نلقي الضوء عليها من خلال نص وقفية المدرسة الشامية الجوانية التي تعتبر مثالا جيدا لإظهار دور الهيئة الإدارية للمدرسة وأهميتها .

أولا : **ناظر الوقف** : وعليه مهمات كان عليه الالتزام بها وتنفيذها ، ومن ذلك :

ـ أن يقوم بعمارة المدرسة وشراء ما لزمها من الزيت والمصابيح والحصر والسبط والقناديل والشموع ما تدعو الحاجة إليه .

ـ ويلزمه صرف معاليم المدرسين ، والفقهاء (الطلاب) والقيم والمؤذن للمدرس في كل شهر غرارة حنطة ، وغرارة شعير ،[١] ومائة وثلاثون درهما فضية ناصرية ،[٢] وللفقهاء(الطلاب) والقيم والمؤذن حسب ما يراه الناظر ، إن شاء زادهم وإن شاء أنقصهم .

ـ وعليه أن يصرف من مغل الوقف ثمانمائة درهم فضية ناصرية كل سنة ، على بطيخ ومشمش وحلوى في ليلة النصف من شعبان .

ـ وللناظر مغل الوقف مقابل تعبه وخدمته ومشارفته للأملاك الموقوفة وتردده إليها وقيامه به [٣] .

ومن أشهر من تولى نظر أوقاف المدارس الدمشقية ، موفق الدين الخوي ، كان ناظر المدرسة الدماغية ،[٤] ومنهم الشيخ المحدث تقي الدين ابن الصلاح ، تولى نظر المدرسة الرواحية ،[٥] وتولى بشارة بن عبد الله الأرمني الكاتب (٦٥٥هـ/١٢٥٧م) نظر المدرسة الشبلية البرانية وجعلت بعده في ذريته .[٦]

---

[١] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١٦

[٢] النعيمي : الدارس ج١ ص٣٠٢

[٣] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١٩

[٤] النعيمي : الدارس ج١ ص٢٣٧

[٥] النعيمي : الدارس ج١ ص٢٦٦

[٦] نفسه ج١ ص٥٣١

ثانيا : الإمام : ومهمته إمامة الناس في محراب المدرسة ،[١] وتولى هذه المهمة عدد من الأئمة في بعض المدارس الدمشقية منهم الفقيه جمال الدين النابلسي (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) إمام المدرسة الحسامية [٢] ومنهم الفقيه محمود بن عبيد الله بن أحمد الزنجاري الشافعي الصوفي (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) كان إمام المدرسة التقوية وكان يقضي معظم نهاره بها ، ثم ينام في الخانقاه السيمساطية .[٣]

ثالثا : **المؤذن** : « وعليه معرفة الوقت ، وإبلاغ الصوت »[٤]

رابعا : **القيم** :وهو من يقوم بكنس المدرسة ورشها وفرشها وتنظيفها وإيقاد المصابيح.[٥]

خامسا : **خازن المكتبة** :ألحق ببعض المدارس خزائن للكتب ، وكان لتلك الخزائن عدد من الموظفين الذين يقومون بشئونها ومنهم الخازن[٦] وهو يعد من الهيئة الإدارية بالمدرسة ، وعمله الإشراف الكامل على خزانة الكتب .

وكان شرط الواقف فيمن يتولى الوظائف أن يكون من أهل الخير والعفاف والسنة ، وغير منتسبين إلى أهل الشر والبدعة [٧].

سادسا : البواب : دخلت هذه الوظيفة ضمن شرط المدرسة العادلية الصغرى ، فقد شرط واقف المدرسة لها(مدرسا ومعيدا وإماما وبوابا وقيما وعشرين فقيها[٨].

ومن الوظائف التي استحدثها الملك المعظم عيسى لتقوم بشئون المدارس التي تحت إشراف الدولة ديوان يسمى(ديوان المدارس)[٩] ومهمته الإشراف على أوقاف المدارس والإنفاق على إصلاح المباني واختيار المدرسين وإعانة الطلاب[١٠] .

---

[١] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١٩

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٠٩

[٣] اليونيني :ذيل مرآة الزمان ج٣ ص١٦١ ، تاج الدين السبكي :طبقات الشافعية الكبرىج٨ ص(٢٧٠،٢٧١)

[٤] تاج الدين السبكي : معيد النعم ص١١٥

[٥] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١٩

[٦] نفسه ج٢ ص١١٩

[٧] نفسه ج٢ ص١١٩

[٨] النعيمي : الدارس ج١ ص٣٦٨

[٩] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٢٦

[١٠] عبد المنعم هويدي : مظاهر النهضة العلمية في مصر في القرنين السادس والسابع ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز ، السنة الثانية ١٣٩٦/١٣٩٧ العدد الثاني ص(٤٣١،٤٤٨) .

(ب) الهيئة التعليمية :

تتمثل الهيئة التعليمية في :

١ــ المدرسون .

٢ــ المعيدون .

٣ــ الفقهاء (الطلاب) .

أولا : المدرس :

هو من يتصدى لتدريس العلوم الشرعية ، من التفسير والحديث والفقه والنحو وغيرها من العلوم .[١]

ولقد عني منشئو المدارس وواقفوها من السلاطين والعلماء والأمراء والأعيان على اختيار أشهر العلماء ليقوموا بالتدريس في مدارسهم ،[٢] وكان أرباب الوقف يضعون شروطا في شيخ المدرسة ،[٣] حسب رغبات وأهداف يريدون تحقيقها في مدارسهم [٤] فكان من شروطهم العامة أن يكون المدرس من أهل الخير والعفاف ، سليم الاعتقاد ، ومن أهل السنة ولا ينسب إلى أهل شر وبدعة . [٥]

وكان بعض الواقفين يشترط في مدرس مدرسته أن يكون أعلم أهل زمنه في مذهبه ، فقد شرط واقف المدرسة القضاعية أن يكون المدرس بمدرسته أعلم الحنفية بالأصول ،[٦] وزاد بعض الواقفين شرط التدريس من بعده في ذريته إذا

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ص٤٣٦

[٢] النباهين : علي سالم ، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر ، الطبعة الأولى ، دار الفكر العربي ١٩٨١م ص٢٩٨

[٣] كان لقب (المدرس) و (الشيخ) يطلقان على من يتولى أعلى منصب تعليمي ، فإذا استعمل لفظ المدرس بدون إضافة يعني مدرس الفقه ، بينما كان لقب (الشيخ) يطلق بصفة عامة على المدرسين في جميع الحقول الأخرى من علوم القرآن ، والحديث ، والنحو ، والأدب ، والتصوف ، والطب ، تاج الدين السبكي : معيد النعم ص(١٠٥،١٠٦،١٠٧) ، مقديسي : جورج ، نشأة الكليات ومعاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، مركز النشر العلمي بجامعة الملك عبد العزيز ، جده ، ترجمة : محمود سيد محمد ، مراجعة وتعليق : محمد علي حبشي وعبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان ص١٧٥ .

[٤] تاج الدين السبكي : معيد النعم ص(١٠٥،١٠٦،١٠٧)

[٥] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١١٩

[٦] النعيمي : الدارس ج١ ص٥٦٥

كان ذو أهلية في ذلك[1]، كما شرط واقف المدرسة الباذرائية ألا يجمع بين التدريس بمدرسته وبين غيرها من المدارس ،[2]وكذا شرط المدرسة الشامية البرائية، [3] لكن بعض الواقفين لم يشترط ذلك ، فقد جمع بعض العلماء في التدريس بين أكثر من مدرسته ، فكان الشيخ مسعود النيسابوري (٥٧٨هـ/١١٩١م) يجمع بين التدريس بالزاوية الغزالية بالجامع الأموي وبين التدريس بالمدرسة المجاهدية،[4] وكان الشيخ عيسى القرافي الضرير (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) نزيل دمشق يدرس بالكلاسة بالجامع وله درس بالمدرسة الأمينية [5]، كما جمع الفقيه عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل الجيلي (٦٤١هـ/١٢٤٣م) بين التدريس في المدرسة العذراوية والفلكية،[6] وممن جمع بين التدريس ايضا القاضي بهاء الدين يوسف بن يحيى بن محمد القرشي الدمشقي (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) جمع بين المدرسة العزيزية والتقوية والفلكية والعادلية والمجاهدية [7]، وكان بعضهم يتخذ من ينوب عنه في التدريس ،[8] فكان للشيخ عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) درس بالمدرسة الصلاحية بالقدس ودرس بالنورية والجارخية بدمشق ، فكان يقيم بالقدس اشهرا ، وبدمشق أشهرا ، ويستنيب من يقوم مقامه بالتدريس في حين غيابه،[9] واختلف العلماء في جواز ذلك ؛ فقد ذكر السبكي أن جماعة من العلماء أفتوا بجوازه إذا استناب مكانه من يقوم بالتدريس في حين غيابه .[10]

---

[1] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص(٣٠٠،٣٠١) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٢٨٨ ، النعيمي : الدارس ج١ ص(٤٠١،٤٥٦)

[2] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (٧٠،٧١،٧٢،٧٣)

[3] ابو شامة : ذيل الروضتين ص(٢٠٥،٢٠٦) ، النعيمي : الدارس ج١ ص٢٧٩

[4] ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص٣٣٤

[5] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص٣٤٥

[6] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص٨٥٤

[7] ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٢ ص٢٠٦

[8] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص١٨٦

[9] نفسه ج٨ ص١٧٩

[10] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص(١٩١،١٨٢،١٨٣)

كما درس بالنيابة الشيخ عبد الكريم بن محمد بن أبي الفضل الحرستاني (٥٦١هـ/١١٦٥م) عن الشيخ عبد الرحمن بن ابي عصرون (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) في المدرسة الأمينية ، [١] ودرس نيابة في هذه المدرسة شمس الدين الأحمدي عن الشيخ بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن الزاري السنجاري (٦٦٣هـ/١٦٦٤م) [٢] ثم تولى بعده محمد بن أحمد بن يحيى بن هبة الله الملقب بسني الدولة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) وليها نيابة عن الشيخ بدر الدين يوسف بن الحسن الزراري السنجاري (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) [٣] ، ثم تولى التدريس بها نيابة عن عدد من كبار العلماء بعد ذلك [٤] .

وذكر ابن شداد أن الإمام برهان الدين مسعود بن شجاع بن محمد القرشي الدمشقي (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) تولى المدرسة النورية الكبرى إلى أن توفي ثم ولي التدريس بعده أولاده ، وكان ينوب عنه داود بن أرسلان الحنفي الدمشقي (٦٣٩هـ/١٢٤١م) [٥] .

كما كان يتولى التدريس ببعض المدارس شيخان يتناوبان بالمشاركة هذا يوم وهذا يوم ، [٦] فقد تولي الشيخ محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق بن مقلد (٦٨٣هـ/١٢٨٤م) مشاركا للشيخ شمس الدين ابن المقدسي في تدريس المدرسة الشامية البرانية [٧] .

ولم تحدد المصادر عمرا محددا ينبغي أن يتولى المدرس التدريس فيه ، إلا أن القاضي يحيى بن هبة الله بن الحسن الدمشقي (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) تولى

---

[١] نفسه ج٧ ص١٨٦

[٢] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٣١ ، النعيمي : الدارس ج١ ص١٧٩

[٣] ابن شداد:الأعلاق الخطيرة ص٢٣١ ،النعيمي : الدارس ج١ص١٧٩ ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص٣٣

[٤] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٣١ ، النعيمي : الدارس ج١ص(١٨٠،١٨٩،١٩٠،١٩١،٣٨٩) .

[٥] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص(٢٠٣،٢٠٤) ، الذهبي : العبر ج٣ ص١٢٣ ، النعيمي : الدارس ج١ ص (٥١٣،٥١٤) ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص١١٣

[٦] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص(٤٩،٥٠) .

[٧] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص٨٤

التدريس بالمدرسة الإقبالية والجاروخية وكان عمره خمسا وعشرين سنة ،[١] وتصدر لتدريس القاضي محمد بن الحسين بن رزين بن موسى بن البركاتي العامري (٦٨٠هـ/١٢٨١م) وعمره ثماني عشرة سنة [٢] كما تولى الفقيه النحوي محمد بن أحمد بن الخليل بن سعادة الخوي (٦٩٣هـ/١٢٩٣م) تدريس المدرسة الدماغية شابا [٣] .

وكان بعض المدرسين يسكنون داخل المدارس التي تضم أماكن لسكن المدرسين والطلاب ، حيث كان العماد الأصفهاني يقيم بالمدرسة العمادية ،[٤] وكان الشيخ تقي الدين ابن الصلاح مقيما في المدرسة الرواحية ، وكان الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن عساكر الدمشقي (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) يسكن في القاعة الأولى من المدرسة الجاروخية[٥].

كما أن الفقيه المقرئ علي بن حديد بن عبيد السبني المصري كان يسكن المدرسة الأمينية [٦] وقد ذكر النعيمي أن من شرط المدرسة الركنيه البرانية وهي للأحناف أن يقيم شيخ المدرسة بها [٧].

وكان بعض العلماء لا يأخذ من رواتب المدرسة شيئا تنزها عنها ، ويتولى التدريس احتسابا ، فهذا القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر لا يأخذ من معلوم المدرسة شيئا ، بل يجعله لمن يرد عليه من الطلبة ،[٨] وكان الشيخ يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) يتولى مشيخة دار الحديث الأشرفية ولا يتناول من معلومها شيئا بل يقنع بالقليل الذي يبعث به إليه والده [٩] .

---

[١] الذهبي : العبر ج٣ ص٢٨٩ ، النعيمي : الدارس ج١ ص١٦٠

[٢] الداوودي : طبقات المفسرين ج٢ ص١٣٨

[٣] ابن قاضي شهبة : أحمد بن محمد بن عمر ، طبقات النحاة واللغويين ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، تحقيق :محمد عياص ص٣٧

[٤] النعيمي : الدارس ج١ ص٤١١

[٥] أبوشامة : ذيل الروضتين ص١٣٧

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٠٩

[٧] الدارس ج١ ص٥٢

[٨] النعيمي : الدارس ج١ ص١٠٣

[٩] الذهبي : العبر ج٣ ص٣٣٤

أما الشيخ عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) فقد انقطع عن التدريس بالمدارس ولم يكن يأخذ من رواتبها شيئا واشتغل بزراعة أرضه ، وعوتب على تركه التدريس بالمدارس ، فكتب قصيدة طويلة تبين سبب ذلك ، منها:

أيها العاذل إن تحرى ... قال خيرا ونال بالنصح أجرا
لا تلمني على الفلاحة واعلم ... أنها من أحل كسب وأثرى
كيف لا ألزم الفلاحة باقي ... عمري لا زال حصدا وبذرا
وبها صنت ماء وجهي عن الناس ... جميعا وعشت في القوم حرا
إذ بها صار منزلي ذا غلال ... مع عيال من بعد ما كان قفرا
ولكم واقف بابي يعطي ... صدقات من المغل وبرا
كم فقير وكم يتيم وكم ... أرملة نال من نصيبي وفرا
كل ذا فيه أجر جاء ... أحاديث بهذا الذي الأئمة تقرا
اتخذ حرفة تعيش بها ... يا طالب العلم إن للعلم ذكرا
لا تهنه بالاتكال على الوقف ... فيمضي الزمان ذلا وعسرا [١]

ثانيا : **المعيد** : هو من يعيد الدرس على الطلبة بعد انصراف المدرس ، ليفهموه ويحسنوه ،[٢] وهو يلي المدرس ونائبه في الرتبة ،[٣] وكان شرطهم في المعيد أن يكون من الصلحاء والفضلاء صبورا على أخلاق الطلبة ، حريصا على فائدتهم ، وانتفاعهم به ، قائما بوظيفته ،[٤] وذكر ابن جماعة واجبات المعيد بقوله:((وينبغي للمعيد بالمدرسة أن يقوم بأشغال أهلها على غيرهم في الوقت المعتاد أو المشروط، إن كان يتناول معلوم الإعادة لأنه معين عليه ما دام معيدا .. وأن يعلم المدرس أوالناظر بمن يرجى فلاحه ليزاد ما يستعين به ويشرح صدره وأن يطالبهم بعرض

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٢٢

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ص٤٣٦ ، تاج الدين السبكي : معيد النعم ص١٠٨

[٣] القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ص٤٣٦ ، جورج مقدسي : نشأة الكليات ص(٢١٦،٢١٧)

[٤] ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم ص٢٠١

محفوظاتهم إن لم يعين لذلك غيره، ويعيد لهم ما توقف فهمه عليهم من دروس المدرس»[١].

وكان نظام الإعادة من النظم التي أصبحت ذات مكانة في العصر الأيوبي،[٢] وقل أن تخلو منه مدرسة من المدارس الدمشقية ؛[٣] فكان الواقف ينص على وظيفة المعيد وما يصرف له من الرواتب ضمن كتاب الوقف [٤] .

وكان لا يتولى الإعادة بالمدارس إلا العلماء والأفاضل من الطلبة الذين كثر نشاطهم في العلم ؛ فقد باشر الإعادة محمد اللخمي الدمشقي الخرقي للشيخ عبد الرحمن بن علي بن المسلم بن الحسين اللخمي السلمي الدمشقي (٥٨٧هـ/١١٩١م) ،[٥] وأعاد له ايضا بالمدرسة الأمينية الفقيه علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد الكلابي الفرضي النحوي (٥٦٥هـ/١١٦٦م) ،[٦] وباشر الإعادة بالمدرسة الأمينية كذلك الفقيه وهب بن سليمان بن أحمد بن علي السلمي الدمشقي (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)[٧] ، والفقيه عبد الواحد بن إسماعيل بن ظافر الديماطي ، [٨] وتولى الإعادة بالمدرسة الرواحية الفقيه كمال الدين إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي المقدسي (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) ، عن الشيخ تقي الدين أبو عمر عثمان بن الصلاح ،[٩] وأقام في الإعادة عشرين سنة وكان يسكن داخل المدرسة ، وقد أخذ عنه جماعة من كبار العلماء منهم الشيخ محي الدين يحيى بن شرف النووي ،

---

[١] ابن جماعة : تذكرة السامع ص٢٠٤

[٢] شلبي : أحمد ، تاريخ التربية الإسلامية ، الطبعة السادسة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨م ، ص٢٥٧ ، عبد الجليل عبد المهدي : المدارس في بيت المقدس ص١٢٠

[٣] أحمد شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص٢٥٧

[٤] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ص(١١٩،١٢٠) ، النعيمي : الدارس ج١ ص٣٦٨

[٥] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص٧١٩ ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص١٥٤

[٦] القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص(٢٤١،٢٤٢) ، تاج السبكي : طبقات الشافعيية الكبرى ج٧ص٢١٤

[٧] المنذري : التكملة ج٢ ص١٨٤

[٨] نفسه : ج٢ ص٣٦٤

[٩] تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص(١٢٦،١٢٧)

ذكره في أوائل شيوخه ،[١] وباشر الإعادة بالمدرسة العادلية والشـامية البرائيـة الفقيه شرف الدين القزويني (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) ، وكان يسكن داخـل المدرسـة ومعه أهله ،[٢] وتولى الإعادة بالمدرسة الجوزية الفقيه محمد بن عبد الوهاب بـن منصور الحراني (٦٧٠هـ/١٢٧١م) وله حلقة يدرس بـها الفقـه فـي الجـامع الأموي[٣] .

وقد يكون للمدرسة الواحدة معيدان أو أكثر حسب شرط الواقف ، ذلك أنـه كان للمدرسة الباذرائية معيدان توليا منذ افتتاحها ،[٤] وهما : كمال الدين سـلار بن حسن بن عمر بن سعيد الأربلي (٦٧٠هـ/١٢٧١م) ،[٥] والثاني : نجم الديـن الموقاني ،[٦] وقد يجمع بعض المعيدين بين الإعادة والتدريـس أو بيـن الإعـادة والنيابة في التدريس بالمدارس[٧] .

ثالثا : **فقهاء المدارس (الطلاب)** :

كان يطلق على الطلاب بالمدارس اسم (الفقهاء) ،[٨] وقد جاء لفظ الفقـهاء والمتفقه في كثير من كتب وقفيات المدارس ،[٩] وكلا اللفظيـن لـهما مدلولـهما الاصطلاحي ، وقد ناقش احد الباحثين الفرق بين معنى المتفقه والفقيه ، وبيـن أن

---

[١] الأسنوي : طبقات الشافعية ص٤٩

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٣٣٩

[٣] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٤ ص(٢٨٧،٢٨٨) .

[٤] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص٧١

[٥] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٢٧٧ ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية ج٨ ص١٤٩

[٦] اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٧ ص٢٧٧

[٧] ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج٢ص(٢٨٨،٤٨٧) ، عبد الجليل عبد المهدي : المؤسسـات التعليميـة والثقافية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي (مقالة) ، مجلة المجمع الملكـي لبحـوث الحضـارة الإسلامية ج٢ ص٥٥٦

[٨] تقي الدين السبكي : معيد النعم ص(١٠٨،١٠٩) ، عبد الجليل عبد المهدي : المؤسسات التعليمية والثقافيـة في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي ، مجلة المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ج٢ ص٥٥٨

[٩] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص(١١٩،١٢٠) ، النعيمي : الدارس ص(٢٦١،٢٧٩،٣٦٨،٣٩٩) بدران : منادمة الأطلال ص(١١١،٢١٢،٢١٣) .

هذا الاصطلاح يشمل مستويات الدراسة داخل المدرسة وهم المبتدئون والمتوسطون والمنتهون ثم حدد المعنى الاصطلاحي للفقيه والمتفقه ، وأن المتفقه هم طلاب الفقه حتى المرحلة النهائية ، والفقيه يطلق على طالب الفقه فيما بعد المرحلة النهائية وحتى حصوله على إجازة التدريس والافتاء .[١]

وقد فرق السبكي بين الفئتين كما جاء في كتاب وقف المدرسة الشامية الجوانية ، فقال : « وأن لا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهين المشتغلين بهذه المدرسة عن عشرين رجلا ، من جملتهم المعيد بها والامام »[٢] ، فاعتبر المعيد والإمام من جملة الفقهاء [٣] .

ولعب أرباب الوقف دورا كبيرا في تحديد عدد الطلاب في كل مدرسة فكانت تتباين أعداد الطلاب من مدرسة إلى أخرى وذلك حسب حجم الوقف ومغله، فقد حدد كتاب وقف المدرسة العصرونية ألا يزيد عدد فقهائها على عشرين فقيها ، [٤] وكان شرط وقف المدرسة العادلية الصغرى أن يكون عددهم عشرين فقيها ، [٥] وجاء في كتاب وقف المدرسة الشامية الجوانية « أن لا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهه المشتغلين بهذه المدرسة عن عشرين رجلا ومن جملتهم المعيد بها والإمام » [٦] ، حيث اعتبر المعيد والإمام ضمن الفقهاء والمتفقه في المدرسة ، أي ان عدد الطلاب ثمانية عشر فقيها . [٧]

وللناظر أن يزيد في عدد الفقهاء والمتفقهه حسب نماء الوقف وزيادته ،[٨] يقول تقي الدين السبكي : « وقد تحققت الزيادة فزاد عدد الفقهاء على المائتين »[٩]

---

[١] جورج مقدسي : نشأة الكليات ص(١٩٧،١٩٨)

[٢] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص(١١٩،١٢٠)

[٣] جورج مقدسي : نشأة الكليات ص١٩٨

[٤] النعيمي : الدارس ج١ص٤٠١

[٥] نفسه ج١ ص٣٦٨

[٦] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص(١١٩،١٢٠)

[٧] جورج مقدسي : نشأة الكليات ص(١٩٧،١٩٨)

[٨] تقي الدين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١٢٠

[٩] نفسه ج٢ ص١٢٠

أما عن شرط المدرسة الإقبالية فإنه لم يحدد نصا عدد الطلاب بها وإنما قال : «ورتب فيها خمسة وعشرين فقيها » [١] .

وذكر العماد الأصفهاني أن السلطان صلاح الدين كتب إلى صفي الدين بن القابض أن يصرف على فقهاء المدارس بدمشق خمسة آلاف دينار مصرية ، قال العماد : « فسمعت من الصفي بن القابض يقول : أحصيت فقهاء المدارس فكانوا ستمائة فقيه » [٢] .

ومما يدل على كثرة الطلاب في بعض المدارس ما ذكره ابن طولون أن المدرسة العمرية كان بها ثلاثمائة وستون خلوة هي ضمن مرافق الطلاب بالمدرسة [٣] .

وكانت بعض المدارس الدمشقية تضم مساكن خاصة بالطلاب يقطنها الغرباء والوافدون على دمشق من طلبة العلم ، أشار إلى ذلك ابن جبير : « أن كل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه كان السلطان يضع لها أوقافا تقوم بساكنيها والمشتغلين » [٤] ، ولهذا كان بعض الواقفين يشترطون على الطلاب الإقامة في المدرسة وذلك بهدف الانقطاع لطلب العلم والاشتغال به ، حيث شرط واقف المدرسة الباذرائية « أن يقيم الفقيه بالمدرسة وأن يكون أعزبا ولا يكون في غيرها من المدارس » [٥] ، وكان هدفه من ذلك هو صرف جهد الطالب إلى طلب العلم والاشتغال والتحصيل ، [٦] وقد حدث بسبب هذا الشرط خلل كبير في تحصيل الطلاب ، حيث نبه ابن كثير إلى أن الواقف لو استشعر أن الطلاب لا يصدهم صاد ولا يردهم راد في تحصيل العلم لما ألجأهم إلى ذلك . [٧]

---

[١] النعيمي : الدارس ج١ ص(١٥٩،١٦٠)

[٢] ابن ابي الدم : التاريخ المظفري ، ورقة ص٥٣٢ (أ – ب)

[٣] القلائد الجوهرية ص٢٤٨

[٤] الرحلة ص٢٤٨

[٥] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص٢٠٩

[٦] نفسه ج٧ ص٢٠٩

[٧] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص(٨٧٠،٨٧١)

أساليب التدريس وطرقها بالمدرسة الدمشقية :

لقد كان شرط الواقف في بعض المدارس له أثر واضح في تحديد الكتب المنهجية وطرق التدريس ونظام المدرسة الداخلي ، ولهذا كان هناك نوع من الاختلاف في مناهج التدريس وطرقها بين المدارس ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما ذكر في شرط وقف المدرسة العصرونية : أن يدرس بها تصانيف الواقف مثل كتاب (الانتصار) ، و(صفوة المذهب في نهاية المطلب) ، وكتاب (المرشد) و (الذريعة في معرفة الشريعة) وكتاب (التيسير) في الخلاف وغيرها ، [١] ويبدو أن هدفه من هذا الشرط نشر مذهبه وكتبه بين الطلاب ، كما ذكر الذهبي : أن واقف المدرسة الرواحية شرط على الفقهاء والمدرس شروطا صعبة لا يمكن القيام ببعضها ، وشرط ألا يدخل مدرسته يهودي ولا نصراني ، وشرط ألا يدخلها حنبلي ، [٢] كما شرط بعضهم على المدرس ألا يجمع بين التدريس بمدرسته وغيرها من المدارس كما ذكر ذلك آنفا ، [٣] كما شرط واقف المدرسة البادرائية على فقهائها (الطلاب) دراسة اللغة العربية . [٤]

وكتب عبد الله بن عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى القرشي (٦١٥هـ/١٢١٨م) نائب الحكم بدمشق كتاب وقف المدرسة الصلاحية بالقدس ، أوضح فيه نظام التدريس بها وأساليبه بقوله : « ... على أن المدرس في كل يوم يباكر في وقت الميعاد إلى الحضور وجميع الجماعة له ، ويبدأوا بقراءة شيء من القرآن ثم يشفعونه بالدعاء ثم يشرع بالدرس مذهبا وخلافا وأصولا ما شاء من العلوم الشرعية ، ثم ينهض كل معيد مع أصحابه فيعيد عليهم ما هو بصدده من المذهب إن كان مذهبا والخلاف إن كان خلافيا وغير ذلك ... » [٥] .

واتبع بعض العلماء في تدريسهم طرقا وأساليب تدريسية طريفة ومشوقة ، فكان بعضهم لا يبدأ تدريس الفقه حتى يذكر قبله درسا في التفسير ، فقد كان

---

[١] النعيمي : الدارس ج١ ص٤٠١

[٢] نفسه ج١ ص٢٦٧

[٣] النعيمي : الدارس ج١ ص٢٠٦

[٤] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص٨٧٠

[٥] تقي الديين السبكي : فتاوى السبكي ج٢ ص١٢٦

الشيخ يونس بن بدارن بن فيروز المصري يدرس الفقه بالمدرسة العادلية ويلقي قبله درسا في التفسير ، وكان يسير على هذه الطريقة حتى أتم تفسير القرآن كاملا[١] .

ووصف بعض المدرسين بحسن إيراده لدرسه وبراعته في إلقائه له ، [٢] وصبره على تعليم الطلبة وتفقيههم ، [٣] ووصف بعضهم بأنه كان ماهرا في العلوم حتى أنه كان يلقي ثلاثين درسا في ثلاثين علما [٤] .

واعتمد الطلاب علي طريقة حفظ الكتب والمتون [٥] وبرعوا في ذلك ، كأن يقال : كان يحفظ (الوسيط) للغزالي و (التنبيه) في الفقه للشيرازي وكان من محفوظاته كتاب (الكافي) وهكذا ، [٦] وكان بعض الطلاب يختار لنفسه كتابا من كتب العلم منهجا ثم يقرأه على أحد الشيوخ حتى يتقنه ويحفظه، [٧] كما أن أسلوب الإلقاء والتلقين والمناقشات العلمية كان سائدا بين العلماء والطلاب داخل المدارس،[٨] يجلس المدرس ويحلق به الفقهاء والطلاب فيذكرون المسائل ويأخذون في طرحها وتفصيلاتها ويشاركه العلماء في بحثها ، فيأخذ الحنفي في الانتصار لقول إمامه ويعارضه الشافعي مدليا بحجة ويشاركهم المالكي والحنبلي وهم على ذلك حتى فراغهم من درسهم . [٩]

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٤٨ ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٢ ص(٩٧،٩٨) ، الأسنوي : طبقات الشافعية ص٣٩٥ .

[٢] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص(٧٩،٨٠)

[٣] ابو شامة : ذيل الروضتين ص٩٠

[٤] السيوطي : بغية الوهاة ج١ ص(٤٧٣،٤٧٤)

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٨٦ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ (١٤٧٠،١٤٧١،١٤٧٢،١٤٧٣) ، العبر ج٣ (٣٤٤،٣٤٥) ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص(١٩٦،١٩٧،١٩٨) .

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٨٦ ، الذهبي : العبر ج٣ ص(٢٤٤،٢٤٥) ، تاريخ الإسلام، حوادث (٦١١،٦٢٠) ، ص (١٧٣،١٨٢) ، الداوودي : طبقات المفسرين ج١ ص(١٣٨،١٣٩) .

[٧] ابن أبي أصيبعة:عيون النباء ص٦٤٦ ، الذهبي:تاريخ الإسلام ، حوادث (٦١١،٦٢٠) ص(٤٥١٣،٤٥٤)

[٨] عفاف صبرة : المدارس في العصر الأيوبي ، ضمن أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية نشرة عبد العظيم رمضان ص١١٩

[٩] بدران : منادمة الأطلال ص١٠٥

المدارس الدمشقية :

وكانت المدارس الفقهية بدمشق تشمل المذاهب الفقيه المنتشره بـــها خـــلال العصر الأيوبي وهي المدارس الخاصة بالشافعية والأحناف والحنابلة ، إضافة إلى وجود بعض المدارس الدمشقية التي تشترك في تدريس مذهبين ، فكـــانت بعــض تلك المدارس تجمع بين تدريس الفقه الشافعي وتدريس الفقه الحنفي . إلى جــــانب مدارس الفقه كانت مدارس الطب تقوم بدور كبير في مجال الدراســـات الطبيـــة ، وظهر من خلالها مدى ازدهار الدراسات الطبية في هذا العصر .

وبذلك يمكن تصنيف المدارس الدمشقية خلال العصر الأيوبي على النحـــو التالي :

أ ــ المدارس الشافعية .

ب ــ المدارس الحنفية .

ج ــ المدارس الحنبلية .

د ــ المدارس المشتركة .

هــ ــ المدارس الطبية .

(أ) المدارس الشافعية :

١ـ المدرسة العادلية (الكبرى) : أول من بنى هذه المدرسة السلطان نور الدين محمود بن زنكي (٥٦٩هـ/١١٧٣م) بناها للشافعية ومات ولم يتم بناها ، وبقيت على هذا الأمر حتى جاء السلطان العادل ابن أبي بكر بن أيوب فبناها مدرسة عظيمة سنة(٦١٢هـ/١٢١٥م)[١] يقول أبو شامة:((.. وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس))[٢]وهي من المدارس ذات المرافق المتعددة، كان العلماء ينزلون بها ويمكثون مدة طويلة لوجود مساكن خاصة بالغرباء الوافدين على دمشق[٣].

ثم أعاد السلطان المعظم عيسى بناء هذه المدرسة سنة(٦١٩هـ/١٢٢٢م) وتم افتتاح المدرسة بشكل رسمي فحضر السلطان المعظم عيسى ومعه العلماء وجلسوا داخل إيوان المدرسة فجلس السلطان وعن يساره مدرس المدرسة وعن يمينه شيخ الأحناف بدمشق جمال الدين الحصيري ، ويليه فخر الدين ابن عساكر شيخ الشافعية والقاضي شمس الدين بن الشيرازي ، ثم محي الدين بن الذكي ، وتحت المدرس سيف الدين الآمدي ثم القاضي شمس الدين ابن سيف الدولة ثم نجم الدين خليل قاضي العسكر ، وقبالة السلطان الحافظ المحدث تقي الدين ابن الصلاح ، ودارت حلقة علم صغيرة ، واجتمع الناس في ذلك اليوم حتى امتلأ الإيوان[٤].

وكان أول من ولي التدريس بها بعد الافتتاح القاضي يونس بن بدران بن فيروز القرشي الشافعي المصري(٦٢٣هـ/١٢٢٦م)[٥]ولاه إياها السلطان المعظم عيسى [٦] .

---

[١] أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٥٤٥ ، تحقيق محمد حلمي ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص٧٥ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٣٦١

[٢] أبو شامة : الروضتين ج٢ ص٥٤٥ تحقيق محمد حلمي

[٣] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٧٩

[٤] الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث ج(٦١١/٦٢٠) ص٥٨

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٤٨

[٦] ابن كثير : البداية والنهاية ص(١٢٣،١٣،١٢٤) ، النعيمي : الدارس ج١ ص٣٦٢

وممن ولي التدريس بها القاضي رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن اسماعيل الجيلي الشافعي (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)[١]وممن ولي مشيختها القاضي كمال الدين عمر بن أبي حفظي بن بندار ابن عمر التفليس(٦٥٣هـ/١٢٥٥م) وليها نيابة [٢]وهي من المدارس التي خصص منها قسم لتدريس القراءات واللغة العربية إلى جانب الفقه[٣] فكان ممن تولى مشيخة النحو واللغة بها أبو محمد القاسم بن أحمد بن موفق بن جعفر اللورقي المرسي (٦٦١هـ/١٢٦٢م)[٤] ومن جملة من كان يقرأ النحو بها العلامة النحوي وشيخ القراءات محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) حيث يذكر ابن الجزري أن ابن مالك لما نزل دمشق بالمدرسة العادلية :((كان يجلس في وظيفة الإقراء بشباك التربة العادلية وينتظر من يحضر يأخذ عنه ، فإذا لم يجد أحدا يقوم إلى الشباك ويقول القراءات القراءات والعربية ثم يدعو ويذهب ويقول أنا لا أرى أن ذمتي تبرأ إلا بهذا فإنه قد لا يعلم أني جالس في هذا المكان لذلك))[٥]، ومن الجدير بالذكر أن أبا شامة المقدسي ذكر أنه جمع كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين) داخل هذه المدرسة المباركة [٦] .

٢- **المدرسة الأمينية** : تنسب إلى أمين الدين كمشتكين (٥٤١هـ/١١٤٦م)[٧] له أوقاف كثيرة سخية [٨] وأشتهر من تولى التدريس بها في العصر الأيوبي الشيخ شرف الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن جمال الإسلام السلمي(٦٠٢هـ/١٢٠٥م) تولها مدة طويلة[٩] .

---

(١) النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٦٣

(٢) نفسه ج١ ص ٣٦٣

(٣) دهمان : المدرسة العادلية الكبرى ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ج١ المجلد التاسع والعشرون (١٣٧٣/١٩٥٤) ص (٥٢،٦٦)

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٤١ ، الذهبي : العبر ج٣ ص ٣٠٣

(٥) غاية النهاية : ص (١٨٠،١٨١)

(٦) الروضتين ج١ ص ٥٤٥ تحقيق محمد حلمي .

(٧) النعيمي : الدارس ج١ ص (١٧٨،١٧٩)

(٨) نفسه : ج١ ص (١٧٨،١٧٩)

(٩) أبو شامة : ذيل الروضتين ج٥٤ ، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص٧٧٦

كما وليـــها العلامـــة قطـــب الديـــن مسـعود بـــن محمـــد النيســـابوري (٥٧٨هـ/١١٨٢م)[١].

وتصدر بها الفقيه علي بن عقيل بن هبة الله بن الحسن بن علـــي الشـــافعي (٦٠١هـ/١٢٠٤م) [٢].

وتصدر بها الفقيه شرف الدين أبو الحسن علي بن محمـــد بـــن علـــي بـــن الشهرزوري (٦٠٢هـ/١٢٠٥م) [٣] ثم درس بها الفقيه عيسى العراقي الضريـــر (٦٠٢هـ/١٢٠٥م) [٤] ثم تولها بعده القاضي جمال الدين يونس بن بـــدران بـــن فيروز بن صاعد القرشي المصري (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) [٥] وممن تولى التدريـــس بها كذلك الفقيه عبد الواحد بن اسماعيل بن ظـــافر الأزدي الدميـــاطي الشـــافعي (٦١٣هـ/١٢١٦م) [٦] كما درس بها الفقيه العلامة أبو الفضل عبد الكريـــم بـــن محمد بن أبي الفضـــل بـــن علـــي الأنصـــاري الخزرجـــي العبـــادي الســـعدي (٦٣١هـ/١٢٣٣م) [٧]وولي مشيختها القاضي عبد العزيز بن عبـــد الواحـــد بـــن اسماعيل بن عبد الهادي الجبلي (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) [٨].

وتصدر للإقراء بها أيضا الشيخ قطب الدين أحمد بن عبد السلام بن المطـــهر بن أبي عصرون (٦٧٥هـ/١٢٧٦م) [٩]وخلفه الشيخ محمد بن أحمد بن يحيى هبة الله بن الحسن بن سيف الدولة (٦٨٠هـ/١٢٨١م).

---

[١] النعيمي : الدارس ج١ ص١٨٤

[٢] نفسه ج١ ص١٨٤

[٣] أبو شامة : ذيل الروضتين ج٥٤ ، المنذري : التكملة ج٢ ص(٨٢،٨٣) ، ابن كثـــير : طبقـــات الفقـــهاء الشافعيين ج٢ ص٧٧٦

[٤] تاج الدين السبكي طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص٣٤٥ ، الأسنوي : طبقات الشافعية ص٤٥

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين ج١٤٨ ، الذهبي : العبر ج٣ ص١٩٣ ، الداوودي : طبقـــات المفســـرين ج١ ص٣٨٤

[٦] المنذري : التكملة ج٢ ص٣٦٤

[٧] نفسه ج٢ ص٤١٦

[٨] النعيمي : الدارس ج١ ص١٨٨

[٩] المنذري : التكملة ج٢ ص٣٦٤

(٣) المدرسة المجاهدية الجوانية :

أوقفها الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بزان بن ياجين (٥٥٥هـ/١١١٠م) أحد الأمراء الأكراد ذوي الوجاهة في الدولة النورية ، وصف بالشجاعة والسماحة وفعل الخير ، وقد أوقف عليها الأوقاف الدارة السخية التي تقوم بكفايتها .[١]

ومن أوائل من درس بها الشيخ علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد الكلابي المقري النحوي (٥٦٢هـ/١١٦٦م)[٢] وتصدر للتدريس بها الشيخ مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري (٥٧٨هـ/١١٨٢م)[٣] وممن تولى التدريس بها أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الحرستاني (٦١٤هـ/١٢١٧م) كانت همته عالية في التدريس في جملة من المدارس مع توليه وظيفة القضاء[٤] ، وجدير بالذكر أن هذه المدرسة تولها نخبة من العلماء الكبار ذكرهم ابن شداد والنعيمي خلال عصر الدولة النورية والأيوبية والمملوكية[٥] .

٤ـ المدرسة المجاهدية البرانية :

أوقفها الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بزان بن ياجين الذي سبق ذكره في المجاهدية الجوانية (٥٥٥هـ/١١١٠م)[٦] وقد ذكر ابن شداد من مشائخها المدرسين بها شمس الدين عبد الكافي ، ثم تاج الدين أبو بكر الشحروري ، ثم تاج الدين المراغي[٧] .

٥ـ المدرسة العمادية :

بناها السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م)[٨] وولى مشيختها في زمنه خطيب دمشق الفقيه أبو البركات الخضر بن شبل بن عبد

---

[١] أبو شامة : الروضتين ج١ ص٣٠٩ ، تحقيق محمد حلمي ، النعيمي : الدارس ج١ ص٥٢

[٢] القفطي : إنباه الرواة ج٢ ص(٢٤١،٢٤٢)

[٣] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص١٩٦ ، الذهبي : العبر ج٣ ص(٧٦،٧٧) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص٣٣ ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص(٢٩٧،٢٩٨)

[٤] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص(٥٨٦،٥٩٠،٥٩١) ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص(١٠٦،١٠٧) ، الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث ج(٦١١/٦٢٠) ص(١٩٣،١٩٧)

[٥] الأعلاق الخطيرة : ص٢٣٢ ، الدارس ج١ ص٤٥٤

[٦] أبو شامة : الروضتين ج١ ص٣٠٥ ، تحقيق محمد حلمي ، النعيمي : الدارس ص٤٥٢

[٧] الأعلاق الخطيرة ص٢٣٣

[٨] الذهبي : العبر ج٣ ص٣٧ ، العلبي : خطط دمشق ص١٤٨

الحارثي الدمشقي(٥٦٢هـ/١١٦٦م)[١] وخلفه ولداه على هذه المدرسة فاشتغلا فيها بالكيمياء ، فعزلهما نور الدين وعين بدلا منهما الأديب الكاتب محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني [٢] كما عدد ابن شداد من وليها بعد العماد الأصفهاني فذكر تاج الدين بن جبل ثم جاء بعده محي الدين ولده ثم بعده ابنه [٣] .

٦- المدرسة المسمارية :

نسبة إلى بانيها ابن عساكر الحسن بن مسمار الهلالي الحوراني المقرئ التاجر (٥٤٦هـ/١١٥١م) [٤] وقد بناها الشيخ وجيه الدين أسعد بن المنجا بن بركات بن المؤمل التنوخي (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)[٥] وهو أول من درس بها كما ذكر ابن شداد [٦] ، ثم خلفه على مشيختها ولده صدر الدين بن منجا [٧] كما ولي التدريس بها الشيخ الناصح أبو الفرج عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الشيرازي الأنصاري (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) ثم درس بها الشيخ شمس الدين أبو الفتوح عمران بن أسعد بن المنجا (٦٤١هـ/١٢٤٢م) وذلك سنة خمس وعشرين وستمائة [٨] ودرس بها شيخ الفقيه عثمان بن أسعد بن المنجا بن بركات بن المؤمل التنوخي [٩] كما درس بها نيابة عن بني منجا الفقيه فخر الدين عبد الرحمن بن يوسف محمد البقلي (٦٨٨هـ/١٢٨٨م)[١٠] ومن الملاحظ هنا وقف التدريس بهذه المدرسة على أسرة علمية واحدة هي بني المنجا ، هذا دأب بعض المدارس بدمشق حيث كان الواقف يحصر مدرسة على عالم واحد ويجعلها في ذريته .

---

[١] الذهبي : العبر ج٣ ص٣٧

[٢] البنداري : سنا البرق الشامي ص١٢٠ ت ششن

[٣] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص(٢٣٧،٢٣٨)

[٤] النعيمي : الدراس ج٢ ص١١٤

[٥] كرد علي : خطط الشام ج٦ ص٩٩

[٦] الأعلاق الخطيرة ص٢٥٦

[٧] النعيمي : الدارس ج٢ ص١١٧

[٨] نفسه ج٢ ص ١١٧

[٩] نفسه ج٢ ص١١٧

[١٠] نفسه ج ٢ ص ١١٧

٧ـ المدرسة الأكزية :

نسبة إلى بانيها أكز حاجب السلطان نور الدين محمود بن زنكي [١] وقد أتم بناءها في زمن السلطان صلاح الدين جاء ذلك في نص منقوش على عتبة بابها بعد البسملة « وقف هذه المدرسة على أصحاب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه الأمير أسد الدين أكز سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، وتمت عمارتها في أيام الملك الناصر صلاح الدين والدينا ، منقذ البيت المقدس من أيدي المشركين ، أبي المظفر يوسف بن أيوب محي دولة أمير المؤمنين ، الدكان التي شرقيها وقف عليها ، والثلث من طاحون اللوان سنة سبع وثمانين وخمسمائة » [٢]

ويذكر ابن شداد عدد ممن درس بها تاج الدين ابن جهبل ، ثم أبو المجد عبد المجيد الروذارادي ، ثم برهان الدين المراغي ، ثم مجد الدين محمود الشهرزوري [٣] كما درس بها الفقيه العلامة عبد الجبار بن عبد الغني بن علي بن أبي الفضل الأنصاري الخرستاني (٦٢٤هـ/١٢٢٦م) [٤]

٨ـ المدرسة العصرونية :

بناها عبد الله بن السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون (٥٨٥هـ/١٢٨٩م) [٥] العلامة الفقيه الشافعي القاضي [٦] وهي من المدارس المشهورة بدمشق وبلاد الشام وكان لها دورها في الحركة العلمية ونشر المذهب الشافعي ، وقد أوقف عليها أوقافا حسنة وافرة [٧] .

---

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص ٢٣٧

(٢) النعيمي : الدارس ج١ ص ١٦٦

(٣) الأعلاق الخطيرة ص٢٣٧

(٤) النعيمي : الدارس ج١ ص ١٦٧

(٥) المنذري : التكملة ج١ ص ١١٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦ ص (٣٥٥،٣٥٦) ، قاضي شهبه : طبقات الشافعية ج٣ ص (٢٧،٢٨،٢٩،٣٠)

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٥٣ ، المنذري : التكملة ج١ ص ٢٠١، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٠٩

(٧) النعيمي : الدارس ج١ ص (٣٩٨،٣٩٩)

وأول من ولي التدريس بها واقفها ، ثم من بعده ولده القاضي محمد بن عبد الله بن محمد ، ثم من بعده نجم الدين ابن ابنه عبد السلام بن المطهر(٦٣٢هـ/١٢٣٤م)[١]ومن شيوخ المدرسة نجم الدين مظفر بن محمد بن الياس الأنصاري الدمشقي(٦٥٧هـ/١٢٥٨م) درس بها أصالة وبالوكالة [٢]ثم وليها شرف الدين ابن أبي عصرون(٦٥٨هـ/١٢٥٩م) وكان ينوب عنه الفقيه علم الدين القاسم بن أحمد بن موفق اللورقي النحوي الأندلسي(٦٦١هـ/١٢٦٢م)[٣]ثم وليها بعده شرف الدين عثمان سنة(٦٥٨هـ/١٢٥٩م) ثم ولده كمال الدين محمد المعروف بالحنيد ثم شرف الدين محمد بن ناصر ابن أبي عصرون ثم وليها قطب الدين أحمد بن عبد السلام بن المطهر بن أبي عصرون(٦٧٥هـ/١٢٨٣م)[٤]وممن ولي التدريس بها محي الدين عمر بن محمد بن القاضي ابي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون(٦٨٢هـ/١٢٨٣)[٥] ثم وليها أيضا الشيخ الفقيه أحمد بن محمد بن نصر الله تاج الدين الحموي الشافعي(٦٨٧هـ/١٢٨٨م)[٦] ومن الملاحظ أن شرط الواقف هنا قد طبق لأن منصب التدريس فيها محصور في نسل شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون وذلك في حالة عدم أهلية أحدهم للتدريس[٧].

٩- المدرسة العزيزية :تنسب للملك العزيزعثمان بن العادل أبي بكر بن أيوب ،بناها عندما دخل دمشق سنة(٥٩٠هـ/١١٩٣م)، وتولى له أمر بناءها القاضي محيالدين بن الزكي[٨] وجعل عليها أوقافا حسنة منها قرية محجة [٩] وهذه المدرسة من كبريات المدارس الدمشقية في العصر الأيوبي [١٠]

---

(١) النعيمي: الدارس ج١ ص (٢٠٤، ٤٠٣)

(٢) نفسه ج١ ص ٤٠٣

(٣) نفسه ج١ ص ٤٠٣

(٤) الذهبي : العبر ج٣ ص ٣٢٩ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٤٠٣

(٥) النعيمي : الدارس ج١ ص ٤٠٣

(٦) نفسه ج١ ص ٤٠٣

(٧) جوده:صادق أحمد، المدارس العصرونية في بلاد الشام، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ ص١٧٧

(٨) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٤٤١،٤٤٢،٤٤٣) ، الذهبي : تاريخ الإسلام (٥٩١/٦٠٠) ص ١١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٤.

(٩) الذهبي : تاريخ الإسلام ج(٥٩١/٦٠٠) ص١١

(١٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧ ص ٢٠٦.

وامتازت هذه المدرسة بتنوع العلوم بها بين الفقه والنحو وعلوم الفلسفة وعلم الكلام والمنطق [١] لكن تدريس الفلسفة قد توقف بأمر السلطان الأشرف موسى لما منع ذلك من جميع مدارس دمشق [٢] .

ذكر ابن شداد أن أول من ولي التدريس بها القاضي محي الدين محمد بن الزكي (٥٩٨هـ/١٢٠١م) [٣] وتصدر للتدريس بها الشيخ عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الخرستاني (٦١٤هـ/١٢١٧م)[٤] ولما قدم الشيخ تقي الدين خزعل بن عسكر بن خليل المصري النحوي (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) من القدس إلى دمشق نزل بها وتولى الإقراء بها لكتب النحو وعلوم اللغة العربية[٥] وممن تصدر للتدريس بها كذلك الشيخ أبو الحسن على ابن أبي علي بن محمد بن سالم الملقب بالسيف الآمدي(٦٣١هـ/١٢٣٣م) بتفويض من السلطان المعظم عيسى[٦] ثم عزله عنها السلطان الأشرف موسى وذلك لاشتهاره بعلوم الفلسفة والمنطق [٧] ، كما درس بها نيابة أبو محمد بن قاسم بن أحمد موفق بن جعفر اللورقي المرسي (٦٦١هـ/١٢٦٢م) والقى بها دروسا في الفلسفة وعلم الكلام [٨] .

١٠- المدرسة الجاروخية :

شيدها الأمير سيف الدين جاروخ التركماني[٩] بناها للفقيه العلامة أبي القاسم محمود بن مبارك الواسطي البغدادي الشافعي(٥٩٢هـ/١١٩٥م) أحد العلماء الأذكياء المشهورين ، قدم دمشق ودرس بهذه المدرسة ثم تركها وفر إلى شيراز

---

[١] ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص (١٥،١٦) ، المنذري : التكملة ج٣ ص (٣٥٩،٣٦٠)

[٢] ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٩٣

[٣] الأعلاق الخطيرة ص ٢٣٩

[٤] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٥٨٩،٥٩٠،٥٩١) ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص (١٠٦،١٠٧) ، ابن كثير : البداية والنهاية ص (١٣/١٨) ، ابن قاضي شهبه : طبقات الشافعية ج٣٠ ص٥٧، ٥٨).

[٥] أبو شامه : ذيل الروضتين ص١٤٩ ، القفطي : أنباه الرواة : ج١ ص (٣٨٨،٣٨٩)

[٦] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٩١

[٧] ابن فلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٩٣

[٨] ابن الجزري : غاية النهاية ج٢ ص (١٥،١٦) ، القفطي ، أنباه الرواة ج٤ ص ١٦٨

[٩] ابن شداد : الآعلاق الخطيرة ص ٢٢٩

فبنى له ملكها هناك مدرسة[١] وقد تصدر بعده بها الفقيه نصر الله بن محمد بن عبد القوي المصيصي (٥٤٢هـ/١١٤٧م) [٢] ثم تولها الشيخ مسعود بن محمد مسعود النيسابوري (٥٧٨هـ/١١٨٢م) [٣] ثم الشيخ فخر الدين عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر(٦٢٠هـ/١٢٢٣م)وكان من ساكني المدرسة وتوفي بها [٤] وممن تولى التدريس بها الشيخ أحمد بن يحيى بن سني الدولة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) [٥] كما وليها أيضا من العلماء الشيخ شهاب الدين أحمد المعروف بالأعرج، ثم جاء بعده الشيخ نجم الدين الباذرائي ، ثم الشيخ أبو بكر بن علي بن أبي طالب الاسكندري ، ثم عقبه الشيخ مجد الدين عبدالمجيد الروذراوري وبعده الشيخ كمال الدين محمد بن رضى الدين أحمد بن علي المعروف بابن النجار ، وبقي يدرس بها حتى سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م) [٦]

١١ـ المدرسة الصارمية : تنسب لصارم الدين قيماز النجمي (٥٩٦هـ/١١٩٩م) كان من أكابر المماليك عند السلطان نجم الدين أيوب[٧] ، جاء ذلك في عبارة منقوشة على عتبة باب المدرسة نصها: « بسم الله الرحمن الرحيم هذا المكان المبارك إنشاء الطواشي الأجل صارم الدين جوهر بن عبد الله الحر عتيق الست الكبيرة الجليلة عصمة الدين عذراء ابنة شاهنشاه رحمها الله تعالى . وهي وقف محرم وحبس مؤبد على الطواشي المسمى أعلاه مدة حياته ، ثم بعد حياته على المتفقهة من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه.. كتب سنة اثنتين وعشرين وستمائة » [٨]وممن ولي التدريس بها في فترة البحث الشيخ أحمد بن الشهاب محمد بن خلف بن راجح بن بلال الحنبلي (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)[٩]

---

[١] الذهبي : العبر ج ص (١٠٦،١٠٧)

[٢] النعيمي : الدارس ج١ ص٢٢٧

[٣] السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص (٢٩٧،٢٩٨)

[٤] نفسه ج٨ ص (١٧٧،١٧٨،١٧٩)

[٥] الأسنوي : طبقات الشافعية ص١٨١ ، ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص(٤٧،٤٨)

[٦] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص (٢٢٩،٢٣٠)

[٧] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ص٤٧٤

[٨] النعيمي :الدارس ج١ ص(٣٢٦،٣٢٧)، كنان:المروج السندسية ص٤٤، بدران: منادمة الأطلال ص١١١

[٩] ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٨٣٠،٨٣١)

١٢ـ المدرسة التقوية :

هي من أجل مدارس دمشق ، كانت تسمى نظامية الشام[١] تنسب إلى الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، بناها للعلامة شهاب الدين أبي الفتح محمد بن محمود الطوسي (٥٩٦هـ/١١٩٩م) سنة أربع وسبعين وخمسمائة[٢] وقد أوقف عليها أوقافا حسنة كثيرة [٣]

يذكر ابن شداد أن أول من ولي التدريس بها هو القاضي محي الدين محمد بن علي بن محمد بن يحيى القرشي الدمشقي (٥٩٨هـ/١٢٠١م)[٤] وممن ولي التدريس بها الفقيه عبد الله بن محمد بن الحسن بن أبي المظفر ابن عساكر (٥٩١هـ/١١٩٤م)[٥] كما تولى التدريس بها الفقيه فخر الدين عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) كانت له همة عالية في التدريس فكان تحت يده عدة مدارس وقد ولاه على التدريس بها الملك العادل فكان يجتمع عنده بالمدرسة كبار الفقهاء (فضلاء الوقت)[٦] ثم أخذها منه المعظم عيسى ، وبعض المدارس الأخرى لإنكاره عليه أمر الخمور[٧] ومن شيوخ المدرسة القاضي عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل الأنصاري الخزرجي الدمشقي الحرستاني (٦٦٢هـ/١٢٦٣م)[٨]

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص (١٣٦،١٣٧،١٣٨)

[٢] النعيمي : الدارس ج١ ص ٢١٦ ، بدران : منادمة الأطلال ص (٩٠،٩٣)

[٣] بدران : منادمة الأطلال ص٩٠

[٤] الأعلاق الخطيرة ص ٢٣٥ ، أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٣٣ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٢٢٠

[٥] المنذري : التكملة ج١ ص (٢١٩،٢٢٠) ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص ١٢٨ ، الأسنوي : طبقات الشافعية ص ٢٩٧

[٦] أبو شامة : ذيل الروضتين ص (١٣٦،١٣٧،١٣٨) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٠٩

[٧] أبو شامة : ذيل الروضتين ص (١٣٦،١٣٧،١٣٨) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٠٩

[٨] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٣٥ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ص ١٩٨ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٢٢٠ ، الأنصاري : نزهة الخاطر ج١ ص ٣٠١

١٣ـ المدرسة الدولعية :

أنشأها العلامة جمال الدين محمد بن أبي الفضل بن زيد بن ياسين بن زيد الخطيب الدولعي (٦٣٥هـ/١٢٣٧م)[١] تقع هذه المدرسة في جيرون[٢]وهو أول من تولى التدريس بها ، ثم من بعده أخوه شرف الدين الدولعي ، ثم ابن أخيه شمس الدين، ثم من بعده كمال الدين ابن نبت سلار،[٣] وقد بقيت مشيخة المدرسة في بيت الدولعي حتى نهاية العصر الأيوبي ثم خرجت[٤] .

١٤ـ مدرسة الاقبالية الكبرى :

تنسب لجمال الدولة إقبال خادم السلطان صلاح الدين الأيوبي (٦٠٤هـ/١٢٠٧م) وهي في الأصل دار له أوقفها على الشافعية ، وله أخرى للأحناف[٥] وجعل لها أوقفا سخية الثلثان منها للشافعية والثلث الباقي للمدرسة الحنفية[٦].

يذكر ابن شداد ممن درس بها القاضي شمس الدين أبو البركات يحيى بن هبة الله بن الحسن الدمشقي (٦٣٥هـ /١٢٣٧م)[٧] ثم من بعده ولده أحمد بن وسنى الدولة (٦٥٨هـ /١٢٥٩م) ثم نجم الدين محمد بن أحمد بن سنى الدولة (٦٨٠هـ/١٢٨١م)[٨]

١٥ـ المدرسة الشامية البرانية (الكبرى) :

يقال لها الحسامية[٩] وتنسب إلى ست الشام بنت نجم الدين أيوب أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي (٦١٦هـ/١٢١٩م)[١٠] ولها مدرسة أخرى هي

---

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص ٢٣٤

(٢) النعيمي : الدارس ص ٢٤٢

(٣) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٣٤

(٤) الدارس : ص (٢٤٤،٢٤٥،٢٤٦)

(٥) أبو شامة : ذيل الروضتين ص٥٩ ، الذهبي : تاريخ الإسلام، حوادث ص (٦٠١،٦١٠) ص ١٤٧ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ١٥٩ ، العلبي : خطط دمشق ص ١٠١

(٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٥٩

(٧) أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٦٦ ، النعيمي : الدارس ج١ ص ١٦٠

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٣٧

(٩) النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٠١

(١٠) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١١٥

الشامية الجوانية وجعلت على مدرسيها أوقافا كثيرا داره[١] وقد تولى عمارتها شبل الدولة كافور الحسامي[٢]وعندما حضرتها الوفاة احضرت القاضي محي الدين بن علي بن محمد بن الزكي والشهود وأوصت بدارها مدرسة[٣] .

يقول النعيمي :((وهي من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء وأكثرها أوقافا))[٤] تصدر بها نخبة من أفاضل العلماء منهم الفقيه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى بن علي القرشي الدمشقي (٦١٥هـ/١٢١٨م)[٥] كما تصدر بها الشيخ محمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن يحية بن نبدار أبو نصر الشيرازي (٦٣٥هـ/١٢٣٧م)[٦] وتولها أيضا القاضي الرفيع عبد العزيز بن عبد الواحد الجيلي (٦٣٧هـ/١٢٣٩م)[٧] ثم الشيخ أحمد بن الشهاب بن محمد بن خلف بن راجح الحنبلي (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)[٨] ، كما تولها كذلك الشيخ محمد بن يونس بن بدران بن فيروز بن صاعد القرشي الدمشقي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)[٩] ودرس بها الشيخ محمد بن الحسين بن دزين بن موسى بن عيسى العامري الحنفي الشافعي (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)[١٠] ثم جاء بعده الشيخ أحمد بن أحمد بن نعمة بن أحمد شرف الدين النابلسي المقدسي (٦٧٤هـ/١٢٧٥م)[١١]

---

(١) نفسه ص ١١٥

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص١٢٥

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٠٥،٦٠٤) ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص (١٥٥،١٥٤،١٥٣)

(٤) النعيمي : الدارس ج١ ص ٢٧٧

(٥) الذهبي : العبر ج٣ ص ١٦٦ ، ابن قاضي شهبه : طبقات الشافعية ج٣ ص٥٢

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦٢ ، الذهبي : العبر ج٣ ص ٢٢٤ ،تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص (١٠٧،١٠٦)

(٧) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٧٣٠،٧٢٩) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٥

(٨) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧١، ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٨٣١،٨٣٠)

(٩) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (٣٥،٣٤)

(١٠) الداوودي : طبقات المفسرين ج٢ ص (١٣٩،١٣٨)

(١١) السيوطي : بغية الوعاة ج١ ص (٢٩٥،٢٩٤)

١٦ـ المدرسة الشامية الجوانية :

تنسب إلى ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادي (٦١٦هـــ/١٢١٩م)[١] وتسمى بالحسامية نسبة إلى ابنها حسام الدين بن لا جيـــن (٥٨٧هـــ/١٢٩١م)[٢] وتنسب كذلك إلى ابنته[٣] جعلت عليها وأقفتها أوقافا كثير[٤] .

وكان شرط الوقف أنها على الشافعية فقط وأن يكون التدريس بها للقـــاضي أبي العباس أحمد بن محمد بن علي القرشي (٦١٧هــ/١٢٢٠م) إن كان حيا ثم فـي ولده ، ثم في ولد ولده ، ثم في نسله المنتسبين إليه ممن لـــه أهليـــة التدريـــس،[٥] وتذكر المصادر أنه في سنة ثمان وعشرين وستمائة ألقى بها الشـــيخ أبـــو عمـــر عثمان بن الصلاح (٦٤٣هــ/١٢٤٥م) الدرس وحضر معه الملك الصالح اسماعيل بن أيوب[٦]

١٧ـ المدرسة الظاهرية البرانية :

باني هذه المدرسة الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صـــــلاح الديـــن الأيوبي[٧] .

وتولها من العلماء العلامة الفقيه شمس الدين محمد بن معن بـــن ســـلطان الشيباني الدمشقي (٦٠٤هــ/١٢٠٧م)[٨] وولي التدريس بها عمر بن محمد بن عبـد الرحمن بن عبد الله بن علوان (٦٩٢هــ/١٢٩٢م)[٩]

---

[١] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٠٦

[٢] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١١٩

[٣] سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦٠٦

[٤] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٠٦ ، النعيمي : الدارس ج١ ص(٣٠١،٣٠٢) العلبي : خطـط دمشق ص ١٢٦

[٥] النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٠٣

[٦] سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص (٦٦٥،٦٦٦) ، ابن فلكان : وفيات الأعيـــان ج٣ ص ٢٤٤ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص ١٤٣٠ ، ابن كثير : طبقـــات الفقـــهاء الشـــافعيين ج٢ ص (٨٥٧،٨٥٨) ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٠٣

[٧] النعيمي : الدارس ص٣٤٠

[٨] المنذري : التكملة ج٣ ص ٦١٤

[٩] السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص ٣٤١

١٨ـ المدرسة الرواحية :

تنسب إلى منشئها زكي الدين أبو القاسم هبة الله المعروف بـــابن رواحـــه (٦٢٣هـ/١٢٢٦م)[١] من أكابر العدول وأصحاب الثروات[٢] اعتنى بـــها وجعـــل عليها أوقافا حسنة ، وكان من ضمن مرافقها خزانة كتب حسنة[٣] .

وأول من ولي التدريس بها الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن سلطان يحيى بن علي القرشي الدمشقي (٦١٥هـ/١٢١٨م) أحد كبار العلماء ممن زاده الله بسطة في العلم والجسم [٤] كما تولها الفقيه فخر الدين عبد الرحمن بن محمد بن الحســـن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي الشافعي (٦٢٠هـــ/١٢٢٣م)[٥] ، ثـــم تولها الشيخ أبو عمرو تقي الدين عثمان بن الصلاح (٦٤٣هـــ/١٢٤٥م)[٦] كمـــا درس بها الشيخ الفقيه شمس الدين عبد الرحمن بن نـــوح بـــن محمـــد المقدســـي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)[٧] ثم خلفه ولده ناصر الدين محمد ، ثم من بعده شرف الديـــن أحمد بن كمال الدين أحمد بن نعمه النابلسي المقدسي[٨] وممن وليها أيضا القـــاضي نجم الدين عمر بن نصر بن منصور البياني الشافعي (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)[٩] .

١٩ـ المدرسة المسرورية :

تنسب إلى بانيها الأمير فخر الدين مسرور الملكـــي النـــاصري العـــادلي ، وقفها عليه شبل الدولة الحسامي (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) حسب رواية الأسدي [١٠] ثـــم زيد فيها بعد ذلك وأول من درس بهذه المدرسة حسب شرط الواقف الفقيه العـــالم

---

[١] أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٤٩

[٢] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٢٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٤٤

[٣] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٢٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٤٤

[٤] ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية ج٣ ص ٥٢

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين ص (١٣٦،١٣٧)

[٦] ابن فلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٤٤ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ ج٤ ص (١٤٣٠،١٤٣١) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ١٨٠

[٧] السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص ١٨٨، ابـــن قـــاضي شـــهبة : طبقـــات الشـــافعية ج٣ ص (١٠٨،١٠٩)

[٨] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص ٢٤١

[٩] ابن كثير : البداية والنهاية ج٧ ص ٣٢٢

[١٠] النعيمي : الدارس ج١ ص ٤٥٥

أبو الحسن علي بن مرتفع بن أقتكين الجميزي المصري الدمشـــقي[١]، وشـــرط أن يباشر التدريس بها بنفسه أو يستنيب فيه من أراد ممن هو أهل لذلك ، لما يعلم مـــن دينه وأهليته للتدريس وممن تنطبق شروط الوقف عليه ، ويكون التدريس في ذريته إذا كان فيهم من هو أهل لذلك[٢] .

وذكر ابن شداد أن أول من ولي مشيختها شيخ الإسلام محمد بن أبي القاسم بن محمد فخر الدين ابن تيمية الحراني (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)[٣] ثم من بعـــده ولـــده شهاب الدين ثم من بعده ناصح الدين مرتفع بن افتكين ثم ولده ركن الديـــن يونـــس وقد استمر بها إلى سنة رابع وسبعين وستمائة[٤] .

٢٠ـ المدرسة الفلكية :

تنسب إلى الأمير ركن الدين منكورس الفلكي (٦٣١هـ/١٢٣٣م) غلام فلك الدين أخو الملك العادل أبي بكر بن أيوب[٥] والصحيح أنها تنسب إلى الأمير فلـــك الدين أبي منصور سليمان بن شيرويه بن جلدك (٥٩٦هـــ/١١٩٩م) وهـــو أخـــو الملك العادل لأمه [٦] وتقع داخل باب الفراديس[٧] وأوقف عليها قرية الخمان[٨]

وممن ولي التدريس بها القاضي عبد العزيز بن عبد الواحد بن اســـماعيل رفيع الدين الجبلي الشافعي (٦٤٢هـ/١٢٤٤م)[٩] ودرس بها الشيخ محمود بن عبد الله بن عبد الرحمن أبو الثناء المراغي (٦٨١هـ/١٢٨٢م)[١٠]

---

(١) النعيمي: الدارس ج١ ص ٤٥٥

(٢) نفسه ج١ ص ٤٥٥

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١١٧

(٤) الأعلاق الخطيرة : ص ٢٣٨

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٥٢

(٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ص٣٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٥ ، النعيمي : الـــدارس ج١ ص (٤٣١،٤٣٤)

(٧) أبو شامه : ذيل الروضتين ص٣٣

(٨) نفسه ص ٣٣

(٩) ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص (٨٥٥،٨٥٦)

(١٠) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص ٣٦٩ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٤ ص ١٧٧

٢١- المدرسة البهنسية :

أنشأها الوزير مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهلب البهنسي (٦٢٨هـ/١٢٣٠م) تقع في جبل الصالحية[١] لقيت من كل عناية ، واقف عليها خزانة كتبه[٢] وممن ولي مشيختها في فترة البحث القاضي نجم الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسن بن سنى الدولة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م)[٣] .

٢٢- المدرسة الركنية (الجوانية) :

تنسب إلى الأمير ركن الدين منكورس الفلكي (٦٣١هـ/١٢٣٣م) غلام فلك الدين أخ الملك العادل أبو بكر بن أيوب،[٤] وهي تقع في جبل قاسيون[٥] وأوقف عليها أوقافا كثير داره،[٦] تصدر للتدريس بها القاضي شمس الدين سنى الدولة ، ثم ولده صدر الدين أحمد ثم نجم الدين محمد ثم شمس الدين بن خلكان ، وكان ينوب عنه في التدريس بها الشيخ محي الدين النووي[٧] ثم خلفه بدر الدين محمد بن سنى الدولة[٨] وقد أشار إبن كثير إلى بعض الكتب الفقهية المعتمدة ضمن مناهج هذه المدرسة ، فذكر أن ابن خلكان لما نزل بها سنة ٦٦٠هـ شرع في تدريس كتاب المزني[٩] (المختصر) بدأ فيه من أوله[١٠] .

---

(١) النعيمي : الدارس ج١ ص ٢١٥

(٢) نفسه ج١ ص ٢١٥

(٣) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٥١ ، ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص ٣٦٧

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص ٦٩٢ الذهبي : تاريخ الإسلام حوادث ج(٦٣١/٦٤٠) ص (٧٤،٧٣) ، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص ١٥٤ .

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام حوادث ج(٦٣١/٦٤٠) ص (٧٤،٧٣) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص١٥٢

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام حوادث ج(٦٣١/٦٤٠) ص(٧٤،٧٣) ابن كثير : البداية والنهاية : ج١٣ ص١٥٢

(٧) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص(٢٣٧،٢٣٦) ، النعيمي : الدارس ج١ ص ٢٥٣ ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص (٤٣،٤٢)

(٨) (١) ابن شداد الأعلاق الخطيرة ص (٢٣٧،٢٣٦)

(٩) هو اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل بن أبي عمرو بن اسحاق المزني ، أحد الأئمة في المذهب ، عالما زاهدا مجتهدا ، توفي سنة (٢٦٤هـ/٨٧٧م) وصنف كتبا في المذهب منها (الجامع الكبير) و(الجامع الصغير)و(الترغيب في العلم) وغيرها ، ابن فلكان : وفيات الأعيان ج١ ص٢١٧، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص (٩٥،٩٤،٩٣)، ابن العماد : شذرات الذهب ج٢ ص١٤٨

(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص٢٤٧

٢٣ـ المدرسة القلجية :

ينسبها ابن شداد إلى مجاهد الدين ابن قليج محمد بن شمس الدين محمود (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) ،[١] بنية في حدود سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ،[٢] أول من درس بها القاضي زين الدين بن اللتي ، ثم من بعده ولده ، ثم خلفه من بعده عماد الدين بن العربي ، ثم جمال الدين بن عبد الكافي[٣] .

٢٤ـ المدرسة الأتابكيه (بالصالحية):

تنسب إلى خاتون بنت عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكي بن اقسنقر الأتابكية زوجة السلطان الملك الأشرف موسى[٤]. أول من ولي التدريس بها تاج الدين أبو بكر بن طالب الاسكندري المعروف بن الشحرور (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) وليها إلى حين وفاته [٥] ثم درس بها نجم الدين إسماعيل المارداني واستمر بها إلى سنة أربع وسبعين وستمائة [٦] .

٢٥ـ المدرسة الكروسية :

ذكر ابن كثير أن واقف هذه المدرسة هو محتسب دمشق محمد بن عقيل بن كروس بن جمال السلمي الدمشقي (٦٤١هـ/١٢٤٢م)[٧] وهو واقف دار الحديث الكروسية أيضا[٨] ولم تفصح المصادر بصورة واضحة عمن ولي التدريس بها زمن حكم الأيوبيين لدمشق[٩] .

---

[١] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ض٢٤٣ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٤٣٤

[٢] العلبي : خطط دمشق ص١٥٣

[٣] ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص ٢٤٣ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٤٣٤

[٤] ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٧٣ ، العبر : الذهبي ج٣ ص٢٣٨

[٥] أبو شامة : ذيل الروضتين ص٢٣٧ ، النعيمي : الدارس ج١ ص١٣٠

[٦] النعيمي : الدارس ج١ ص ١٣٠

[٧] ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص (١٧٤،١٧٥)

[٨] ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٧٥ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٤ ص ٩٨ ، بدران : منادمة الأطلال ص (٥٧،٥٨).

[٩] النعيمي : الدارس ج١ ص (٤٤٦،٤٤٧) ، العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص٧٥

٢٦- المدرسة المجنونية :

تنسب إلى واقفها شمس الدين بن شروة بن حسين المهراني (٦٤٢هـ/١٢٤٤م) الغازي المجاهد بنيت سنة ثلاثين وستمائة [١] وقد كتب على عتبة شباكها « ... هذه التربة الأمير شمس الدين شروة بن حسن المهراني المعروف بالسبع مجانيين الحاجي الغازي المجاهدي في سبيل الله توفى إلى رحمة الله في رجب سنة ٦٤٢هـ رحمه الله تعالى ... »[٢] . من أوائل من درس بها الفقيه جمال الدين أحمد بن اسماعيل الهكاري[٣] وولي مشيختها كذلك كمال الدين ابن بنت نجم الدين بن سلار وقد درس بها إلى سنة أربع وسبعين وستمائة [٤] .

٢٧- المدرسة الصالحية :

تنسب إلى الملك الصالح أبو الجيش إسماعيل بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ومن العلماء الذين تولوا مشيخة هذه المدرسة في العصر الأيوبي الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف بن راجح بن بلال بن هلال الحنبلي الشافعي (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)[٥] وقد جمعت هذه المدرسة بين تدريس الفقه والحديث إلى جانب القرآن الكريم[٦] .

٢٨- المدرسة الأصفهانية : بناها رجل تاجر من أصبهان ،[٧]وقد ولي مشيختها الفقيه جمال الدين محمد عبد الكافي بن عبد الملك بن عبد الكافي الربعي الدمشقي (٦٨٩هـ/١٢٨٧م) خطيب دمشق والمفتي بها [٨] .

---

(١) النعيمي : الدارس ج١ ص ٤٦٧

(٢) نفسه ج١ ص ٤٦٧ هامش رقم (١)

(٣) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٥٠

(٤) نفسه ص٢٥٠

(٥) النعيمي : الدارس ج١ ص (٣١٨،٣١٦)

(٦) نفسه ج١ ص (٣١٨،٣١٦) ، العلموي: مختصر تنبيه الطالب(٥٠)، العلبي: خطط دمشق ١٣.

(٧) النعميمي : الدارس ج١ ص ١٥٨

(٨) الذهبي : العبر ج٣ ص٣٦٩

٢٩ـ المدرسة البادرائية :

تنسب إلى الشيخ العلامة عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن بن عبد الله البادرائي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) كانت دارا تسمى دار أسامة[١] اشتراها من الملك الناصر داود بن المعظم وبني بها هذه المدرسة[٢] وأوقفت عليها أوقافا كثيرة[٣] وهو أول من ذكر بها الدرس ، وجعل لها يوما افتتحت فيه حضرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف واسائر أرباب الدولة والعلماء القضاة ورتب فيها في ذلك اليوم المعيدين[٤] وقرأ فيه كتاب وقفها وذكر فيه « ولا تدخلها إمرأة فقال السلطان ولا صبي فقال الواقف يا مولانا السلطان ، ربنا ما يضرب بعصلتين »[٥] كما أنه جعل بها خزانة كتب نافعة[٦] يقول اليونيني « وهي من أحسن المدارس بل أحسنها على الإطلاق »[٧] .

وممن ولي التدريس بها بعد الواقف ولده جمال الدين عبد الرحمن[٨] كما ولي التدريس بها الفقيه الأصولي المفسر عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الغزاري الفركاح (٦٩٠هـ/١٢٩١م) وليها سنة ست وسبعين وستمائة[٩] .

---

(١) هو أسامة الحلبي أحد أكابر الأمراء صاحب قلعة عجلون وكوكب ، اعتقله السلطان العادل أبي بكر بن أيوب بقلعة الكرك وصادر أمواله وأملاكه توفى سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص٦٩ ، بدران : منادمة الأطلال ص٨٧ .

(٢) ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص٨٧٠ ، الأسنوي : طبقات الشافعية ص٩١ .

(٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (٧٣،٧٢،٧٠) بدران : منادمة الأطلال ص٨٧ ، رضا : محمد سعيد : المدرسة البادرائية في دمشق ، مستل من مجلة كلية الآداب جامعة البصرة العدد ١١ ص (٧٩،٧٣،٧٢،٧١) .

(٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (٧٣،٧٢،٧٠)

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص (٢١٠،٢٠٩)

(٦) أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٩٨ ، تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٧ ص ٢٨١

(٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج١ ص (٧٣،٧٠)

(٨) نفسه ج١ ص (٧٣،٧٢،٧١،٧٠)

(٩) الأسنوي : طبقات الشافعية ص (٣٢٦،٣٢٥)

٣٠ـ المدرسة القميرية :

تنسب للأمير ناصر الدين الحسين بن عبد العزيز بن أبي الفوارس القميري (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) تقع عند مئذنة فيروز ، وقد صنع على بابها الساعات التي لم يسبق إلى مثلها ولم يعمل على شكلها يقال أنه غرم عليها أربعين ألف درهم[١] .

وفوض التدريس بها إلى الشيخ علي بن محمود بن علي الشهر زوري ، (٦٧٥هـ/١٢٧٦م) وهو أول من درس بها ، وجعل التدريس في ذريته ممن تتوفر فيه الأهلية[٢] ويقول ابن كثير :« وهي من أحسن المدارس الموقوفة على طلبة العلم »[٣] .

٣١ـ المدرسة العادلية الصغرى :

هي وقف بابا خاتون بنت أسد الدين شيركوه على ابنة عمها زهرة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب[٤] وجعلت ما لديها من القرى والضياع وقفا يصرف على مصالحها ، وتقرر في شرط واقفها أن يكونبها مدرسا ومعيدا وإماما ومؤذنا وبوابا وقيما وعشرين فقيها [٥] وقد نقش على عتبة بابها نص يشير إلى واقفها نصه « أمر بإنشاء هذه الدار المباركة ، المولى الجليلة الخاتون عصمة الدين زهراء خاتون ابنة السلطان العادل ... ووقف على الفقهاء الشافعية ، وإقامة الصلوات الخمس بها ، وعلى من يقرأ القرآن الكريم ، ورباطا لسكن خدامها وعتقائها ومن بعدهم على الفقراء والمساكين وكان الفراغ من بناءها سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) ــ يتولى معتقها الحاج عزيز الدين بن عبد الله»[٦].

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٢٣٩، ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٤٥.

(٢) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص (٣٠٠،٣٠١) ، البداية والنهاية ج٣ ص ٢٨٨، الأسنوي : طبقات الشافعية (٢٥٤،٢٥٦)

(٣) ابن كثير : طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ ص ٨٨٧

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٣٤٣ ، النعيمي : الدارس ج١ ص٣٦٨

(٥) النعيمي : الدارس ج١ ص ٣٦٨

(٦) العلبي : خطط دمشق ص (١٣٩،١٤٠)

وذكر ابن شداد أن أول من ولي التدريس بها أشرف الدين أحمد بن أحمد بن نعمة المقدسي ، ثم خلفه تقي الدين بن حياة الرقي ، ثم عاد إليها شرف الدين أحمد بن أحمد المقدسي فترة ثانية[١] .

٣٢ـ المدرسة الناصرية الجوانية :

تقع داخل باب الفراديس إلى الشمال من الجامع الأموي[٢] شيدها الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز عثمان (٦٥٩هـ/١٢٦٠م)[٣] ، وكمل البناء بها سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) وحضر مراسيم الافتتاح واقفها الملك الناصر يوسف ومعه الأمراء والعلماء والأعيان[٤] وجمهور أهل الحل والعقد بدمشق،[٥] وكان أول من درس بها القاضي صدر الدين أحمد بن سني الدولة ،[٦] ثم جاء بعده القاضي نجم الدين محمد بن أحمد بن يحيى بن هبة الله السن بن سنى الدولة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م)[٧] ، وهي من المدارس التي تعني بتدريس اللغة العربية إلى جانب الفقه فقد تصدر لإقراء النحو بها الشيخ أحمد بن سالم شهاب الدين المصري (٦٦٤هـ/١٢٦٥م)[٨] ثم تصدر للنحو أيضا الأديب العلامة عمر بن اسماعيل بن مسعود سعد بن سعيد الفارقي (٦٨٧هـ/١٢٨٨م)[٩].

---

(١) الأعلاق الخطيرة ص٣٤٣

(٢) النعيمي : الدارس ج١ ص ٤٥٩

(٣) نفسه ج١ ص ٤٥٩

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٧٩٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٣ ص٢٠٦

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج٣ ص ٢٠٦

(٦) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٤٤ ، الذهبي : العبر ج ص٢٨٩

(٧) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ص٢٤٤،ابن قاضي شهبه : طبقات الشافعية ج٢ ص١٤٧

(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ج٢ ص ٣٤٩ ، ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٧٥هـ ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ، ج١ ص٢٨٢

(٩) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ج٨ ص (٣٠٨،٣٠٩)

